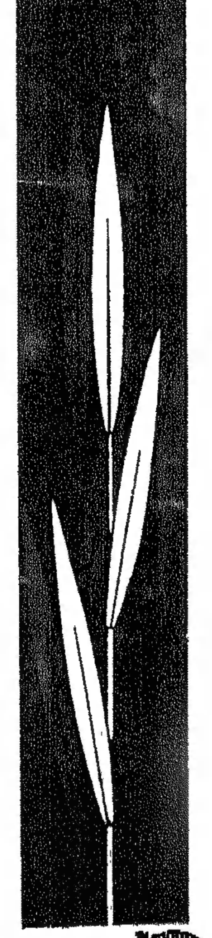
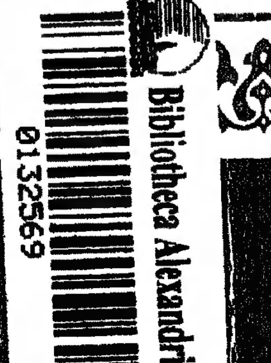
من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم
(٢)



دكتور يوسف القرضاوي

العقل والعلم في القرآن الكريم





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠



العقل والعلم

في القرآن الكريم



من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

(٢)

دكتور يوسف القرضاوي

العقل والعلم في القرآن الكريم

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ، ت : ٤٨٢٧٨٥١

من الدستور الإلٰهى

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (٥) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦) .

* * *

---

(١) العلق : ١ - ٤ (٢) البقرة : ١٦٤ (٣) العنكبوت : ٤٣

(٤) الزمر : ٩ (٥) سبأ : ٤٦ (٦) الحج : ٥٤



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً ، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . وصلوات الله وتسليماته على مَن نزَّل الله عليه الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبُشرَى للمسلمين . وكانت سُنَّته وسيرته : البيان النظرى والتطبيق العلمى لكتاب الله ، ليُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون . وكان خُلُقه القرآن ، كما وصفته ألصق الناس به عائشة رضى الله عنها ، وعن سائر آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه ، أولئك هم المفلحون ، وعن كل مَن سار على دربه ، وانضم إلى حزبه إلى يوم الدين .

أما بعد . .

فلم أزل – ولله الحمد والمنَّة – منذ فجر شبابى ، منذ هيأ لى الله سبحانه أن أرتقى المنبر لأخطب ، أو أمسك بالقلم لأكتب ، أعتبر القرآن الكريم هو مصدرى الأول ، ومعتمدى الأساسى ، أستمد منه الهداية والتسديد ، فى كل محاضراتى وخطبى ، وعامة مؤلفاتى وكتبى . ساعدنى على ذلك حفظى المبكر للقرآن ، وأنا دون العاشرة ، واستحضارى لآياته بيُسر ، كلما احتجت إلى الاستشهاد بها فى مختلف المعانى وشتَّى الموضوعات .

ومع هذا لم يزل فى نفسى – كما هى أُمنية كل عالِم مسلم – أن يكون لى خدمة مباشرة للقرآن العزيز ، بوصفه كتاب الإسلام الأول ، وكتاب

العربية الأكبر ، كما قال الشيخ أمين الخولى رحمه الله ، والوثيقة السماوية الوحيدة التى تحمل كلمات الله الأخيرة لهداية البَشرية ، ولم يصبها تحريف ولا تبديل بأى وجه ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

وقد كنت نشرت - منذ نحو عشرين عاماً - كتابى « الصبر فى القرآن الكريم » باعتباره حَلْقة فى سلسلة للدراسات القرآنية تتناول التفسير الموضوعى للقرآن .

وكان المفروض أن أتبع هذه الحَلْقة بأخوات لها فى موضوعات قرآنية أُخرى ، كتبت رؤوس أقلامها كما يقولون ، مثل « الشكر فى القرآن » وهو قرين « الصبر » فى القرآن والسُّنَّة . ومثل « الإيمان فى القرآن » ومثل « الدعاء فى القرآن » ، وغيرها من الموضوعات .

بَيْد أن الشواغل الفكرية والعملية الآنية التى تعرض للإنسان باستمرار ، وتفرض عليه أن يكتب فى أشياء يتطلبها الوقت ، ويحددها الموقف - أخَّرتنى عن إنجاز ما كان فى نفسى وهو ما يحدث أبداً مع كثير من المشروعات العلمية والفكرية التى أنوى إخراجها للناس . وهو دليل على محدودية الطاقة البَشرية . وما كل ما يتمنى المرء يدركه .

وقد كان من المسوّدات التى لدىّ من قديم فى الدراسات القرآنية : هذا الموضوع الذى أقدمه اليوم للقارئ الكريم « العقل والعلم فى القرآن الكريم » . وقد شرح الله صدرى لتبييضه وإتمامه على الوجه الذى يراه القُرَّاء اليوم بفصوله الستة ، معتمداً على كتاب الله تعالى فى المقام الأول . وسيجد

---

(١) فصلت : ٤١ ، ٤٢

القارئ المسلم - وغير المسلم أيضاً - مبلغ « العقلانية » ومدى « العلمية » فى هذا القرآن . وكيف يغرس هذين المعنيين الكبيرين فى العقول والقلوب ، وكيف يربِّى الأُمة فى ضوئهما .

وأرجو الله العلى الكبير أن يوفقنى لإصدار المزيد من هذه السلسلة ، خدمة لكتاب ربنا ، وتوسلاً إليه سبحانه أن نكون من أهل القرآن ، الذين هم أهل الله وخاصته ، كما صحَّ فى الحديث (١) ، وأن يكون القرآن شفيعاً لنا يوم القيامة ، فقد صحَّ أنه يشفع لأصحابه (٢) .

كما أدعوه جَلَّ وعلا أن يمدنى بروح من لدنه ، حتى أكمل كتابى الذى كتبت فيه عدة فصول « كيف نتعامل مع كتاب الله » ، وهو كتاب لا بد منه ليتكامل مع كتابى « كيف نتعامل مع السُّنَّة النبوية » ، فالقرآن هو الوحى المتلو ، والسُّنَّة هى الوحى غير المتلو .

أما فى التفسير « التحليلى » أو « الموضعى » كما يسميه شيخنا محمد الغزالى ، فقد اقترح علىَّ الإخوة فى الجزائر الشقيقة - حين أُعرت إليها من دولة قَطَر سنة (١٩٩٠ ، ١٩٩١) - أن أعقد درساً أُسبوعياً فى « التفسير » فى أقدم جوامع العاصمة ، واقترح علىّ بعضهم أن أبدأ بـ « سورة يوسف » واستجبت لذلك ، واستمر الدرس عدة أشهر ، أنهيت فيه معظم السورة ، وإن لم أكملها . وقد سجلت هذه الدروس بالصوت والصورة ، ولا أدرى ما مصيرها ، بعد أن قُطِعَ الطريق بالقوة الغاشمة على الإسلاميين فى الجزائر ، وجرى عليها ما جرى ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله !

---

(١) ولفظه : « إن لله أهلين من الناس : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » رواه أحمد والنسائى وابن ماجه والحاكم عن أنس ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته للألبانى برقم (٢١٦٥) ، طبعة المكتب الإسلامى الثانية .

(٢) ولفظه : « اقرؤوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » رواه أحمد ومسلم عن أبى أُمامة . المصدر السابق (١١٦٥) .

وبعد عودتى من الجزائر اقترح علىَّ بعض الإخوة فى قَطَر أن أستمر فى دروس التفسير فى مسجد عمر بن الخطاب ، الذى أخطب فيه الجمعة ، وأن أبدأ بـ « سورة الرعد » . وقد سُجِّلت هذه الدروس ، وقام أحد الإخوة الأفاضل من علماء الأزهر (١) بنشرها والتعليق عليها ، جزاه الله خيراً .

اللَّهُمَّ اجعل القرآن الكريم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب هَمِّى .

﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

القاهرة : ربيع الأول سنة ١٤١٦ هـ - أغسطس (آب) سنة ١٩٩٥ م

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوى

* * *

---

(١) هو الأخ الفاضل الشيخ محمود عوض حفظه الله ونشرتها « دار البشير » بطنطا .

(٢) التحريم : ٨

الفصل الأول

مكانة العقـل والفكر فى القـرآن

- العقل ومجاليه فى القرآن .
- إشادة القرآن بأُولى الألباب .
- التفكر ومجالاته فى القرآن .
- التفكر بعيداً عن تأثير العقل الجَمْعى .
- الدعوة إلى التذكر والاعتبار .
- شهادات المنصفين بعقلانية القرآن .

مكانة العقل والفكر فى القرآن

● مادة (ع ق ل) فى القرآن :

جاءت مادة (ع ق ل) فى القرآن الكريم ٤٩ (تسعاً وأربعين مرة) .

كلها - إلا واحدة - جاءت بصيغة الفعل المضارع ، وخصوصاً ما اتصل به واو الجماعة : « تعقلون » ، و« يعقلون » .

ففعل « تعقلون » تكرر ٢٤ مرة ، وفعل « يعقلون » تكرر ٢٢ مرة . وفعل « عَقل » ، و « نعقل » و« يعقل » جاء كل منها مرة واحدة .

* *

● صيغة « أفلا تعقلون » ؟ :

ومن أبرز ما جاء هنا : صيغة الاستفهام الإنكارى الدالة على التحريض والإلهاب ، تلك الصيغة المنكِرة الملهبة المحرِّضة ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟! وقد ذكرت فى القرآن ثلاث عشرة مرة .

منها : قوله فى خطاب بنى إسرائيل وتقريعهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

فإن عمل الإنسان بضد ما يعلم ، وضد ما يأمر به غيره ، لا يصدر عن إنسان سَوِّى فى عقله ، ناضج فى فكره ، إنما هو ضرب من الجنون !

ومنها : قوله فى محاجة أهل الكتاب فى شأن إبراهيم ، ومحاولة ضمه إليهم بوصفه يهودياً أو نصرانياً ! : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

فكيف يُنسب السابق إلى اللاحق ، والمتقدم إلى المتأخر ؟ إلا عند مَن فقد عقله !!

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) آل عمران : ٦٥

ومنها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وجاء مثلها بعد الحديث عن بنى إسرائيل الذين باعوا المُثُلُ العليا بالعَرَض الأدنى . قال : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

ومثلها : ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فالموازنة بين دار الدنيا والدار الآخرة ، ترجح كفة الآخرة ، فإنها متاع قليل وزائل ، وفى الصحيح : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فلينظر بماذا يرجع » ؟ (٤) .

فكيف يُتصور أن ترجح كفة الدنيا على الآخرة ، إلا عند مَن لا يعقلون ؟!!

ومنها : قوله تعالى لرسوله : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

فقد أمره الله أن يُبيِّن لهم أنه مبعوث بهذا القرآن بمشيئة الله لا بمشيئته هو ، فقد لبث فيهم أربعين سنة من قبل ، ما ادَّعى فيها أنه تكلم عن الله ، ولا أن وحياً ينزل عليه ، فكيف يُعقل أن يكذب الصدوق بعد أربعين سنة ؟ وأن تتعثر سيرة المستقيم فجأة ، فينحرف ويفجر ، بلا سبب ولا مبرر ، وهو بين أظهرهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وجلوته وخلوته !

ومنها : قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

فهو يمن على العرب بالقرآن الذى نزل بلسانهم ، وفيه ذكرهم وشرفهم -

---

(١) الأنعام : ٣٢ (٢) الأعراف : ١٦٩ (٣) يوسف : ١٠٩

(٤) رواه مسلم . (٥) يونس : ١٦ (٦) الأنبياء : ١٠

أو فيه تذكيرهم بربهم ورسالتهم ومصيرهم - أفلا يعقلون ويدركون قيمة هذه النعمة العظمى ؟

ومنها قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وفى الآية لفت إلى عمل الله تعالى فى الكون ، وأبرزه الإحياء والإماتة ، والمخالفة بين اللّيل والنهار ، فهذه من آيات الله الدالة على عموم قدرته ، وشمول مشيئته ، وبالغ حكمته ، لمن كان لديه عقل يعى ، ويتدبر ، أفلا تعقلون بعد ذلك أيها المكابرون والجاحدون ؟!

ومنها : قوله تعالى بعد حديث عن قوم لوط ، وكيف دمّر الله عليهم قريتهم ، وجعل عاليها سافلها ، ثم قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وجاءت هذه الصيغة : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ مرة على لسان هود ، وأخرى على لسان إبراهيم عليهما السلام .

فهود يقول : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ أَجْرِىَ إلا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) . يعنى أن الذى لا يطلب على دعوته أجراً ، ولا يبغى جزاءً لا يكون متهماً لدى مَن يعقلون .

وإبراهيم يقول لقومه - حين سألوه عمن حطم أصنامهم - ساخراً منهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُواْ إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) المؤمنون : ٨٠

(٢) الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) هود : ٥١

(٤) الأنبياء : ٦٣ - ٦٧

ومَن عبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره من الأحجار القابلة للكسر حتى تكون جذاذاً ، والتى لو سئلت لا تنطق ولا تجيب ، فليس أهلاً أن يكون فى زمرة مَن يعقلون .

وقريب من هذه الصيغة قوله تعالى بعد حديث عن الشيطان والتحذير منه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وجاءت الصيغة الإنكارية بفعل الغائب لا فعل المخاطَب فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

* *

● كلمة « تعقلون » فى القرآن :

وتكررت هذه الكلمة ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ مرات فى القرآن مرتبطة بـ « الآيات » التى بيَّنها الله تعالى ووجوب تعقلها ، سواء أكانت آيات منزَّلة مسطورة أم آيات مخلوقة منظورة . ويبدو من السياق فى معظمها أن المقصود بها الآيات المنزَّلة من الله تعالى ، كما فى قوله سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) ، وربما كان المقصود منها هنا الآيات الكونية ؛ لأنها جاءت بعد قوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٧) .

---

(١) يس : ٦٢ (٢) يس : ٦٨ (٣) البقرة : ٢٤٢

(٤) آل عمران : ١١٨ (٥) النور : ٦١ (٦) الحديد : ١٧

(٧) الحديد : ١٧

ومثل ذلك قوله تعالى فى الوصايا العشر من سورة الأنعام : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فقد أنزل الله القرآن بلسانهم ليعقلوه بأفئدتهم ، لا لمجرد أن يسمعوه بآذانهم ، دون أن يفكروا فيه ويتدبَّروه .

* *

● كلمة « يعقلون » مثبتة ومنفية :

وجاءت هذه المادة بصيغة فعل المضارع للجمع الغائب « يعقلون » اثنتين وعشرين مرة ، المنفية منها « لا يعقلون » ذمٌّ للذين لا يستخدمون عقولهم التى وهبهم الله تعالى ، بل يعطلونها جموداً أو تقليداً أو جحوداً .

اقرأ قوله تعالى فى الرد على المقلِّدين لآبائهم فى شركهم : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

وقوله فى تصوير غباء هؤلاء : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) . فهم أشبه بالقطيع من الأنعام التى ينعق فيها راعيها ، فلا تسمع منه إلا صوتاً ، ولا تعى حقيقة ما يقول ، فقد عطَّلوا أدوات المعرفة عندهم ، فلا تسمع آذانهم الحق ، ولا تنطق ألسنتهم به ، ولا تراه أعينهم . فهم إذن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقلون !

وقال تعالى فى وصف الصادِّين عن الحق من أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٥١ — (٢) يوسف : ٢ — (٣) الزخرف : ٣

(٤) البقرة : ١٧٠ — (٥) البقرة : ١٧١ — (٦) المائدة : ٥٨

لأن الذى يسخر من نداء الصلاة ، الداعى إلى الوقوف بين يدى الله ، ويتخذها هزواً ولعباً ، لا يمكن أن يكون عاقلاً .

وقال تعالى فى بيان أباطيل المشركين وما فعلوه فى تحريم ما أحلَّ الله من الأنعام : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى وصف المشركين الذين انحط بهم الشرك عن درجة الإنسانية لما ألغى من عقولهم ومداركهم : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه لرسوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فهم يستمعون إليه بآذانهم وعقولهم غائبة ، فهم فى حقيقة أمرهم صم .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) . فكل الأنفس قابلة للإيمان والاهتداء ، إلا أنفس الذين ألغوْا عقولهم ، فقد جعل الله عليهم الرجس ، أى النجاسة والقذر ، وهو رجس معنوى ، وعقوبة قدرية ، جزاءً لتعطيل العقول .

وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قُلِ الْحَمْدُ للهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) . ومن إنصاف القرآن أنه حكم على الأكثر لا على الكل ، ليدل على أنه قد توجد قلّة عندها شىء من العقل ، ولكنها مغمورة وضائعة فى الأكثرية الغبية ، ولهذا قيل : للأكثر حكم الكل .

---

(١) المائدة : ١٠٣ (٢) الأنفال : ٢٢ (٣) يونس : ٤٢

(٤) يونس : ١٠٠ (٥) العنكبوت : ٦٣

وقال تبارك وتعالى يخاطب رسوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وما ذلك إلا لأنهم لم يتأدبوا بما ينبغى فى مخاطبة صفوة الرُسُل ، وسيد الخلق ، ولم يصبروا قليلاً حتى يخرج إليهم .

وقال سبحانه فى وصف اليهود : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، إذ العقل الواعى يقتضى من أهله أن تجتمع قلوبهم على هدف واحد ، ومنهج واحد ؛ لا أن تجتمع أجسامهم وقلوبهم متفرقة .

وجاءت كلمة « يعقلون » مثبتة ، ولكنها منفية معنى ؛ لأنها جاءت بعد صيغة الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

* *

● الآيات الكونية مجال لعمل العقل :

وأما المثبت من هذه الصيغة « يعقلون » فجاء فى مقام التأمل لآيات الله الكونية ، المبثوثة فى عوالم الأفلاك والجماد والنبات والحيوان والإنسان .

نقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الحجرات : ٤
(٢) الحشر : ١٤
(٣) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤
(٤) البقرة : ١٦٤

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

وننتقل من الأرض ونباتها وحيوانها إلى السماء بشمسها وقمرها ونجومها ، فنقرأ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

وننتقل من الحاضر بما فيه ، إلى الماضي وإلى التاريخ . .

ونقرأ تعقيباً على قصة قوم لوط : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) ، فالعقل مطلوب هنا للاعتبار بالتاريخ وأيام الله فيه .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(١) الروم : ٢٤ (٢) الجاثية : ٥ (٣) الرعد : ٤
(٤) النحل : ٦٦ ، ٦٧ (٥) النحل : ١٢ (٦) العنكبوت : ٣٥

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

فليس المهم أن تسير فى الأرض ، وأن تجوبها من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، وأن تطلع على آثار الأُمم فيها ، إنما المهم أن يكون لك قلب يعقل ويبصر ، وأُذن تسمع وتعى .

وفى مقام آخر نقرأ قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وبهذا غطّى « العقل » كل الجوانب : الكون علويه وسفليه ، الإنسان بحاضره وماضيه ، آيات الله الكونية والتنزيلية ، فمن لم يستخدم عقله فى هذه النواحى كلها ، كان خليقاً ألا يهتدى إلى الحق ، وأن يسير فى ركاب أهل الضلال والإضلال ، وأن يقول مع أهل الشقاء فى النار يوم القيامة ما حكاه الله عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) الروم : ٢٨ (٣) الملك : ١٠ ، ١١

إشادة القرآن بأُولى الألباب والنُهَىٰ

ومن أروع ما هدى إليه القرآن فى جانب الفكر والعلم : تنويهه بـ « أُولى الألباب » و« أُولى النُهَى » أى أصحاب العقول ، وإشادته بهم فى مواضع شتَّى من سوره المكية والمدنية على سواء .

ولقد ذكر بعض الكاتبين أن القرآن الكريم اهتم بفعل « عقل » وما يُشتق منه مثل قوله : « يعقلون » أو « تعقلون » ، ولكنه لم يذكر « العقل » باعتباره مَلَكة أو جوهراً فى الإنسان تصدر عنه العمليات العقلية المختلفة من التفكر والتذكر والاعتبار ونحوها .

وهذا صحيح إذا نظرنا إلى لفظة « العقل » ، ولكن إذا نظرنا إلى المعنى المقصود بها ، رأينا ذلك فى الكتاب العزيز منصوصاً عليه بوضوح فى هذه الكلمة « الألباب » أى العقول ، وهى : جمع « لُبّ » ، وهو : ما يقابل القشر ، فكأن القرآن يشير هنا إلى أن الإنسان قسمان : قشر ولُبّ ، فالجسم هو : القشر ، والعقل هو : اللُّبّ .

وقد وردت كلمة : ﴿ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴾ أو ﴿ أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ فى القرآن ست عشرة مرة . تسعة منها فى القرآن المكى ، وسبعة فى القرآن المدنى (1) .

من الثمانى المدنية أربع مرات جاءت فى صيغة النداء .

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (2) .

وما ذلك إلَّا لأن القصاص فى ظاهره قتل نفس ، فكيف يكون حياة ؟ هذا ما يعقله أُولو الألباب : أنَّ نفساً تُقتل ليحيا بها مجتمع ، لما فى هذه العقوبة من

---

(1) هذا بناء على ما رجحناه من أن سورة الرعد مكية كما يدل على ذلك سياقها وموضوعها وموضعها بين سور « آلر » وكلها مكية .

(2) البقرة : 179

ردع للقتلة ، وشفاء لصدور أهل المقتول . يقول الإمام البقاعى : « الألباب : العقول التى تنفع أصحابها بخلوصها مما هو كالقشر . قال الحرالىّ : وهو باطن العقل الذى شأنه أن يلحظ أمر الله فى المشهودات ، كما شأن ظاهر العقل أن يلحظ الحقائق من المخلوقات ، فهم الناظرون إلى ربهم فى آياته » (١) .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فالزاد المعروف إنما يكون من الطعام والشراب ، فكيف الزاد هو التقوى ، بل هى خير الزاد ؟ هذا ما يعقله أولو الألباب الذين ناداهم هنا ليتقوه .

قال الإمام البقاعى : « ﴿ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ : أى العقول الصافية ، والأفهام النيِّرة الخالصة ، التى تجردت عن جميع الخلائق الجسمانية ، فأبصرت جلالة التقوى ، فلزمتها » (٣) .

الثالثة : قوله : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) . إن كثيراً من الناس يهتمون بالكم والعدد ، ولا يهتمون بالكيف والنوع ، ولكن أولى الألباب هم الذين يعنيهم الكيف ، ويهمهم الطيب وإن كان قليلاً . لهذا أمرهم الله هنا بالتقوى رجاء الفلاح فى الدنيا والآخرة .

الرابعة : قوله : ﴿ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير « نظم الدرر » : ٣/ ٣٢

(٢) البقرة : ١٩٧

(٣) المصدر السابق : ٣/ ١٤٦

(٤) المائدة : ١٠٠

(٥) الطلاق : ١٠ ، ١١

والخطاب لأُولى الألباب هنا ليتبينوا قدر الذكر الذى أنزل الله إليهم ، مجسماً فى رسول يمثل الإيمان الحى بسُنَّته وسيرته ، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور .

والآيات الأربعة الأُخرى نجد منها آية فى سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [(١)] . وهى ترشد إلى أن أحق مَن ينتفع بالحكمة هم أُولو الألباب ، الذين يضعون الأشياء فى مواضعها ، ويعطون كل ذى حق حقه .

وفى سورة آل عمران ذكر أُولو الألباب مرتين :

مرة فى أولها فى مقام الحديث عن الآيات المتشابهات ، فهم لا يهلكون عندها كما يفعل الذين فى قلوبهم زيغ ، ممن يتبعون ما تشابه من القرآن ، بل هم يردون المتشابهات إلى المحكمات التى هنَّ أُم الكتاب ومعظمه ، وهذا من ثمار رسوخهم فى العلم وتمكنهم منه ، فهم كما وصفهم القرآن : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [(٢)] .

ومرة أُخرى فى أواخر السورة فى مقام الحديث عن آيات الله فى هذا الكون المنظور ، وما فيها من مجال رحب للتأمل والتفكر ، والانتقال منها إلى أن هذا العالَم لم يُخلق باطلاً ولا عبثاً ، بل خُلق لحكمة عرفها أُولو الألباب : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [(٣)] .

وأما الآيات المكية فإليك الحديث عنها .

فى ختام سورة يوسف ورد ذكر أُولى الألباب فى مقام استفادتهم من عبر التاريخ ، ومن قصص القرآن ، وما اشتمل عليه من بيان سنن الله فى الناس

---

(١) البقرة : ٢٦٩ (٢) آل عمران : ٧ (٣) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١

والحياة . فالجُهَّال والغافلون والأغبياء تمر عليهم هذه الأحداث ، فلا تنبه فيهم غافلاً ، ولا تحرِّك منهم ساكناً ، كما قال تعالى فى أواخر هذه السورة : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١) ، أما أولو الألباب فهم وحدهم الذين يحسنون قراءة القصص القرآنى . وقراءة التاريخ . وبالتالى قراءة الواقع : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ . مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الرعد ورد ذكر أُولى الألباب فى مقام معرفة ما أنزل الله تعالى إلى رسوله ، وأنه الحق من ربه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٣) . وقد وصفت الآيات الكريمة أُولى الألباب بجملة من الفضائل الخُلُقيَة الرفيعة ، فربطت بين الكمال العقلى والكمال الخُلُقى ، وهو ما نلحظه فى نفى الجنون عن النبى ﷺ ، الذى اتهمه به المشركون ، بقوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾(٤) ، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥) ، وفى ختام أوصاف أُولى الألباب فى هذا السياق قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ . وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ (٦) .

وفى ختام أوصاف أُولى الألباب وأدعيتهم فى خواتيم سورة آل عمران ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ . . . إلى أن قال : ﴿ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللهِ ، وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٧) .

---

(١) يوسف : ١٠٥ (٢) يوسف : ١١١ (٣) الرعد : ١٩
(٤) القلم : ٢ (٥) القلم : ٤ (٦) الرعد : ٢٢ ، ٢٣
(٧) آل عمران : ١٩٥

فهذه الآيات كلها تدلنا على أن أهل الجنَّة هم أُولو الألباب ، أى أصحاب العقول ، وليس أهل الجنَّة ولا أكثرهم (هم البُلْه) كما يُذكر ذلك فى حديث لا يصح ولا يثبت . فهذا دين العقل والعقلاء .

وفى ختام سورة إبراهيم حديث عن القرآن وما تضمنه من بلاغ مبين للناس ، ومن إنذار لهم بهذا القرآن ، ومن إعلام لهم بوحدانيته تعالى فى إلهيته ، وهو ما بُعث به الرُسُل ، ونزلت به الكتب ، وقامت له القيامة ، وانتصبت سوق الجنَّة والنار ، وليذكر فى النهاية - بهذا القرآن العظيم - أُولو الألباب ، الذين هم أولى الناس بتذكر ما فيه واستحضاره واسترجاعه ، فيقول تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

ومثل هذا الحديث عن الكتاب العزيز جاء فى سورة « ص » فى قوله سبحانه : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فإذا كانت الألباب تسيح متفكرة فى هذا العالَم - عالَم الخلق - ما تبصر منه وما لا تبصر ، فإنها جديرة بأن تسيح متدبرة متذكرة فى هذا القرآن الذى يجسد عالم الأمر ، فكلاهما مشتمل على آيات الله تعالى ، تلك آيات من فعله ، وهذه آيات من قوله . تلك تُعرف بالتعقل والتفكر ، وهذه تُعرف بالتدبر والتذكر ، ولذا جاء فى موضع آخر قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (٣) ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٤) .

وجاء ذكر أُولى الألباب مرة أُخرى فى هذه السورة « ص » فى مقام

---

(١) ابراهيم : ٥٢ — (٢) سورة ص : ٢٩

(٣) النساء : ٨٢ — (٤) محمد : ٢٤

الحديث عن عبد الله أيوب وصبره على ما ابتلاه الله به : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِّعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١) . وكيف كافأه الله تعالى على صبره ورضاه بقضاء ربه ، وعوّضه بإعادة أهله – ومثلهم معهم – إليه ، فقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

وفى سورة الزمر جاء ذكر أُولى الألباب مرات ثلاثاً :

مرة فى مقام الحديث عن قُوَّام الليل الذين يصفون أقدامهم لربهم خائفين راجين ، والناس مستغرقون فى نومهم أو فى لياليهم الحمر ، عالمين بأنهم الغانمون الرابحون ، وأن غيرهم هم المغبونون الخاسرون ، وهذا هو العقل حقاً ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) .

والمرة الثانية فى مقام الحديث عن عباد الله من أهل التوحيد الذين اجتنبوا الطاغوت والأوثان أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله وحده ، فبشَّرهم الله تعالى بما هم أهل له من كرامته ومثوبته ، ونسبهم إلى عبوديته تشريفاً لهم وتكريماً ، ووصفهم بأنهم : ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٤) ، فهم لا يقفون عند « الحسن » ، بل يتطلعون أبداً إلى « الأحسن » كما قال تعالى فى أكثر من سورة : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٥) ، وكما قال : ﴿ وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (٦) . وفى هذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُواْ إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة ص : ٤٤ (٢) سورة ص : ٤٣ (٣) الزمر : ٩
(٤) الزمر : ١٨ (٥) هود : ٧ (٦) الزمر : ٥٥
(٧) الزمر : ١٧ ، ١٨

فوصفهم بثلاث خصال : التوحيد أو اجتناب الطاغوت ، والإنابة إلى الله ، واتباع أحسن القول .

وكافأهم بثلاث مثوبات : البُشْرى من الله ، ووصفهم بالهداية ، بل حصر الهداية فيهم ، كما تدل عليه الصيغة ، وكذلك قصر صفة « أولو الألباب » عليهم .

والمرة الثالثة والأخيرة فى السورة ، جاءت فى مقام الحديث عن الماء الذى أنزله الله من السماء وسلكه ينابيع فى الأرض ، وكيف أخرج الله به زرعاً مختلفاً ألوانه ، انتهى به الأمر إلى أن صار حطاماً ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وآخر ما جاء فى الآيات المكية كان فى مقام الحديث عن التوراة ، الكتاب الذى أنزله الله على كليمه موسى نوراً وهدىً للناس فى زمنه ، وكيف جعله الله هدىً وذكرى للعقلاء فى ذلك العصر ، وبهذا ربط القرآن بين كتب الله تعالى جميعاً ورُسُله . وهذا هو مقتضى الإيمان كما جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فهذه هى المرات الست عشرة ، التى جاء فيها ذكر أُولى الألباب فى القرآن ، وهى تدل بغاية الوضوح على عقلانية هذا القرآن ، وعقلانية رسالته .

وهذا بالإضافة إلى ما جاء به القرآن عن أصحاب العقول تحت اسم « أُولى النُهَىٰ » ، والنُهَىٰ : جمع « نُهْيَة » وهى اسم للعقل ، سمى بذلك ؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق بالإنسان أن يفعله ، كما سمى « عقلاً » لأنه يعقله ويحجزه عما لا ينبغى .

وقد وردت هذه اللَّفظة فى القرآن مرتين ، كلتاهما فى سورة « طه » .

---

(١) الزمر : ٢١ (٢) غافر : ٥٣ ، ٥٤

الأولى فى مقام حوار موسى مع فرعون ، ثم استطرد إلى الحديث عن الله سبحانه : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِى النُّهَىٰ ﴾ (١) .

فهذا فى مقام الحديث عن آيات الله فى الكون ، وخصوصاً فى عالم النبات والأحياء .

والأخرى فى مقام الحديث عن القرون الخالية ، وما نزل بهم من بأس الله الذى لا يُرَد عن القوم المجرمين ، وكيف يعتبر اللاحقون بما أصاب السابقين من دمار وهلاك . وهذا هو موقف أولى النُّهَى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِى النُّهَىٰ ﴾ (٢) .

وهناك موضع واحد جاء فيه الحديث عن العقل فى القرآن باسم « الحِجْر » والمادة تدل على معنى المنع ، فقيل للعقل : حِجْر ؛ لكون الإنسان فى منع منه مما تدعو إليه نفسه ، كما قال الراغب .

أما هذه المرة ، فقد جاءت فى سورة الفجر ، فى قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (٣) .

* *

• العقل باسم الفؤاد :

كما جاء الحديث عن العقل فى القرآن باسم « الفؤاد » مفرداً ومجموعاً ، باعتباره وسيلة من وسائل العلم الأساسية الثلاث : السمع والبصر والفؤاد .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٤) .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) طه : ٥٣ ، ٥٤ (٢) طه : ١٢٨ (٣) الفجر : ١ – ٥

(٤) الإسراء : ٣٦ (٥) النحل : ٧٨

وقد تكرر ذكر السمع والأبصار والأفئدة فى سور شتّى .

وكثيراً ما يُذكر « القلب » بدل « الفؤاد » فى مواضع عدة من كتاب الله . كما فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (٢) .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٣) .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ (٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (٧) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

* * *

(١) البقرة : ٧ (٢) الأنعام : ٤٦ (٣) الأعراف : ١٧٩

(٤) النحل : ١٠٨ (٥) الإسراء : ٤٦ (٦) الكهف : ٥٧

(٧) الحج : ٤٦ (٨) الجاثية : ٢٣

الدعوة إلى التفكر

ومن الكلمات القرآنية التى لها دلالتها هنا : كلمة « فكر » وما اشتق منها .

فالقرآن - فى عشرات الآيات من سوره المكية والمدنية - دعا إلى التفكر - دعوة قوية ، أى إلى إعمال الفكر ، لا إلى تعطيله وتجميده .

قال الراغب فى « المفردات » : الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، والتفكر : جولان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب ، ولهذا روى : « تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى الله » (١) إذ كان الله منزّهاً أن يوصف بصورة .

ونقل الراغب عن بعض الأدباء محاولة لبيان الأصل الحسِّى لاستعمال العرب كلمة « الفكر » فقال : « إنها مقلوب عن كلمة « الفرك » ، غير أن الفرك يُستعمل فى المحسَّات ، على حين يُستعمل الفكر فى المعانى والمعقولات ، وهو فرك الأُمور وبحثها ، طلباً للوصول إلى حقيقتها » ! (٢) .

● الكون كله مجال للتفكر :

دعا القرآن إلى التفكر بأساليب شتَّى ، وفى كل المجالات ، فيما عدا التفكر فى الله تعالى ، إذ التفكر فى ذاته سبحانه تبديد لطاقة العقل فيما

---

(١) رواه أبو الشيخ والطبرانى فى الأوسط وابن عدى والبيهقى عن ابن عمر بهذا اللّفظ ، كما رواه أبو نعيم فى « الحلية » عن ابن عباس بلفظ : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله » ، وحسَّنها الألبانى فى سلسلته « الصحيحة » بمجموع الطرق برقم (١٧٨٨) وفى « صحيح الجامع الصغير » (٢٩٧٥) ، (٢٩٧٦) ومعنى الحديث صحيح بالإجماع .

(٢) انظر : مادة « فكر » فى مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٤٣

لا يمكنه إدراكه ، فحسبه أن يفكر فى مخلوقاته فى السموات والأرض وفى نفسه ، يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم ، مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمّىً ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُوْلِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

فتفكر هؤلاء من أُولى الألباب فى خلق السموات والأرض وما فيهما من روعة النظام ، ودقة الإحكام ، هداهم إلى أن الله ما خلقهما إلا لحكمة ، لم يخلقهما لعباً ولا عبثاً ولا باطلاً ، ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ (٣) .

بل ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

وكذلك ينبغى للعقل أن يتفكر فى آيات الله تعالى فى أرضه وسمائه ، وفى شمسه وبحره ونجومه ، وفيما تشتمل عليه الأرض من حيوان ونبات ، وجبال وأنهار وبحار .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الروم : ٨ (٢) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ (٣) آل عمران : ١٩١

(٤) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ (٥) الرعد : ٣

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

فالكون كله ، بما فيه ومَن فيه : مسرح للفكر ، يصول فيه ويجول .

* *

● « التفكر » فى الجوانب المعنوية :

ولا يقف التفكر عند الجوانب المادية ، بل يتجاوزها إلى الجوانب المعنوية ، كما فى العلاقة بين المرء وزوجه ، التى اعتبرها القرآن آية من آيات الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

فمن آيات الله تعالى أن خلق للإنسان من جنسه زوجاً يسكن إليها ، كما تسكن إليه ، كما ربط بينهما بوشائج المودَّة والرحمة ، حتى يصبح أحدهما وكأنه جزء من صاحبه : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٥) .

ومن هذه الجوانب : صنع الله فى الأنفس عند النوم ، وعند الموت : ﴿ اللَّهُ

---

(١) النحل : ١٠ ، ١١ (٢) النحل : ٦٨ ، ٦٩ (٣) الجاثية : ١٣
(٤) الروم : ٢١ (٥) البقرة : ١٨٧

يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

فالنوم هو الموتة الصغرى ، والموت هو النومة الكبرى .

ومن ذلك : التفكر فيما يضرب الله من أمثال ، يُقرِّب بها المعانى ، ويجعل المعقول فى صورة المحسوس ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

ومن ذلك المثل الذى ضربه تعالى فى سورة يونس بقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

ومن ذلك : المثل الذي ضربه الله لمن لم يعمل بعلمه ، ومثلّه بالكلب ، يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ، ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

* *

• « التفكر » فى الآيات التنزيلية :

وكما أن الآيات الكونية مجال التفكر ، فإن الآيات التنزيلية هى مجال آخر للتفكر ، تلك آيات مشهودة منظورة ، وهذه آيات مسموعة ومقروءة .

---

(١) الزمر : ٤٢
(٢) الحشر : ٢١
(٣) يونس : ٢٤
(٤) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

يقول تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى بعد ضرب المثل للمنفق المرائى بمن احترقت جنَّته أحوج ما كان إليها هو وذُرِّيته الضعفاء : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

قال البقاعى فى تفسيره « نظم الدرر » : « ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ : أى ليكون حالكم حال مَن يُرجى أن يحمل نفسه على الفكر ، ومَن يكون كذلك ينتفع بفكره . قال الحرالىّ : فتبنون الأمور على تثبيت ، لا خير فى عبادة إلا بتفكر ، كما أن البانى لا بد أن يفكر فى بنائه . كما قال الحكيم : أول الفكرة آخر العمل ، وأول العمل آخر الفكرة . كذلك من حق أعمال الدين ألا تقع إلا بفكرة فى إصلاح أوائلها السابقة ، وأواخرها اللاحقة . فكانوا فى ذلك صنفين ، بما يُشعر به ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ مطابقين للمثل ، متفكر مضاعف حرثه وجنَّته ، وعامل بغير فكرة ، تستهويه أهواء نفسه ، فتلحقه الآفة فى عمله ، فى حرثه وجنَّته من سابقه أو لاحقه » (٣) .

ومن هنا نرى كثرة الآيات أو الدلائل التى نصبها الله فى الكون لهدى عباده إليه ، وتدلهم على الحق الذى أنزل الله به كتبه ، وبعث به رُسُله .

ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

ويقول عزَّ وجَلَّ : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

وهذا تحريض على التفكر وخصوصاً فى أمر الوحى وإثبات النبوة ، والتحقق من أمر محمد ﷺ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٢١٩ (٢) البقرة : ٢٦٦ (٣) نظم الدرر : ٤/٨٨ ، ٨٩
(٤) النحل : ٤٤ (٥) الأنعام : ٥٠ (٦) الأعراف : ١٨٤

وهناك مجال آخر للتفكر ، وهو الأمثال التى يضربها الله للناس ، ووراءها من العبر ما وراءها . قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وسبب تكثير الأدلة كما يقول الإمام البقاعى فى تفسيره : « أن عقول الناس متفاوتة ، فجعل سبحانه وتعالى العالَم - وهو الممكنات الموجودة - وهى جملة ما سواه ، الدالة على وجوده وفعله بالاختيار على قسمين : قسم من شأنه أن يُدْرَك بالحواس الظاهرة ، ويسمى فى عُرف أهل الشرع : الشهادة والخلق والمُلك ، وقسم لا يُدْرَك بالحواس الظاهرة ويسمى : الغيب والأمر والملكوت ، والأول : يدركه عامة الناس ، والثانى : يدركه أُولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس ، فالله سبحانه وتعالى بكمال عنايته ورأفته ورحمته جَعَل العالَم بقسميه محتوياً على جمل وتفاصيل من وجوه متعددة ، وطرق متكثرة ، تعجز القوى البَشرية عن ضبطها ، يستدل بها على وحدانيته ، بعضها أوضح من بعض ، ليشترك الكل فى المعرفة ، فيحصل لكل بقدر ما هيئ له ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون ممن طُبِع على قلبه ، فذلك - والعياذ بالله سبحانه وتعالى - هو الشقى » (٢) .

وينقل العلامة البقاعى عن الإمام أبى الحسن الحرالىّ فى كتابه « المفتاح » قوله : « اعلم أن الآيات والأحوال تضاف وتتسق لمن اتصف بما به أدرك معناها ، ويؤنَّب عليها مَن تقاصر عنها ، وينفى منالها عمن لمن يصل إليها ، وهى أطوار أظهرها آيات الاعتبار البادية لأُولى الأبصار ، لأن الخلق كله إنما هو علَم للاعتبار منه - لا أنه موجود للاقتناع به : ﴿ وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) ، اتخذوا ما خلق للعبرة به إلى ربه كسباً لأنفسهم حتى صار عندهم وعند أتباعهم آيتهم ، لا آية خالقه : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الحشر : ٢١ (٢) نظم الدرر : ٢/ ٣٠٠ ، ٣٠١ (٣) يونس : ٧ ، ٨
(٤) الشعراء : ١٢٨ (٥) الصافات : ٩٦

ثم يلي آيات الاعتبار ما ينال إدراك آيته العقل الأدنى ببداهة نظره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .. جمع الآيات لتعدد وجوهها في مقصد البيان .

ثم يلي ما يدرك ببداهة العقل : ما يحتاج إلى فكر يثيره العقل الأدنى ، لشغل الحواس بمنفعته عن التفكر في وجه آيته : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، أفرد الآية لاستناد كثرته إلى وحدة الماء ابتداءً ، ووحدة الانتفاع انتهاءً .

ثم يلي ما يدرك بفكر العقل الأدنى : ما يقبل بالإيمان ويكون آية أمر قائم على خلق ، وهو ما يدرك سمعاً لأن الخلق مرئي والأمر مسموع : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٣) .. هذه آية حياة القلوب بنور العلم والحكمة الذي أخذ سمعاً عند تقرر الإيمان ، وعند هذا الحد يتناهى العقل إلى فطرة الأشد وتعلو بداهته ، وتترقى فطره إلى نظر ما يكون آية في نفس الناظر لأن محار غيب الكون يرد إلى وجدان نقص الناظر ، وكما أن الماء آية حياة القلوب صار الشرابان : اللَّبن والخمر ، آيتين على أحوال تخص القلوب بما يغذوها من الله غذاءَ اللَّبن وينشيها نشوةَ السكر ، منبعثاً من بين فرث ودم نزولَ الخلق المقام عن الأمر القائم عليه : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ ... الآيتين إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

وهذا هو العقل الأعلى ، وأفرد الآية لانفراد موردها في وجد القلب ، وكما للعقل الأدنى فكرة تنبئ عن بداهته ، فكذلك للعقل الأعلى فكرة تنبئ عن

---

(١) النحل : ١٢
(٢) النحل : ١٠ ، ١١
(٣) النحل : ٦٤ ، ٦٥
(٤) النحل : ٦٦ ، ٦٧

عليّ فطرته : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ، وهذا العقل الأعلى هو اللُّب الذى عنه يكون التذكر بالأدنى من الخلق للأعلى من الأمر ، ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفى مقابلة كل من هذه الأوصاف أضداد يرد البيان فيها بحسب مقابلتها ، وكذلك حكم وصف المسلمين فيما يظهر أن : « لا أنجى للعبد من إسلامه نفسه لربه » ، ووصف المحسنين فيما يظهر قيام ظاهر العبد بربه ، ووصف الموقنين فيما وجد يقينه العبد من نفسه أو عاين ابتداءه بظاهر حسه : ﴿ الٓمٓ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، من استغنى بما عنده من وجد لم يتفرغ لقبول غيب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ (٤) ، ﴿ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَأَحْسَنُواْ ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٦) ، ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ وَأَحْسَنُواْ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧) ، « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » (٨) ، ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٩) ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١٠) ، وبالجملة هذه الأوصاف أيضاً أضداد ، يرد بيان القرآن فيها بحسب تقابلها ، ويجرى معها إفهامه ، وما أوصله خفاء المسمع والمرأى إلى القلب هو فقهه ، ومَن فقد ذلك وصف

---

(١) النحل : ٦٨ ، ٦٩ (٢) النحل : ١٣ (٣) البقرة : ١ ، ٢

(٤) الحديد : ٢٨ (٥) المائدة : ٩٣ (٦) آل عمران : ٨٥

(٧) المائدة : ٩٣

(٨) جزء من حديث رواه البخارى (٨/ ١٠٥) باب « التواضع » ، عن أبى هريرة ، كما رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها ، وذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (١٧٥٢) ، ورمز له بالصحة .

(٩) الجاثية : ٤ (١٠) الأنعام : ٧٥

سمعه بالصمم وعينه بالعمى ، ونفى الفقه عن قلبه ، ونُسب إلى البهيمية ، ومَن لم تنل فكرته أعلام ما غاب عنه عيانه نفى عنه العلم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ (١) ، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) . ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ﴾ . . . الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٤) ، نفى العلم فيما ظهرت أعلامه والفقه فيما خفى أمره ، ومراد البيان عن أضدادها هذه الأوصاف بحسب تقابلها ، وهذا الباب لمن يستفتحه من أنفع فواتح الفهم فى القرآن » (٥) .

* *

● التفكر المخلص مثنىٰ وفرادىٰ :

ومن أروع الآيات التى حثّت على التفكر قوله تعالى فى سورة سبأ من القرآن المكى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٦) .

يأمر الله خاتم رسله فى هذه الآية : أن يعظ قومه ويذكّرهم ويرغّبهم فى خصلة واحدة ، لا يريد منهم الآن غيرها ، حتى يعرفوا حقيقة نبوته : أصدق هى أم كذب ؟ وحقيقة شخصيته : أمجنون هو يهذى أم رسول هو يهدى ؟

هذه الخصلة الواحدة المطلوبة مكونة من خطوتين : أولى وثانية .

الخطوة الأولى : أن يقوموا لله مَثْنىٰ وفُرَادىٰ ، والقومة تعنى : النهضة والعزيمة .

---

(١) الكهف : ١٠١

(٢) الأعراف : ١٧٩

(٣) المنافقون : ٨

(٤) المنافقون : ٧

(٥) نظم الدرر للبقاعى : ١١/ ٢٠٠ - ٢٠٤

(٦) سبأ : ٤٦

والخطوة الثانية : أن يتفكروا . أى يُعملوا عقولهم ولا يجمدوها .

ومعنى الخطوة الأولى - القومة لله - أن ينهضوا بقوة ، ويتجردوا من أهوائهم وشهوات أنفسهم ، واعتباراتهم النفعية المادية ، ومصالحهم الآنية والشخصية ، ويتوجهوا إلى الله مخلصين فى طلب الحقيقة ، ولم يكن القوم ملحدين ولا جاحدين لوجود الله تعالى ، بل كانوا مُقرِّين بوجوده وخالقيته لهم وللسموات والأرض ، وتدبيره لأمر الكون ، إنما كانت آفتهم فى الشرك الذى أصمَّهم وأعمى أبصارهم . فلا غَرو أن يطلب إليهم القرآن هذه القومة لله متحررين من حب الدنيا ، وحب الذات ، والتقليد الأعمى ، وهذا التجرد أو الإخلاص فى طلب الحقيقة سيضئ لهم السبيل للوصول إليها ، ويكشف الغواشى والأقنعة عن وجهها .

وهذه القومة لله يجب أن تكون بعيدة عن التأثير الجماهيرى والغوغانى ، وتأثير « العقل الجَمعى » كما يسميه علماء النفس ، والتحرر من عواطف المجاملة ومراعاة الخواطر ، ومشاعر الخوف والطمع ، والخجل من مخالفة الآباء ، أو مخالفة الكبراء ، أو الخروج عن الخط العام ، والخشية من الذم أو الإنكار ، وحب المحمدة والثناء . . . إلى آخر هذه العوائق ، بل الأغلال التى تكبل الناس ، وتحول بينهم وبين التفكر الحر المستقل .

ولهذا وعظهم أن يقوموا لله « مثنى وفرادى ، ثم يتكفروا » ، ومعنى هذا أن يفكر كل واحد مع نفسه بمعزل عن تأثير الآخرين ، أو مع صاحب له يتحاوران فى هدوء ، وبدأ بقوله : « مَثْنَى » دلالة على أن الحوار والأخذ والرد الثنائى هنا قد يكون أجدى ، لأن المرء يسمع من صديقه وجليسه ، ولا يأبى أن يسلم له إذا أقنعه ، ولكنه قد يرفض الهزيمة إذا كانت أمام الجمهور .

فهذا التفكير الهادئ المستقل المخلص فى طلب الحقيقة : جدير أن يهدى صاحبه إليها ، وفق سُنَّة الله ، أن من طلب شيئاً بجد وإخلاص من طريقه الصحيح لا بد أن يجده ، فإن مَن جَدَّ وجد ، ومَن سار على الدرب وصل .

أجل . . سينتهى به هذا التفكر لا محالة إلى أن صاحب هذه الدعوة الجديدة ليس بمجنون كما يزعمون ، وما به أى جِنَّة ، كيف وهو كما قال الله تعالى :

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) .

إن صاحب الخُلُق العظيم يستحيل أن يكون مجنوناً ، لأن المجنون لا ينضبط له سلوك ، ولا يتزن له قول ولا فعل . أما صاحب الخُلُق العظيم ، فكل كلمة عنده بميزان ، وكل فعل عنده بمقدار ، لا يضع الندى فى موضع السيف ، ولا السيف فى موضع الندى ، لا يمزح حيث ينبغى الجد ، ولا يسالم حيث تنبغى الحرب ، ولا يحارب حيث يجب السلام ، يعطى لكل ذى حق حقه ، فهو لا يضيع حق الرب ، ولا يهمل حق الخلق ، ولا ينسى حق النفس ، يسأل الله صلاح دينه الذى هو عصمة أمره ، وصلاح دنياه التى فيها معاشه ، وصلاح آخرته التى إليها معاده ، وبهذا يتمم مكارم الأخلاق التى بُعِث ليتممها . وهذا لا يتم إلا بأعلى أنواع العقل .

وقد ألَّف الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - كتاباً سمَّاه « التفكير فريضة إسلامية » وهو تعبير صحيح شرعاً ، فإن الله تعالى كما أمرنا بالتعبد وإقامة الشعائر من الصلاة والزكاة ، أمرنا بالتفكر والتفكير فى الآيات الكثيرة التى سقناها ، سواء جاءت باسم التفكر أو النظر أو الرؤية ، ولهذا قال مَن قال من السَّلَف : تفكر ليلة خير من إحيائها ، وقال غيره : تفكر ساعة خير من عبادة سنة !

قال العلَّامة البقاعى فى تفسير هذه الآية : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ : « . . . . أى فاسمعوا ولا تنفروا خوفاً من أن أملكم ﴿ أَن تَقُومُوا ﴾ أى توجهوا نفوسكم إلى تعرف الحق ، وعبَّر بالقيام إشارة إلى الاجتهاد ﴿ لِلَّهِ ﴾ أى الذى لا أعظم منه ، على وجه الإخلاص ، واستحضار ما له من العظمة ، بما له لديكم من الإحسان ، لا لإرادة المغالبة ، ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ أى اثنين اثنين ﴿ وَفُرَادَىٰ ﴾

(١) القلم : ٢ - ٤

أى واحداً واحداً . مَن وثق بنفسه فى رصانة عقله ، وأصالة رأيه ، قام وحده ، ليكون أصفى لسره ، وأعون على خلوص فكره ، ومَن خاف عليها ضم إليه آخر ، ليذكِّره إن نسى ، ويقوِّمه إن زاغ .

قال : ولما كان هذا القسم أكثر وجوداً فى الناس قدّمه .

« ولم يذكر غيرهما من الأقسام إشارة إلى أنهم إذا كانوا على هاتين الحالتين كان أجدر لهم بأن يعرفوا الحق ، من غير شائبة حظ ، مما يكون فى الجمع الكثير من الجدال واللَّغط المانع من تهذيب الرأى ، وتثقيف الفكر ، وتنقية المعانى .

« ولِما كان ما طلب منهم هذا لأجله عظيماً ، جديراً بأن يُهتم له هذا الاهتمام ، أشار إليه بأداة التراخى ، فقال : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ أى تجتهدوا بعد التأنى وطول التروى فى الفكر . . . » (١) .

* *

● سعة مجال الفكر فى نظر القرآن :

يقول الإمام الغزالى فى بيان مجال الفكر : « الموجودات المخلوقة منقسمة إلى : ما لا يُعرف أصلها ، فلا يمكننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التى لا نعلمها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وإلى ما يُعرف أصلها وجملتها ، ولا يُعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها . وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر . أما الذى لا ندركه بالبصر . فكالملائكة والجن والشياطين

---

(١) تفسير « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » : ١٥/٥٢٩ ، ٥٣٠ - طبعة حيدر آباد . الهند .

(٢) النحل : ٨ (٣) يس : ٣٦ (٤) الواقعة : ٦١

والعرش والكرسى وغير ذلك . ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض .

فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام ، وهى المدركَات بحس البصر . وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما ، فالسموات مشاهَدة بكواكبها وشمسها وقمرها ، وحركتها ، ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض مشاهَدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرَك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها . فهذه هى الأجناس المشاهَدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيئاته ، ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر . فلا تتحرك ذَرَّة فى السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلَّا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهى الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ (٢) من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات .

فمن آياته : الإنسان المخلوق من النطفة ، وأقرب شىء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على

---

(١) آل عمران : ١٩٠

(٢) الروم : ٢٠ ، ٢٥ ، وفصلت : ٣٧ ، ٣٩ ، والشورى : ٢٩ ، ٣٢ ، وغيرها .

عُشر عُشيره وأنت غافل عنه ، فيا مَن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) ، وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ (٧) ، ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مُضغة ، والمضغة عظاماً ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ (٨) .... الآية .

فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليُسمع لفظه ويُترك التفكر فى معناه ، فانظر الآن إلى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لو تُركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثىٰ وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع » (٩) .... إلى آخر ما ذكره فى كتاب

---

(١) الذاريات : ٢١ (٢) عبس : ١٧ - ٢٢ (٣) الروم : ٢٠
(٤) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٥) المرسلات : ٢٠ - ٢٢ (٦) يس : ٧٧
(٧) الإنسان : ٢ (٨) المؤمنون : ١٢ - ١٤
(٩) « إحياء علوم الدين » مع شرحه « إتحاف السادة المتقين » : ١٣ / ٣٥٠ - ٣٥٣

التفكر ، وغدونا الآن ندركه أكثر وأعمق ، لما ملّكه لنا العلم من وسائل وأسباب .

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه « مفتاح دار السعادة » في وجوه فضل العلم : « ما ثبت عن بعض السّلَف أنه قال : تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة !

وسأل رجلٌ أُمَّ الدرداء بعد موته عن عبادته ، فقالت : كان نهاره أجمعه في بادية التفكر !

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال الفضيل : التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ! فقال : الفكرة مخ العمل !

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة !

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [1] قال : « أمنعهم التفكر فيها » .

وقال بعض العارفين : لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فيها عَيْن .

وقال الحسن : طول الوحدة أتم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة .

وقال وهب : ما طالت فكرة أحد قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل .

وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة .

---

(١) الأعراف : ١٤٦

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً : أين بلغت ؟ قال : الصراط !

وقال بشر بن الحارث : لو فكَّر الناس فى عظمة الله ما عصوه .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب !

وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة وتجلى القلوب .

وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به .

وقال الحسن : إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر ، ويناطقون القلوب ، حتى نطقت بالحكمة .

ومن كلام الشافعى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر [1] .

قال العلامة ابن القيم : « وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح .

وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور ، وظهورها له ، وتميز مراتبها فى الخير والشر ، ومعرفة مفضولها من فاضلها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها ، والتمييز بين ما ينبغى السعى فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه ، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها ، وبين السبب المانع حقيقة ، فيشتغل به دون الأول ، فما قطع العبد عن كماله

---

(١) ذكر هذه الآثار الغزالى فى كتاب « التفكر » من ربع المنجيات من « إحيائه » وخرجها شارحه الزبيدى فى « اتحاف السادة المتقين » : جـ ١٣

وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذى هو مركبها ، بل بحرها الذى لا تنفك سابحة فيه ، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة ، وكذلك إذا فكر فى عواقب الأُمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها ، وعلم مراتبها ، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذّته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك اللّذة والفرحة ، ومَن فكّر فى ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه ، وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللّذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام التى فى مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها ، وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها ، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة » (١)

قال ابن القيم (٢) : « إذا عرف هذا فالفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة .

ومثال ذلك : إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ، ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذّته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا ، وجزم بهذين العلمين أثمر له ذلك علماً ثالثاً ، وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة .

ثم له فى معرفة الآخرة حالتان :

إحداهما : أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد

---

(١) « مفتاح دار السعادة » لابن القيم : ١/ ١٨٠ ، ١٨١

(٢) ومقاله هنا تلخيص لما قاله الغزالى فى كتاب « التفكر » من « الإحياء » مع تنقيح وزيادة .

اليقين به ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة ، وهذا حال أكثر الناس ، فيتجاذبه داعيان ، أحدهما : داعى العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده ؛ لأنه مشاهد له محسوس ، وداعى الآخرة ، وهو أضعف الداعيين عنده ؛ لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ولا كافحه حقيقته العلمية ، فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم ، فلسان الحال ينادى عليه : لا أدع ذَرَّة منقودة لدُرَّة موعودة ! وهذه الآفة هى التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة ، وأن يسعى لها سعيها . وهى من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فمع الجزم التام الذى لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ، ولهذا لو قدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللَّذة ، وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل له : إنه مسموم ، فإنه لا يقدم عليه ؛ لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرَّة على لذَّة أكله . فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون فى قلبه بهذه المنزلة ؟ ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها فى القلب وعدم استقرارها فيه . وكذلك إذا كان سائراً فى طريق فقيل له : إن بها قُطَّاعاً ولصوصاً يقتلون مَن وجدوه ، ويأخذون متاعه ، فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين : إما أن لا يصدق المخبر ، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم ، وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقاً لا يتمارى فيه ، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم ، فإنه لا يسلكها ، ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك ، فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبداً .

الحالة الثانية : أن يتيقن ويجزم جزماً لا شك فيه بأن له داراً غير هذه الدار ، ومعاداً له خُلِق ، وأن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ، ومنزل من منازل السائرين إليه ، ويعلم مع ذلك أنها باقية ، ونعيمها وعذابها لا يزول ، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه ، إلا كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم

ثم ينزعها ، فالذى تعلّق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة ، فيُثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها ، وأن يسعى لها سعيها . وهذا يسمّى : تفكراً ، وتذكراً ، ونظراً ، وتأملاً ، واعتباراً ، وتدبراً ، واستبصاراً ، وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء وتتفرق فى آخر .

ويسمى تفكراً ؛ لأنه استعمال الفكرة فى ذلك ، وإحضاره عنده .

ويسمى تذكراً ؛ لأنه إحضار للعلم الذى يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (1) .

ويسمى نظراً ؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه .

ويسمى تأملاً ؛ لأنه مراجعة للنظر كَرَّة بعد كَرَّة ، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه .

ويسمى اعتباراً وهو افتعال من العبور ؛ لأنه يعبر منه إلى غيره ، فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة ، وهى المقصود من الاعتبار ، ولهذا يسمى عبرة ، وهى على بناء الحالات كالجِلسة والرِّكبة والقِتلة ، إيذاناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (2) ، وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِى الأَبْصَارِ ﴾ (3) .

ويسمى تدبراً ؛ لأنه نظر فى أدبار الأُمُور ، وهى أواخرها وعواقبها ، ومنه تدبّر القول . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ ﴾ (4) ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (5) . وتدبر

---

(1) الأعراف : ٢٠١ (2) النازعات : ٢٦ (3) النور : ٤٤
(4) المؤمنون : ٦٨ (5) النساء : ٨٢

الكلام : أن ينظر فى أوله وآخره ، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين .

وسمى استبصاراً ؛ وهو استفعال من التبصر ، وهو تبين الأمر وانكشافه ، وتجليه للبصيرة .

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر . فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ، ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة . والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب . فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه . ولهذا قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه كما قال بعض السَّلَف : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها . فالمذاكرة بها لقاح العقل .

فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر ؛ فإنه لا بد من تفكر ، وعلم يكون نتيجة الفكر ، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم . فإن كل مَن علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه ، وتلك الحال توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل . فهاهنا خمسة أُمور : الفكر وثمرته العلم ، وثمرتهما الحالة التى تحدث للقلب ، وثمرة ذلك الإرادة ، وثمرتها العمل ، فالفكر إذَنْ هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها .

وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . فالفكر هو الذى ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى

هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله ، والتجافى عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله ، والعقل عنه . ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور .

وبالجملة . . فأصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة ، فيبذر فيها حب الأفكار الردية ، فيتولد منه الإرادات والعزوم ، فيتولد منها العمل ، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأُفكار النافعة فيما خُلِق له ، وفيما أُمِر به ، وفيما هُيئَ له وأُعِدَ له ، من النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، لم يجد لبذره موضعاً ، وهذا كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا » ! [1]

* * *

(١) انظر : « مفتاح دار السعادة » : ١/ ١٨١ - ١٨٣

الدعوة إلى التذكر

وكما رأينا القرآن دعا وأكد الدعوة إلى التفكر ، رأيناه كذلك دعا وأكد الدعوة إلى التذكر .

والتذكر من عمليات العقل العليا ، والذاكرة هى الخزانة التى يحتفظ الإنسان فيها بمعارفه ومعلوماته ، ليستجلبها عند الحاجة ، ولا يستغنى الإنسان عن الذاكرة والتذكر فى حياته الدنيوية أو الدينية ، ومَن فقد ذاكرته فإنما فقد نفسه ، لأنه أصبح بلا ماض ولا تاريخ .

والفرق بين التفكر والتذكر : أن التفكر يعمل لتحصيل معرفة جديدة ، والتذكر يعمل لجلب معرفة قديمة ، ذهل عنها ، أو غشيتها الغفلة والنسيان .

والغفلة شر داء يصيب الإنسان فيُذهله عن الحقائق الكبيرة ، والمهمات الخطيرة ، حتى ينساها تماماً ، وكأنه لا يعرفها ، أو لا يعلم عنها شيئاً .

ولهذا وصف الله الكفار من أهل جهنم الذين عطلوا أدوات المعرفة عندهم من القلوب والأبصار والأسماع بقوله : ﴿ أُوْلَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) ، فدل على أن الغفلة هى أصل الداء ، وجرثومة البلاء .

وقال عن أمثالهم : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

ووصف أكثر الناس بقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٣) .

وقال عن فرعون وجنوده : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٧٩
(٢) النحل : ١٠٨
(٣) الروم : ٦ ، ٧
(٤) الأعراف : ١٣٦

وقد يُعبِّر القرآن عن هذه الغفلة بالنسيان ، الذى يصيب بعض الناس ، حتى إنه لينسى ربه الذى خلقه فسوَّاه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، قال تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

والله تعالى لا يَنسى ، كما قال على لسان موسى : ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى ﴾ (٢) ، وإنما نسيانه لهم يعنى الإهمال والترك فيكونون كالشىء المنسى المهمل .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

لقد كانت عقوبة الله تعالى لهم على نسيانهم له أن أنساهم أنفسهم وذواتهم ، وأى عقوبة أعظم ، وأى مصيبة أكبر من أن ينسى الإنسان حقيقة نفسه ، فلا يعرف لها غاية فى الوجود ، ولا رسالة فى الحياة ، ولا يجد فرقاً بينها وبين الأنعام ، فهو يعيش فى هذه الدار ميتاً وهو فى صورة الحى ، معدوماً وهو فى عِداد الموجودين .

ومن أجل هذا كان من مهمة الرسول « التذكير » ، كما أن من مهمته الإنذار والتبشير ، قال تعالى لرسوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (٤) ، كما قال له : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ (٧) ، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٨) .

---

(١) التوبة : ٦٧ — (٢) طه : ٥٢ — (٣) الحشر : ١٩

(٤) الغاشية : ٢١ — (٥) هود : ١٢ — (٦) الذاريات : ٥٥

(٧) الأعلى : ٩ — (٨) سورة ق : ٤٥

ومن هنا سُمي القرآن « تذكرة » في أكثر من آية : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (٤) .

ولقد تكرر في سورة القمر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٥) .

وأحياناً يُعبِّر عن القرآن وآياته بأنه « ذكرىٰ » .

قال تعالى : ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) . . فهو ذكرى للعالمين عموماً من حيث هدف إنزاله ، وذكرى للمؤمنين خصوصاً ، من حيث الانتفاع به .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) .

والكتب السماوية كلها تحمل هذه الذكرى لمن يعقلونها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٩) .

بل آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس ، وسُننه في الكون والمجتمع ،

---

(١) طه : ١ - ٣ (٢) الحاقة : ٤٨ (٣) المدثر : ٥٤ ، ٥٥

(٤) المزمل : ١٩ ، والإنسان : ٢٩ (٥) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

(٦) الأنعام : ٩٠ (٧) الأعراف : ٢ (٨) هود : ١٢٠

(٩) غافر : ٥٣ ، ٥٤

وأحداثه فى التاريخ ومصاير الأُمم ، كلها موضع للذكرى والتذكر ، مثل آياته المنزَّلة فى كتبه على رُسُله .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وقال تعالى بعد أن ذكر السماء والأرض والجبال والنبات ، وكيف أحسن الله خلقها ، وأتقن صنعها : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى قصة أيوب ، وكيف عافاه الله بعد ابتلاء ، وشفاه بعد سقم ، وكشف ما به من ضر ، وأعاد إليه أهله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٣) .

وقد تكرر فى القرآن مرات عدة : أن التذكر من صفات أُولى الألباب ، بل إنه مقصور عليهم مخصوص بهم ، كما تفيده صيغة « إنما » أو صيغة « ما » و« إلَّا » .

يقول تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٧) .

---

(١) الزمر : ٢١ (٢) سورة ق : ٨ (٣) سورة ص : ٤٣
(٤) البقرة : ٢٦٩ (٥) آل عمران : ٧ (٦) الرعد : ١٩
(٧) الزمر : ٩

فالتذكر هنا مثل التفكر ، يشمل عالم الخلق وعالم الأمر ، يشمل آيات الله المنظورة ، وآياته المسطورة ، آياته فى المصحف الصامت ؛ وهو الكون ، وآياته فى المصحف الناطق وهو القرآن .

يؤكد هذا قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فالتذكر إذن من عمل العقلاء أولى الألباب ، لا من عمل غيرهم ، فهم الذين يتفكرون ويتذكرون . وقد قال الإمام الغزالى : « فكل متفكر متذكر ، وليس كل متذكر متفكراً » .

وفائدة التذكر أو التذكار : تكرار المعارف على القلب ، واسترجاع ما فات منها بالذهول والنسيان والغفلة ، لترسخ وتثبت ولا تنمحى عن القلب ، وفائدة التفكر : تكثير العلم ، واستجلاب معرفة ليست حاصلة من قبل ، فهذا هو الفرق من التذكر والتفكر (٣) .

ولقد حضَّ القرآن على التذكر فى آيات وفيرة بهذه الصيغة الخاصة المحرضة : ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، أو ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟

نقرأ فى ذلك قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم فى محاجة قومه : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلا شَفِيعٍ ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) إبراهيم : ٥٢

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ، كتاب « التفكر » : ٤/ (٤) الأنعام : ٨٠

(٥) السجدة : ٤

وفى موضع مماثل يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفى مقام آخر : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وفى مقام المحاورة مع المشركين : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

وفى حوار آخر : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

وفى موضع آخر : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

كما بيَّنت الآيات الكريمة أن التذكر كان هو العلَّة المرجوة من كثير مما أنزل الله أو ما فصَّله أو ما بيَّنه من آيات وأحكام ، وما صنعه فى خلقه من أحوال وأفعال . اقرأ فى ذلك : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) يونس : ٣ (٢) هود : ٢٤ (٣) النحل : ١٧
(٤) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥ (٥) الصافات : ١٥٣ - ١٥٥ (٦) الجاثية : ٢٣
(٧) النور : ١ (٨) الأنعام : ١٥٢

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٨) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٩) .

ومع هذا التحضيض والتحريض ، ومع هذا البيان وضرب الأمثال ، فإن القرآن يقرر أنهم قليلاً ما يتذكَّرون . فالغفْلة هى الغالبة ، والنسيان هو المتحكم .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١٠) .

ويقول تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١١) .

ويقول عن التوحيد : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٢) .

---

(١) النحل : ٩٠ — (٢) البقرة : ٢٢١ — (٣) الذاريات : ٤٩
(٤) الأعراف : ٥٧ — (٥) الزمر : ٢٧ — (٦) الدخان : ٥٨
(٧) إبراهيم : ٢٥ — (٨) النحل : ١٣ — (٩) الأنعام : ١٢٦
(١٠) التوبة : ١٢٦ — (١١) الأعراف : ٣ — (١٢) النمل : ٦٢

ويقول عن القرآن : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

هذه الحملة القرآنية المكثفة من أجل الدعوة إلى « التذكر » بهذه الأساليب المتنوعة ، والصور الجمَّة المتعددة ، تدلنا على ضرورة التذكر للإنسان فى الحياة عامة ، وفى الحياة الدينية خاصة .

فإنما يستفيد من نور الوحى ، ومن هداية الله ، ومن هَدْى رسوله مَن تذكر فنفعته الذكرى ، فخشى الله تعالى كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٤) .

وقال فى وصف المتقين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (٥) .. أى تذكروا جلال الله تعالى وعظمته ، واطلاعه عليهم ، ووقوفهم غداً بين يديه ، فإذا هم مبصرون للغاية ، مبصرون للطريق ، مبصرون لما يجب ، ولما هم فيه ، وهذا الإبصار هو الذى يضئ لهم السبيل ، ويكفهم عن السير فى ركاب الشيطان .

يقول العلامة الزبيدى فى « شرح الإحياء » فى بيان أهمية التذكر :

« اعلم أن القلب إذا انتبه من غفلته وتيقظ من رقدته تذكر ما كان نسيه ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ (٦) ، فجعل الإنابة

---

(١) الحاقة : ٤١ ، ٤٢ (٢) الأعلى : ١٠ (٣) عبس : ٣ ، ٤
(٤) الفرقان : ٧٣ (٥) الأعراف : ٢٠١ (٦) غافر : ١٣

شرطاً للانتفاع بالتذكر . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) ، فجعل للتذكر ثلاثة أسباب : إلقاء السمع ، وحضور القلب ، وشهوده للفهم ، فعلى هذا يكون حقيقة التذكر استدعاء ما كان موجوداً عنده ثم نسيه . وتكراره على القلب حتى يثبت ويرسخ ، وسبب ذلك أن العلوم كلها مركوزة فى النفوس بالفطرة ، وهى كامنة فيها ككمون النار فى الحجر ، والنخلة فى النواة ، وذلك أنها قابلة لإدراك العلوم كلها ، فالمعلم لا يُحدث لها شيئاً من خارج ، وإنما يُخرج بالتعليم ما هو كامن فيها ، وإنما طرأ عليه النسيان بسبب اغترابها فى عالَم الشهادة ، عالَم الخيال والظلمة . فمتى سكت عنها حركة الخيال وظلمة الشهوات تجلَّى لها عالَمها الذى هو من أمر الله تعالى المنزّه عن الخيالات والأوهام وعن الجهات والمقدار ، فحينئذ تذكر ما أودعه عندها سيدها ومالكها وهاديها ، من الاعتراف بوجوده ووحدانيته ، وكل صفة تليق بعظمته وكبريائه ، فمن حُرِم مثل هذا الاستبصار فقد خاب من الرحمة بطريق النظر والاعتبار . فإنه تعالى أمرنا على لسان أنبيائه عليهم السلام بالتذكار ، ثم لم يكلنا إلى أنفسنا حتى نبهنا فقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢) . . والتذكر يتعلق بالعقد والقول ، والفعل والترك ، وهو واجب فيما يجب من ذلك . . . . وما دام المريد مفتقراً إلى التفكر ، فلا بد من التذكر ؛ لأن التفكر هو استمداد الأنوار من الأذكار . . وبشرف التذكر يشرف متعلقه . وعلامة صحة التذكر موافقة الشرع فى جميع مراتبه ، فمتى وقع له غير ذلك فليعلم خطأه » (٣) .

* * *

---

(١) سورة ق : ٣٧ (٢) سورة ص : ٦٥ ، ٦٦

(٣) إتحاف السادة المتقين ، شرح إحياء علوم الدين ، للسيد مرتضى الزبيدى – طبع دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٣ / ٣١٦

شهادة المنصفين من المفكرين الغربيين

إن « العقلانية » في القرآن أمر واضح تمام الوضوح ، لا يخطئه أي قارئ للقرآن برئ من العصبية والتقليد ، بل يجدها مبثوثة في ثنايا سوره مكية كانت أو مدنية ، وهذا ما وجدنا كثيرين من غير المسلمين شهدوا به ، وآخر مَن قرأنا لهم ذلك ما قاله كبير المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، أو كما يُعبِّر هو عن نفسه بأنه « مستعرب » وليس بـ « مستشرق » ، وهو العالِم الاجتماعي الكبير المعروف في عالَم الفكر والثقافة الأستاذ « چاك بيرك » ، الذي ترجم معاني القرآن إلى اللُّغة الفرنسية ، بعد أن قضى في ذلك عشرين عاماً أو تزيد ، وقال في ذلك : « لقد تبيَّنت لي بوضوح عقلانية القرآن ، في كل سورة من سوره ، وفي كل آية من آياته ، وذلك ثمرة مصاحبة ومعايشة طويلة للقرآن » .

وهناك شهادة أُخرى أكثر تفصيلاً وبياناً ، نجدها في فصل « العقيدة القرآنية » من كتاب الكاتب اليهودي الماركسي الفرنسي المعروف « ماكسيم رودنسون » ، الذي ألَّفه عن « الإسلام والرأسمالية » . فرغم ما في الكتاب من مآخذ ، نجده ينصف الإسلام - أو القرآن - في هذا الجانب ، ولا بأس أن أنقل بعض فقرات من هذا الفصل .

يقول « رودنسون » : « القرآن كتابٌ مقدس تحتل فيه العقلانية مكاناً جدَّ كبير ، فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين . بل إن أكثر ما يلفت النظر هو أن الوحي نفسه ، هذه الظاهرة الأقلّ اتساماً بالعقلانية في أي دين ، الوحيَ الذي أنزله الله على مختلف الرُسل عبر العصور وعلى خاتمهم محمد ، يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان . فهو في مناسبات عديدة يكرر لنا أن الرُسل قد جاءوا بالبيِّنات [1] . فإذا تساءلت : ما الذي يضمن صحة الدلالة

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الحديد : ٢٥) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (المائدة : ٣٢) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ (الأعراف : ١٠١) ، وقوله تعالى عن يوسف : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (غافر : ٣٤) .

في هذه البينات ، بدا لك أن هذه الضمانة - لدى محمد - تكمن في معايير من التلاحم الداخلي ، من التوافقُ الجوهري بين مختلف ما أُنزل من وَحي في حقب مختلفة ، على شعوب مختلفة ، وبواسطة رُسل مختلفين ، بل إن الوحي الذي أُنزل على محمد نفسه يَضْمَنُه أنه متماثلٌ جوهرياً مع الوحي الذي أُنزل على غيره من قبل [1] ، والذي يبدو له أمراً وَثَّقه التاريخ . وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتوا بوحي مثله [2] ، وَحي يحمل نفس السمات الإلهية شكلاً ومضموناً ، أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى مما أُنزل على موسى وعلى محمد [3] . . . فإذا لم يقبلوا بهذه المعايير ففي المستطاع اللجوء إلى محاكمة تماثل « الرهان » المعروف لدى « باسكال » . وذلك هو ما يفعله « مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه » دفاعاً عن موسى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ ، وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ [4] .

والقرآن ما ينفك يُقدِّم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية : ففي خلق السموات والأرض ، واختلاف اللَّيل والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والأفلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوعٌ رائع التطابق مع حاجات البشر ، ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ [5] .

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ من بَعْده ﴾ (النساء : ١٦٣) ، وقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ به نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فيه ﴾ (الشورى : ١٣) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيث مِّثْله إِنْ كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ (الطور : ٣٤) ، وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوْا بِسُورَةٍ مِّثْلِه وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ الله ﴾ (يونس : ٣٨) .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (القصص : ٤٩) .

(٤) غافر : ٢٨

(٥) آل عمران : ١٩٠ - والصواب : الإشارة إلى الآية ١٦٤ من سورة البقرة ، فهي التي تطابق ما ذكره الكاتب .

وأحد الأمثلة النموذجية على هذه المحاكمات نجده فى دحض ناموس التثليث المسيحى . فالقرآن يرفض هذا الناموس استناداً إلى ما كان محمد يعتقد أنه التاريخ (١) ، وإلى ما يُنسب للمسيح ذاته من قول ينفى به عن نفسه صفة الألوهية . وليس هذا فحسب ، بل إن المسيحيين مدعوون إلى أن « لا يَغْلُوا » فى دينهم فلا يقولوا بما لا يُعقل . ﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فى السَّمَوَات وَمَا فى الأَرْضِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٢) . و﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (٣) ، ولكنهما كانا بَشَراً كالآخرين : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (٤) . ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (٥) . ولذلك : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ، فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾ (٦) .

يقول المؤلف : وفعل « عَقَلَ » (بمعنى : ربط الأفكار بعضها ببعض ، حاكم ، فهم البرهان العقلى) يتكرر فى القرآن حوالى خمسين مرة . ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكارى ، وكأنه لازمة : « أفلَا تعقلون » ؟ والكفار ، أُولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ، يوصفون بأنهم « قوم لا يعقلون » لأنهم قاصرون عن أى جهد عقلى يهز تقاليدهم الموروثة (٧) . وهم

---

(١) ينطلق الكاتب من فكرة مسلَّمة عنده وعند كل المستشرقين ، وهى بَشرية القرآن ، وأن محمداً مؤلِّفه ؛ وكل الدلائل تُكذِّب هذه الفكرة الزائفة ، وليس هنا موضع مناقشتها .

(٢) النساء : ١٧١ (٣) المائدة : ٧٥ (٤) المائدة : ٧٥

(٥) المائدة : ١٧ (٦) النساء : ١٧١

(٧) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يونس : ٤٢ ، ٤٣) .

بهذا كالعجماوات والأنعام ، بل أكثر عجمة [١] . ولذلك كان الأب « هنرى لامنس » على حق فى قوله : إن محمداً « ليس بعيداً عن اعتبار الكفر عاهة من عاهات الفكر البَشَرى » !

فالكفار - ككل المحافظين فى كل العصور - يقولون إنه يكفيهم أن يتبعوا ما كان عليه آباؤهم ، ومحمد - ككل المجددين - تستثيره هذه الحماقة : أفلا يدركون أن آباءهم قد أهملوا فكرهم قبل أن يضعوا قواعد حياتهم ؟ [٢] ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر فى أُسس تفكيرهم [٣] . ولئن كان يرسل الآيات على وجوده وإرادته ، وأهمُّها الآيات المنزَّلة على نبيه محمد ، فلكى يفهمها الناس ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم [٤] . ونرى الله يُقدِّم البيِّنة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٥] ، ولما كان الإنسان حراً فأقصى ما يَسع الله فعله هو أن يضع أمامهم هذه الآيات ، هذه البيِّنات التى ستكون حاسمة قاطعة بمجرد أن يعملوا حواسهم ومَلَكة المحاكمة فيهم . فإن فعلوا

---

(١) ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٧١) ، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان : ٤٣ ، ٤٤) .

(٢) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠) .

(٣) ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٢) .

(٤) ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٦٩) ، ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٣٤ ، ٣٥) ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف : ٢) ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف : ٣) .

(٥) الروم : ٢٨

فلعلَّها تهديهم إلى الإيمان [1] . فإن اهتدوا كانوا « عالمين » [2] ، وكان لهم نصيبٌ مما جاء الرسول من العلم [3] ، هذا العلم الذى هو نقيض الجاهلية والجهل ، جهل الإنسان البدائى قبل الوحى [4] ، الذى يأتى بالحق والصدق [5] . وأما مَن ظَلَّ على كفره فهو الجاهل بإرادته ، ذلك الذى ﴿ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [6] ولأمثال هذا يجب أن يُقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [7] .

على أن الفهم العقلى للحقيقة لا يكفى وحده ، فيهود المدينة مثلاً كانوا

---

(١) ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .
(الحديد : ١٦)

(٢) ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

(٣) ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة : ١٢٠) ، ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .
(آل عمران : ٦٠ ، ٦١)

(٤) ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) ، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص : ٥٥) ، ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ .
(الزمر : ٦٤)

(٥) ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (الزمر : ٢) ، ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الزمر : ٣٣) .

(٦) لقمان : ٢٠ (٧) الأنعام : ١٤٨

يفهمون الدعوة كل الفهم ، ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يحرفوها عامدين [(١)] .

وكذلك ينبغى الانتقال من العقل المحْض إلى العقل العملى ، وإدراك أن الخير والمصلحة هما فى اتباع ما أمر به الله ، والالتحام بالجماعة التى يبنيها رسوله بأمرٍ منه » [(٢)] .

وينقل « رودنسون » عن دراسة لـ « شارل توراى » عن مصطلحات اللاهوت فى القرآن قوله : « من الصعب أن يتصور المرء لاهوتاً أكثر « دقة رياضية » ، ودقة الرياضيات تفترض العقلانية ، وهذا بالطبع لا يعنى أن كل الأشياء ، فى هدى العقيدة القرآنية ، تُدرك بالعقل ، فكثيرٌ منها لا يبلغه العقل ، وهذه بالذات آية من آيات الله على قدرته وعلى إحاطة علمه ، وهذه الأشياء التى لا قِبَلَ للعقل البَشرى أن يدركها بقوته وحدها ، يكشف الله للناس عن بعضٍ منها بواسطة أنبيائه ، أما باقيها فيظل إلى الأبد فى عالَم الغيب ، ومهمة العقل هى أن يفهم صدق ما تقوله رسالات الرُسل عن المجهول الذى لا طاقة له على معرفته ، وأن يدرك أيضاً أن مصلحته هى فى إطاعة تعاليمهم .

وهنا - بالطبع - يظهر الإيمان ، هذا العنصر اللاعقلانى ، والضرورى مع ذلك لكل دين ، وربما لكل عقيدة غير دينية . فأنت واجد أناساً يبدون متماثلين فى المواهب ، متماثلين فى الظروف ، ثم يقفون أمام ظاهرة واحدة فتكون لهم مواقف مختلفة . بعضهم يؤيد « وبعضهم ينكر . بعضهم يؤيد بجماع قلبه ، وبعضهم بطرف لسانه . ولا معدى لنا عن تفسير لهذا الاختلاف ، فإذا نحن كافحنا غير المؤمنين فلا بد لنا ، كيما ندينهم ونتوعدهم

---

(١) ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) .

(٢) انظر : كتاب « الإسلام والرأسمالية » - فصل « العقيدة القرآنية » ص ١٣٤ - ١٣٨ من الترجمة العربية .

بالعقاب ، من أن نعترف لهم ببعض المسؤولية فى رفض الإيمان . وهذا – فى الأديان – يصطدم بناموس القوة الإلهية المطلقة ، ويضع المرء أمام معضلة لا حلّ لها ، هى معضلة الخيار بين اتهام السماء بالعجز النسبى وبين اتهامها بالظلم .

أما فكرة الإيمان فى القرآن فتقف عند الاعتصام العنيد ، عبر فعل إرادى يأخذ بجماع النفس ، بهذا الإيمان الذى منحه الله مجاناً لعباده .

ولكن الإيمان يظل على صلة مباشرة بالاقتناع العقلى ، وآية ذلك أن كافرين ظلوا دهراً طويلاً على كفرهم ، فأنزل الله عليهم من آياته مصائب حاقت بهم ، فكفروا بإشراكهم الماضى وقال الله إنهم أصبحوا مؤمنين ، ثم أضاف أنهم آمنوا بعد فوات الأوان فلن ينجيهم إيمانهم من العذاب (١) . إن الآيات التى تروى ذلك تحمل الدليل على أن هنالك تماثلاً بين الإيمان وبين الاقتناع « العقلانى » أمام البيِّنة . وما يفعله الله هو الإذْنُ للبينة الموضوعية بأن تحدث أثرها المقنع (٢) . وجدير بالتأمل أن نفس الآية التى تبرر التسامح ، وتشير إلى هذه المشيئة الربَّانية ، تتحدث فى الوقت نفسه عن العقل والاقتناع العقلانى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، (٤) .

---

(١) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ، سُنَّتَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (غافر : ٨٤ – ٨٥) ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً ، قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥٨) .

(٢) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إلا أن يَشَاءَ اللهُ ﴾ (التكوير : ٢٧ – ٢٩) .

(٣) يونس : ٩٩ – ١٠٠

(٤) الإسلام والرأسمالية ص ١٣٩ ، ١٤٠

وبعد حديث طويل عن العهدين القديم والجديد ، وموقف الآباء والأحبار من العلاقة بين الإيمان والعقل ، ينقل عن القديس الشهير « توما الأكوينى » فى القرن الثالث عشر الميلادى قوله : « إن صفات الله غير المرئية يحيط بها الإيمان بطريقة لا يستطيعها العقل الطبيعى حين يرقى من المخلوقات إلى الخالق » ، « مثلاً إذا رفض المرء - أو لم يرد حقاً - أن يؤمن إلا بواسطة العقل الإنسانى ، فإن إدخال العقل يحط من قدر الإيمان » !

ويعقب « رودنسون » على ذلك بقوله : « فى مقابل هذا » تبدو العقلانية القرآنية صلبة كأنها الصخر » ! [1] .

* * *

(١) ص ١٥٠ من الترجمة العربية للكتاب .

الفصل الثانى

فضل العلم ومنزلة العلماء فى القرآن

- معنى العلم وأقسامه .
- فضل ومنزلة أهله فى القرآن .
- كل الأنبياء آتاهم الله العلم .
- الصلة بين العلم والإيمان .
- العلم سبيل اليقين .
- العلم شرط لكل منصب قيادى .
- ذم كل أمر قام على غير علم .
- العلم المذموم فى القرآن .

فضل العلم ومكانة العلماء فى القرآن

● مادة « ع ل م » فى القرآن :

مَن قرأ القرآن الكريم وجد مادة « ع ل م » تشيع فى سوره المكية والمدنية على سواء ، بكل مشتقاتها اسماً وفعلاً ومصدراً ، مئات المرات .

ففعل « تَعْلَمون » فى خطاب الجمع تكرر ٥٦ مرة ، بالإضافة إلى ٣ مرات بصيغة « فستعلمون » ، و٩ مرات بصيغة « تَعْلَموا » ، و ٨٥ مرة بصيغة « يَعْلَمون » ، و٧ مرات « يعلَموا » ، ونحو ٤٧ مرة تكرر فعل « عَلّم » وما يشتق منه وما يتعلق به .

كما تكررت صفة « عليم » مُعرَّفة ومُنكَّرة (١٤٠) مرة ، وكلمة « عِلْم» مُعرَّفة ومُنكَّرة (٨٠) مرة . وهناك صيغ أُخرى تكررت كثيراً أيضاً .

وكل هذا التكرار لهذه المادة ومشتقاتها دليل مؤكد على فضل العلم وبالغ أهميته فى نظر القرآن الكريم .

وفى هذه الفصل من دراستنا هذه نحاول أن نلقى بعض الضوء على معنى العلم وفضله وأهميته ، ومكانة العلماء ، من خلال آيات القرآن العظيم .

* *

● معنى العلم وأقسامه :

قال الإمام الراغب فى « مفردات القرآن » : « العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، وذلك ضربان :

أحدهما : إدراك ذات الشيء (وهو الذى يسميه علماء المنطق : التصور) .

والثانى : الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له ، أو نفى شيء هو منفى عنه (وهو الذى يسميه المناطقة : التصديق ، فهذا يعنى إدراك النسبة ، وذاك إدراك المفرد) .

قال : فالأول : هو المتعدى إلى مفعول واحد ، نحو : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) .

والثانى : المتعدى إلى مفعولين ، نحو قوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ (٢) .

كما قسم الراغب العلم من وجه آخر إلى ضربين : نظرى وعملى .

فالنظرى : ما لا يتطلب شيئاً أكثر من العلم به ، فإذا علم فقد كمل ، مثل العلم بموجودات العالَم .

والعملى : ما لا يتم إلا بأن يعمل به كالعلم بالعبادات والأخلاقيات ونحوها .

قال : ومن وجه آخر ، ضربان : عقلى ، وسمعى » (٣) .

ويعنى بالعقلى : ما كان طريقه العقل والنظر ، وبالسمعى : ما كان طريقه الوحى والنبوة .

وقال بعض أهل اللُّغة : العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد .

قال الزبيدى فى « تاج العروس » : « والأكثر من المحققين يفرقون بين الكل . والعلم عندهم أعلى الأوصاف ، لأنه الذى أجازوا إطلاقه على الله

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) الممتحنة : ١٠

(٣) انظر : مفردات القرآن ص ٥٨٠ تحقيق صفوان عدنان داوودى - طبع دار القلم دمشق ، والدار الشامية ، بيروت .

تعالى ، ولم يقولوا : « عارف » - فى الأصح - ولا « شاعر » . والفروق مذكورة فى مصنفات أهل الاشتقاق .

قال : ووقع خلاف طويل الذيل فى « العلم » . حتى قال جماعة : إنه لا يُحَد (أى لا يُعرَّف) لظهوره وكونه من الضروريات . وقيل : لصعوبته وعسره . وقيل غير ذلك ، مما أورده بما له وما عليه الإمام أبو الحسن اليوسى فى « قانون العلوم » ، وأشار فى « الدر المصون » إلى أنه إنما يتعدى بالباء ، لأنه يراعى فيه أحياناً معنى الإحاطة . . قاله شيخنا .

وقال المناوى فى « التوقيف » : العلم هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع . . أو هو : صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض . . أو هو : حصول صورة الشىء فى العقل .

وفى « البصائر » : المعرفة إدراك الشىء بتفكر وتدبر لأثره ، وهى أخص من العلم ، والفرق بينها وبين العلم من وجوه لفظاً ومعنى .

أما اللَّفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد ، وفعل العلم يقتضى مفعولين ، وإذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة .

وأما من جهة المعنى فمن وجوه :

أحدها : أن المعرفة تتعلق بذات الشىء ، والعلم يتعلق بأحواله .

والثانى : أن المعرفة - فى الغالب - تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه ، فإذا أدركه قيل : عرفه ، بخلاف العلم ، فالمعرفة تشبه الذكر النفسى ، وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر ، ولهذا كان ضدها : الإنكار (ومنه : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (٢) ، وضد العلم : الجهل .

---

(١) يوسف : ٥٨ (٢) النحل : ٨٣

والثالث : أن المعرفة علم لعَيْن الشيء مفصلاً عما سواه ، بخلاف العلم ، فإنه قد يتعلق بالشيء مجملاً .

قال : وبينهما فروق أُخرى غير ما ذكرنا » (١) .

وقال الراغب فى « المفردات » : « المعرفة والعرفان : إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، وهو أخص من العلم ، ويضاده الإنكار ، ويقال : فلان يعرف الله ، ولا يقال : يعلم الله - متعدياً إلى مفعول واحد - لما كان معرفة البَشر لله هى بتدبر آثاره دون إدراك ذاته . ويقال : الله يعلم كذا ، ولا يقال : يعرف كذا ، لما كانت المعرفة تُستعمل فى العلم القاصر المتوصَّل به بتفكر . وأصله من عرفت « الشيء » أى أصبت عَرفه . أى : رائحته . أو من : أصبت عُرفه . أى خَده . يقال : عرفتَ كذا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ ﴾ (٢) ، ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ » (٥) .

قال : « والعارف فى تعارف قوم (أى فى اصطلاحهم) هو المختص بمعرفة الله ، ومعرفة ملكوته ، وحُسْن معاملته تعالى » .

وأيّاً كان حد « العلم » وتعريفه واختلاف المتخصصين فى ذلك ، وفى تحديد الفرق بينه وبين المعرفة ، فالذى يعنينا منه هنا هو المعنى العام الذى ذكره الإمام الراغب ، وهو : إدراك الشيء بحقيقته ، فكل إدراك وكشف وتبين للمجهول من أى نوع وفى أى مجال ، حتى تتضح حقيقته بالقدر الممكن للإنسان ، فهو داخل فى معنى « العلم » الذى يتحدث عنه القرآن .

* *

---

(١) « تاج العروس للزبيدى - مادة « علم » : ٨/ ٤٠٥

(٢) البقرة : ٨٩ — (٣) يوسف : ٥٨

(٤) محمد : ٣٠ — (٥) البقرة : ١٤٦

● فضل العلم :

لا يُعرف دين مثل الإسلام ، ولا كتاب غير القرآن ، أشاد بالعلم ، وحثَّ عليه ، ورغَّب فى طلبه ، ونوَّه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبيَّن فضل العلم وأثره فى الدنيا والآخرة ، وحضَّ على التعلم والتعليم ، ووضع لذلك كله القواعد الحاكمة ، والأحكام الضابطة ، وذلك فى مصادر الإسلام الأساسية : القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية .

* *

● دلالة آيات الوحى الأُولى :

وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحى الإلهى على قلب رسول الله ﷺ ، أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة ، وهى مفتاح العلم ، ونوهَّت بـ « القلم » وهو أداة نقل العلم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [١] .

« إن أول سورة أنزلها الله فى كتابه : سورة العَلَق ، فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علَّمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العِلْم ، وذكر خلقه خصوصاً وعموماً ، فقال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، وخصَّ الإنسَان من بين المخلوقات لما أودَعه من عَجائبه ، وآياته ، الدالة على ربوبيته وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وكمال رحمته ، وإنه لا إله غيره ، ولا ربَّ سواه ، وذكر هنا مبدأ خلقه من علق ، لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت إليها النطفة ، فهى مبدأ تعلق التخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ ، وهو الأفعل من الكرم ، وهو

---

(١) العلق : ١ - ٥

كثرة الخير ، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه ، فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ، والنعم كلها هو موليها ، والكمال كله والمجد كله له ، فهو الأكرم حقاً ، ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً ، فقال : ﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها ، فإن الوجود له مراتب أربعة :

إحداها : مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله ﴿ خَلَقَ ﴾ .

المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

المرتبة الثالثة والرابعة : اللَّفظية والخطية ، فالخطية مصرَّح بها فى قوله : ﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، واللَّفظية من لوازم التعليم بالقلم ، فإن الكتابة فرع النطق ، والنطق فرع التصور .

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلِّم ، وكل شىء فى الخارج فبخلقه وُجِد ، وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل . وكل لفظ فى اللِّسان ، أو خط فى البنان ، فبإقداره وخلقه وتعليمه . وهذا من آيات قدرته ، وبراهين حكمته . لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرَّف إلى عباده بما علَّمهم إياه بحكمته من الخط واللَّفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بها شرفاً وفضلاً له » [1] .

* *

● القَسَم بالقلم :

ومن أوائل ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [2] ، فأقسم بالقلم ، والقَسَم به يدل على أهميته ، فإن الله تعالى لا يقسم بشىء إلا ليلفت الأنظار إلى قيمته وخطره .

* *

---

(١) « مفتاح دار السعادة » لابن القيم : ١/٥٨

(٢) القلم : ١

● لا يستوى عالم وجاهل :

وفى القرآن المكى أيضاً يقول تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .. ففرَّق بين أهل العلم ، وأهل الجهل ، فلا يستويان ، بغض النظر عن مضمون العلم ، المهم أنه لا يستوى عالم وجاهل ، كما لا يستوى الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ، والإنسان والبهيمة ، وأصحاب الجنَّة وأصحاب النار !

* *

● أهل العلم أهل الخشية من الله :

وفى القرآن المكى نقرأ أيضاً : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) بهذه الصيغة الحاصرة التى أفادها كلمة « إنما » بمعنى أنه لا يخشى الله من عباده إلا العلماء الذين عرفوا عظمته ، وقدَّروه حق قدره ، وأهل الخشية هم الذين ذكر الله جزاءهم بقوله : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ (٣) .

وقال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً » !

* *

● شهادة الله والملائكة وأُولى العلم بالتوحيد :

وفى القرآن المدنى نقرأ قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) .

يقول الإمام الغزالى : « فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثَنَّى

---

(١) الزمر : ٩
(٢) فاطر : ٢٨
(٣) البينة : ٨
(٤) آل عمران : ١٨

بالملائكة ، وثَلَّث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ، وجلاءً ونبلاً » [1] .

وقال العلامة ابن القيم معلِّقاً على هذه الآية الكريمة ، وهى قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [2] : « استشهد سبحانه بأُولى العلم على أجل مشهود عليه ، وهو توحيده ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه .

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البَشَر .

والثانى : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع : أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خَلَف عُدولُه ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلِّين » .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أُولى العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ، وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه ، وهو أَجَلُّ شاهد ، ثم بخيار خلقه ، وهم ملائكته والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السابع : أنه استشهد بهم على أجَلِّ مشهود به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أنْ لا إله إلا الله . والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

---

(1) « إحياء علوم الدين : ٤/١ ، ٥ - طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(2) آل عمران : ١٨

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حُجَّة على المنكرين ، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً ، وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم . وكل مَن ناله الهدى بشهادتهم وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره . وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله ، وكذلك كل مَن شهد بها عن شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً .

فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية » (١) .

* *

■ تفضيل آدم على الملائكة بالعلم :

ومما نبَّه عليه القرآن ، ولم يُذكر فى كتاب دينى غيره : أن الله تعالى فضَّل آدم أبا البَشر ، وجعله فى الأرض خليفة ، وقدَّمه على الملائكة المتفرغين لعبادة الله تعالى ، وذلك بما خصَّه به من العلم ، الذى تفوَّق به على الملائكة فى الاختبار الذى عقده الله تعالى بينه وبينهم . يقول ابن القيم فى بيان الوجه التاسع والعشرين : « أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : ١/٤٨ ، ٤٩

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) . . . إلى آخر قصة آدم . وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء » .

قال ابن القيم : « وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه .

أحدها : أنه سبحانه ردَّ على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض مَن هم أطوع له منه فقال : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأُمور وحقائقها ما لا يعلمونه ، وهو العليم الحكيم ، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورُسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصدِّيقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان ، مَن هو خير من الملائكة ، وظهر من إبليس مَن هو شر العالمين ، فأخرج سبحانه هذا وهذا ، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثانى : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ، ميَّزه عليهم بالعلم ، فعلَّمه الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : ﴿ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . جاء فى التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا ! فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة ، أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه . فقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم ما خصَّه به من العلم فقال : ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٢) أقرُّوا له بالفضل .

الثالث : أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة

---

(١) البقرة : ٣٠ - ٣٢

(٢) البقرة : ٣٣

ما علمه قال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) . فعرَّفهم سبحانه نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم ، وبغيب السموات والأرض ، فتعرَّف إليهم بصفة العلم ، وعرَّفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفاً للعلم .

الرابع : أنه سبحانه جعل فى آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد سبحانه أن يُظهر لملائكته فضله وشرفه . فأظهر لهم أحسن ما فيه . وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما فى الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام ، لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم . أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذ قدَّمه ومكَّنه . وسلَّم إليه خزائن الأرض ، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حُسْن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حُسْن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ، ومكَّنه فى الأرض . فدلَّ على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة » (٢) .

* *

■ كل الأنبياء آتاهم الله العلم :

وفى عدد من قصص الأنبياء والمؤمنين فى القرآن يتبين لنا قيمة العلم وفضله عند الله ، وعند الناس ، وأثره فى الدين وفى الدنيا معاً ، وكل الأنبياء والرُسل فى القرآن آتاهم الله العلم ، وإن رفع الله بعضهم درجات .

* نوح عليه السلام :

فى قصة نوح نراه يجادل قومه بعلم وحُجَّة قوية ، فيفحمهم ، ولا يجدون

---

(١) البقرة : ٣٣

(٢) مفتاح دار السعادة : ١/٥٢ ، ٥٣

أمامهم ما يجيبون به ، أو يردون به على حججه ، فماذا كان موقفهم ؟ قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (١) .

❋

❋ إبراهيم الخليل :

وفى قصة إبراهيم يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِىَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ . . . إلى أن يقول : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ويحكى القرآن حواره لأبيه ، وقوله له : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ (٣) .

وهذا يدل على أن الجاهل يجب أن يتبع العالم ، فالعالم هو القائد ، والجاهل هو المقود ، ولو كان هو الأكبر سناً ، أو مقاماً ، بل لو كان هو الأب الوالد ، ينبغى أن يتبع ابنه لعلمه .

❋

❋ لوط :

وفى قصة لوط قال تعالى : ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٤) . وقد رأينا ثمار حكمته وعلمه فى حواره مع قومه ، الذى ذُكِرَ فى سورة الشعراء ، وسورة هود ، وغيرهما من السور .

❋

---

(١) هود : ٣٢ - ٣٣
(٢) الأنعام : ٧٥ - ٨٣
(٣) مريم : ٤٣
(٤) الأنبياء : ٧٤

* يوسف الصِّدِّيق :

وفى قصة يوسف يقول الله تعالى فى شأنه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث ﴾ (٢) ، وقد بشَّره أبوه من قبل حين قص عليه رؤياه وهو صبى ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٣) .

وقد كان علم التأويل - تأويل الرؤى والأحلام - هو السبب الذى هيأه الله لإنقاذ يوسف من السجن ، وإظهار براءته من كل تهمة ، وتقريب الملك له ، وجعله على خزائن الأرض ، كما طلب يوسف نفسه ، حين قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

فذكر له الصفتين الأساسيتين المطلوبتين من كل مَن يتولى منصباً ذا بال ، إدارياً أو مالياً أو سياسياً ، وهما : الحفظ والعلم ، والحفظ مرده إلى الأمانة ومراقبة الله ، والعلم مرده إلى الخبرة والكفاية فى أداء العمل بإتقان واقتدار .

*

* موسى كليم الله :

وفى قصة موسى يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥) فزاد هنا كلمة « واستوى » ولم يقل ذلك فى شأن يوسف .

يقول ابن القيم فى ذلك : ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً ،

---

(١) يوسف : ٢٢ (٢) يوسف : ٢١ (٣) يوسف : ٦
(٤) يوسف : ٥٤ ، ٥٥ (٥) القصص : ١٤

خصَّه به على غيره ، ولا يثبت له إلا الأقوياء أُولو العزم ، هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى ، يعنى : تم وكملت قوته [(١)] .

وقد تجلَّى أثر ما آتاه الله من الحكمة والعلم فى كل مراحل حياته ، وكل جوانب حياته عليه السلام .

كما نرى ذلك واضحاً فى حواره مع ربه الجليل سبحانه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [(٢)] .

فهو يطيل الجواب مع ربه تلذذاً بحلاوة المناجاة ، ثم يغلبه أدب العبودية فيطوى الكلام ويقول : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ .

ثم يدعو ربه بعد أن أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية ، دعاءً جامعاً لما يحتاج إليه الداعية فى موقفه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ [(٣)] .

ونرى ذلك واضحاً فى حواره مع فرعون : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [(٤)] .

لما نظر إلى جواب موسى عن ربه عَزَّ وجَلَّ ، كيف وصفه فى هذه الجملة القصيرة بأجلِّ وأدل ما يوصف به الله سبحانه . فهو الذى أعطى كل شىء فى هذا الكون ما به تمام خلقه وكمال وجوده ، ثم أعطاه الهداية التى يصل بها إلى غايته التى خُلِق لها . سواء أكان هذا الشىء من عالَم الإنسان أم من عالَم الحيوان أم من عالَم النبات أم من عالَم الجمادات ، وسواء أكان من عالَم الأرض أم من عوالِم الأفلاك ، من العقلاء أم غير العقلاء .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/٥٧

(٢) طه :١٧ ، ١٨

(٣) طه : ٢٥ - ٣٥

(٤) طه : ٤٩ - ٥٢

ثم انظر جوابه عن القرون الأولى ، فلم يتورط فيما لا سبيل إلى علمه من أنباء القرون الخوالى ، ووكل علمها إلى مَن لا تخفى عليه خافية : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (١) .

وفى سورة الشعراء حوار أطول من هذا مع فرعون ، تبين به فضل ما آتاه الله موسى من علم وحكمة : ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

*

* داود وابنه سليمان :

وفى قصة داود وابنه سليمان نجد حديثاً عن العلم فى أكثر من موضع . ففى أول قصة داود فى سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣) .

---

(١) طه : ٥٢ (٢) الشعراء : ١٧ - ٣٤ (٣) البقرة : ٢٥١

وفى سورة (ص) يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (١) .

وفى سورة الأنبياء يقول تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (٢) . .

فخصَّ سليمان بفهم القضية ، وإدراك الصواب فيها ، وأثنى على كل منهما بما آتاه الله من حكم وعلم .

وفى سورة النمل يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

ووراثة سليمان لداود هنا إنما أُريد بها وراثته فى علمه ، فقد جاء فى الحديث : « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمَن أخذه أخذ بحظ وافر » (٤) .

وفى قصة سليمان نجد أثر العلم مرة أُخرى فى نقل عرش ملكة سبأ من اليمن حيث نقلها إلى الشام حيث يقيم سليمان : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ص : ١٧ - ٢٠ (٢) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ (٣) النمل : ١٥ - ١٦

(٤) جزء من حديث مشهور رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان عن أبى الدرداء ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧) . (٥) النمل : ٣٨ - ٤٠

وهنا نجد العفريت الجِنِّى عرض على سليمان أن يأتيه بعرش الملكة قبل أن يقوم من مجلس الحكم ، وعرض ﴿ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ عليه أن يأتيه به قبل أن تغمض عينه ، أى فى لمح البصر ، وكان هذا - كما ذكر القرآن - بوساطة علم عنده من الكتاب ، فلم يوصف بشىء أكثر من هذا ، ولم يذكر لنا القرآن أنه مَلَك أو عفريت ، فدل على أنه إنسىّ ، وأنه بواسطة العلم فاق الجِنِّى ، فالإنسان بوسائله العلمية يفعل ما لا تفعله الجان ، كما نرى فى عصرنا ، كيف فاق الإنسان بكثير ما صنعه الجنُّ لسليمان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [1] .

*

* الخضر صاحب موسى :

وقال تعالى فى شأن الخضر صاحب موسى ، الذى لقيه مع فتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [2] . فأثنى عليه بما آتاه سبحانه من رحمة من عنده ، وما علّمه من علم من لدنه .

*

* المسيح عيسى ابن مريم :

وقال تعالى فى شأن عيسى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [3] . فهذا يقوله تعالى فى معرض الامتنان عليه وتذكيره بنعمه .

---

(١) سبأ : ١٣ — (٢) الكهف : ٦٥ — (٣) المائدة : ١١٠

وقال فى مقام تبشير أمه به عند ولادته لتقر به عينها : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (١) .

*

* محمد خاتم الرُّسُل :

وقال تعالى فى خطاب خاتم رُسُله محمد ﷺ : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٢) .

وقال تعالى له : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٥) .

وفى أربع آيات من كتاب الله (فى البقرة ، وآل عمران ، والجمعة) (٦) بيَّنت أن من وظيفته عليه الصلاة والسلام : تلاوة آيات الله ، وتزكية الأُمة ، وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وزادت آية منها : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) .

* *

---

(١) آل عمران : ٤٨ — (٢) النساء : ١١٣ — (٣) النمل : ٦
(٤) الشورى : ٥٢ — (٥) النحل : ٨٩
(٦) البقرة : ١٢٩ ، ١٥١ ، وآل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢ — (٧) البقرة : ١٥١

● تنويه القرآن بفضائل أُولى العلم :

وينوِّه القرآن بشأن أهل العلم ، ويُعبِّر عنهم بـ ﴿ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ ويُضفى عليهم جملة من الفضائل والمزايا الفكرية والإيمانية والأخلاقية كانوا وأحق بها وأهلها .

فهؤلاء الذين أُوتوا العلم هم الذين ينكشف لهم الحق الذى أنزله الله على محمد ، فيرونه واضحاً هادياً إلى صراط الله ، يقول تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

فهنا نجد العلم أثمر الإيمان ، فأثمر الإيمان الإخبات لله تعالى .

وهؤلاء الذين أُوتوا العلم هم الذين يتجاوبون مع القرآن العظيم ، فتتخشع له قلوبهم ، وتدمع له أعينهم ، وتخر له جباههم ، فهم بعلمهم يعرفون قدره ، وينزلونه منزلة من أنفسهم . يقول تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُواْ ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٣) .

والقرآن فى صدور هؤلاء من أهل العلم ليس مجرد كلام محفوظ ، بل هو آيات بيِّنات ، دالة أوضح الدلالة على عظمة مَن تكلَّم به ، ودالة كذلك على صدق مَن أُرسِل به ، ودالة كذلك على الحق الذى جاء به ، يقول تعالى

---

(١) سبأ : ٦ (٢) الحج : ٥٤ (٣) الإسراء : ١٠٦ - ١٠٩

لرسوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِه مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

وأُولو العلم المحمودون فى القرآن هم الذين لا يخدعهم المظهر عن الجوهر ، ولا الكم عن الكيف ، ولا القشور عن اللُّباب ، ولا المادة عن الروح ، ولهذا نراهم حين خرج قارون ذو الكنوز الطائلة على قومه فى زينته الباهرة ، وموكبه الحافل ، وأبهته الساحرة ، وقال الذين يريدون الحياة الدنيا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ! (٢) كان موقف هؤلاء من أهل العلم الحقيقى موقفاً مخالفاً تماماً ، لم يغرهم هذا البريق ، ولم يطعمهم هذا السراب فيحسبوه ماءً ، بل سجَّل لهم القرآن هذا الموقف الرائع : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (٣) .

وأُولوا العلم هؤلاء هم الذين قرنهم القرآن بأهل الإيمان ، ورفعهم جميعاً درجات عنده . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٤) .

قيل فى تفسيرها : يرفع الله المؤمن العالِم على المؤمن غير العالِم . ورفعة

---

(١) العنكبوت : ٤٧ - ١٩
(٢) القصص : ٧٩
(٣) القصص : ٨٠
(٤) المجادلة : ١١

الدرجات تدل على الفضل ، إذ المراد به كثرة الثواب عند الله ، وبها ترتفع الدرجات . ورفعتها تشمل الحسية والمعنوية ، فى الدنيا والآخرة . ففى الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت ، وفى الآخرة بعلو المنزلة فى الجنَّة .

وفى صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعى - وكان عامل عمر على مكة - أنه لقيه بعسفان فقال له : مَن استخلفتَ ؟ فقال : استخلفتُ ابن أبزى مولى لنا . فقال عمر : استخلفتَ مولى ؟ قال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض . فقال عمر : أما إن نبيكم قد قال : « وإن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ، ويضع به آخرين » [1] .

* *

● **العلم حياة ونور :**

اعتبر القرآن العلم حياةً ونوراً ، والجهل موتاً وظلمة ، فى آيات كثيرة ، وضرب لذلك الأمثال ، ومن المعلوم : أن الشر كله سببه عدم الحياة والنور ، وأن الخير كله سببه النور والحياة . فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها ، والحياة : هى المصححة لصفات الكمال ، الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال ، كما يقول المحقق ابن القيم ، فكل ما تصرف من الحياة فهو خير كله ، كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب ، وضده الوقاحة والفُحش ، وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح ، وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شىء . قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [2] ، كان ميتاً بالجهل قلبه ، فأحياه بالعلم ، وجعل له من الإيمان نوراً يمشى به فى الناس .

---

(١) فتح البارى : ١/٤٤١ ، طبعة السَّلَفية .   (٢) الأنعام : ١٢٢

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) . فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ، ونور يحصل به الإضاءة والإشراق ، فجمع بين الأصلين : الحياة والنور .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (٦) .

---

(١) الحديد : ٢٨ ، ٢٩ (٢) البقرة : ٢٥٧ (٣) الشورى : ٥٢

(٤) المائدة : ١٥ ، ١٦ (٥) التغابن : ٨ (٦) النساء : ١٧٤

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن - كما قال أُبَيُّ بن كعب رضى الله عنه - مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان ، الذى أعطاه إياه . كما قال فى آخر الآية : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ؛ يعنى نور الإيمان على نور القرآن ، كما قال بعض السَّلَف : يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور .

وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين ، وهما : الكتاب والإيمان ، فى غير موضع من كتابه ، كقوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣) . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤) ، ففضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن . وقوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٥) ، وقد تقدَّمت هذه الآيات . وقال فى آية النور : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (٦) ؛ وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفى حديث النوَّاس

---

(١) الطلاق : ١٠ ، ١١ (٢) النور : ٣٥ (٣) الشورى : ٥٢
(٤) يونس : ٥٨ (٥) الأنعام : ١٢٢ (٦) النور : ٣٥

ابن سمعان رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « أن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى كتفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة ، على الأبواب ستور وداعٍ يدعو على الصراط ، وداعٍ يدعو فوقه : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا۟ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » رواه الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه : « والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » ، فذكر الأصلين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان .

وقال حذيفة : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الإيمان ثم علموا من القرآن » .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ؛ طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ؛ طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ؛ ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ؛ طعمها مُرٌّ ولا ريح لها » . . فجعل الناس أربعة أقسام : أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى : أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم ، فهؤلاء هم السعداء ، والأشقياء قسمان ، أحدهما : مَن أوتى قرآناً بلا إيمان فهو منافق . والثانى : مَن لا أوتى قرآناً ولا إيماناً .

والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله فى قلب مَن يشاء من عباده ، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، وعلمهما أَجَلُّ العلوم وأفضلها ، بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ، (٣) .

* *

(١) يونس : ٢٥ (٢) البقرة : ٢١٣

(٣) مفتاح دار السعادة : ٢/٥٣ - ٥٥

العلم والإيمان

العلم فى نظر القرآن ليس مناقضاً للإيمان ، ولا عدواً له ، بل هو يسير مع الإيمان جنباً إلى جنب ، ولهذا عطف القرآن الإيمان على العلم فى قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) ، فعطف هنا أهل العلم على أهل الإيمان .

وقد قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٣) ، فأمر أن تكون القراءة باسم الله الخالق ، فهى قراءة مؤمنة ، وبتعبير آخر : علم فى حضانة الإيمان .

بل يرى القرآن أن العلم دليل الإيمان ، فهو يهدى إليه ويدل عليه ، فالإنسان فى القرآن يعلم فيؤمن ، أى يقتنع عقله ، فيؤمن قلبه ، يقول تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٤) .

هكذا رتَّب القرآن هذه الثلاثة - العلم ، الإيمان ، الإخبات - حين عطفها بعضها على بعض بحرف « الفاء » التى تفيد الترتيب والتعقيب ، كما يقول علماء العربية . فالمرء - بعقله وفكره - يعلم أن القرآن هو الحق المنزَّل من عند الله ، فيترتب على هذا العلم أن يؤمن به ، ويترتب على هذا الإيمان أن يخبت له قلبه . فالمعرفة تسبق الشعور ، والشعور يسبق الحركة ، سواء أكانت حركة القلب أم حركة الجسم .

* *

---

(١) الروم : ٥٦
(٢) المجادلة : ١١
(٣) العلق : ١
(٤) الحج : ٥٤

● العلم الحقيقى يهدى إلى الإيمان :

العلم الحقيقى فى نظر القرآن يدفع إلى الإيمان ، ويشد أزره ، يقول تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ويقول تعالى عن القرآن : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٢) .

* *

● العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم :

فليس بين العلم والإيمان - أو بين العلم والدين - صراع ، كالذى عرفته أوروبا فيما سمى عندهم « القرون الوسطى » ، وإنما هنا إخاء بينهما ، فالعلم يؤيد الإيمان ، والإيمان يبارك العلم ، فإن الحق لا يناقض الحق . وكما أقول أبداً : إن العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم .

أما أن العلم عندنا دين ، فإن كتاب ربنا ، وسُنَّة نبينا ، يدعواننا إلى العلم ، ويعتبرانه عبادة وفريضة ، سواء أكان علم دين أم علم دنيا ، علماً مصدره الوحى ، أم علماً مصدره الكون ، فالوحى أمر الله ، والكون خلق الله ، ولا تعارض بين خلقه وأمره سبحانه : ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وأما أن الدين عندنا علم ، فلأنه لا يقوم على التقليد واتباع الأجداد والآباء ، أو السادة والكبراء ، بل يحارب القرآن - بأبلغ الأساليب - التقليد الأعمى والتبعية المطلقة للآخرين ، وينادى كل ذى عقيدة أن يبنى عقيدته على البرهان

---

(١) سبأ : ٦ (٢) الإسراء : ١٠٦ - ١٠٩ (٣) الأعراف : ٥٤

واليقين ، لا على الظن والتخمين : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادقينَ ﴾ [(١)] ، ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ من دُونه آلهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ [(٢)] ، ﴿ نَبِّئُونى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادقينَ ﴾ [(٣)] ، ﴿ قُلْ هَلْ عندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إن تَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإنْ أَنتُمْ إلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [(٤)] .

والعلم المقترن بالإيمان يبنى ولا يهدم - ويُحيى ولا يُميت ، ولهذا نجد سليمان عليه السلام حين جىء إليه بعرش ملكة سبأ - عن طريق العلم - قبل أن يرتد إليه طرفه ، لم يقل ما قال الإنسان المغرور : ﴿ إنَّمَا أُوتيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عندى ﴾ [(٥)] ، أو إنما جاءنى به علمائى وخبرائى ، بل قال ما ذكره القرآن : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [(٦)] .

ومثل ذلك : موقف ذى القرنين ، حين بنى سدَّه العظيم مستعيناً بالله أولاً ، ثم بقوة الشعب ثانياً ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونى بِقُوَّةٍ ﴾ [(٧)] ، فلما استكمل البناء ، قال بتواضع المؤمنين : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ [(٨)] .

وهذا بخلاف العلم الذى وصل إليه الغرب اليوم ، فهو - لانقطاع صلته بالإيمان - غدا معول هدم ، وأداة تهديد للبَشرية .

صحيح أن الإنسان استطاع بوساطة العلم أن يصعد إلى القمر ، ويجلب منه أتربة وصخوراً وآثاراً ، يحلِّلها ويدرسها ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يوفر لنفسه السعادة والسكينة على ظهر الأرض .

❋ ❋

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) الأنبياء : ٢٤ (٣) الأنعام : ١٤٣
(٤) الأنعام : ١٤٨ (٥) القصص : ٧٨ (٦) النمل : ٤٠
(٧) الكهف : ٩٥ (٨) الكهف : ٩٨

• أثر العلم فى الاهتداء والفضيلة :

وإذا كان شأن العلم أنه يهدى إلى الإيمان ، ويرشد إلى الحق ، ويدل على الصراط المستقيم ، كما ذكر القرآن الكريم عن ﴿ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ فى أكثر من آية من آياته ، فلماذا نرى من الناس مَن يعرف الحق ولا يتبعه ؟ ومَن يعرف الإيمان ولكنه لا يؤمن ، ولا ينضم إلى قافلة المؤمنين ؟ .

تُرى ما الموانع التى تمنع بعض الناس أن يؤمنوا بعد ما علموا ، وأن يسيروا فى ركب الحق بعد ما انكشف عنه قناعه ، وأضاء لهم نوره وشعاعه ؟

* *

• اختلاف سقراط وأرسطو :

هنا نذكر ما اختلف فيه الفلاسفة الكبار قديماً ، مثل سقراط وأرسطو . .

فسقراط يرى أن الفضيلة هى « المعرفة » ، فإذا عرف الإنسان الفضيلة معرفة راسخة ، اقتنع بها عقله ، واطمأن إليها قلبه ، فإنه لا بد أن يتمسك بها . وإلا كان الخلل فى معرفته ، لا بد أنها معرفة سطحية ، لم تتغلغل فى عقله ، إذ لا يُتصور من العاقل أن يتأكد أن النار تحرق ، ثم يُقدم عليها .

وأرسطو يخالف أستاذه - أو أُستاذ أستاذه - سقراط ، ويقول : إن المعرفة وحدها لا تؤدى إلى الفضيلة ، فكم من أُناس يعرفون الفضيلة ويعملون عكسها ، تدفعهم إلى ذلك غرائزهم وشهواتهم ، أو إلفهم وعوائدهم ، أو نحو ذلك ، مما يدل على أهمية عنصر « الإرادة » بجوار عنصر « المعرفة » .

* *

• اختلاف علماء الإسلام فى القضية :

والعجيب أن هذه القضية اختلف فيها أيضاً علماء الإسلام ، وعرض لها الإمام ابن القيم بتفصيل وسعة فى كتابه « مفتاح دار السعادة ، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة » وكتب فيها نحو عشرين صفحة .

ومما قاله هناك : « وهنا اختُلف فى مسألة عظيمة ، وهى : أن العلم هل يستلزم الاهتداء ، ولا يتخلف عنه الهدى ، إلا لعدم العلم أو نقصه ؟ وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يُتصور الضلال ، أو أنه لا يستلزم الهدى ، فقد يكون الرجل عالماً ، وهو ضال على عمد ؟ هذا مما اختلف فيه المتكلمون ، وأرباب السلوك ، وغيرهم .

*** القول الأول : « العلم يستلزم الهداية » :**

« فقالت فرقة : مَن عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال أن لا يهتدى ، وحيث ضل فلنقصان علمه .

احتجاجات هذا الفريق :

« واحتجوا من النصوص بقوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (١) ، فشهد تعالى لكل راسخ فى العلم بالإيمان .

وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

وبقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ (٣) .

وبقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ (٤) .

وبقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (٥) .. قسم الناس قسمين :

أحدهما : العلماء بأن ما أُنزل إليه من ربه هو الحق .

والثانى : العُمْىُ ، فدل على أنه لا واسطة بينهما .

وبقوله تعالى فى وصف الكفار : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) النساء : ١٦٢ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) سبأ : ٦

(٤) آل عمران : ١٨ (٥) الرعد : ١٩ (٦) البقرة : ١٧١

وبقوله : ﴿ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وبقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٢) . . وهذه مدارك العلم الثلاث قد سُدَّت عليهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً ، أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم : ماذا قال ؟ ولما كان مطبوعاً على قلوبهم .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُواْ ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (٦) ، فهذه شهادة من الله تعالى لأُولى العلم بالإيمان به وبكلامه .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٧) ، فدلَّ على أن أهل الضلال لا سمع لهم ولا عقل .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا

---

(١) التوبة : ٩٣ (٢) البقرة : ٧ (٣) الجاثية : ٢٣
(٤) محمد : ١٦ (٥) الأنعام : ٣٩ (٦) الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨
(٧) الملك : ١٠

إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (١) ، أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلّا العالمون ، والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالاً من الذين يعلمون ، والنص بخلافه .

والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم « لا يعلمون » ، وتارة بأنهم « لا يعقلون » ، وتارة بأنهم « لا يشعرون » ، وتارة بأنهم « لا يفقهون » ، وتارة بأنهم « لا يسمعون » . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم « لا يبصرون » ، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل ، مناف للعلم لا يجامعه ، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم « جاهلون » ، كقوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاماً ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) العنكبوت : ٤٣ — (٢) الروم : ٢٩ — (٣) البقرة : ١١٨

(٤) الزمر : ٩ — (٥) الفرقان : ٦٣ — (٦) القصص : ٥٥

(٧) الأعراف : ١٩٩

وقال النبى ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ : « اللَّهُمَّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

وفى الصحيحين عنه : « مَن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير فى العبد . . . .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار بالله جهلاً .

قالوا : فهذا القرآن والسُّنَّة وإطلاق السَّلَف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية ، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم .

قالوا : ويدل عليه أن الإنسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم ، والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (١) . قال سفيان الثورى : كل مَن عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل ، كان جاهلاً أو عالماً ، إن كان عالماً فمَن أجهل منه ؟ وإن كان لا يعلم فمثل ذلك .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شىء عُصِىَ الله فيه فهو جهالة . وقال السدى : كل مَن عصى الله فهو جاهل .

قالوا : ويدل على صحة هذا : أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبياً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ، ورؤيته له ، وعقابه

---

(١) النساء : ١٧

على الذنب ، وتحريمه له ، وسوء عاقبته ؟ فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم ، وغيبته عنه . فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم ، والذنب محفوف بجهلين : جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه ، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة ، فما عُصِىَ الله إلَّا بالجهل ، وما أُطِيعَ إلَّا بالعلم ، فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الطائفة .

*

* القول الآخر : « العلم لا يستلزم الهداية » :

« وقالت الطائفة الأُخرى : العلم لا يستلزم الهداية ، وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه ، بل يؤثر الضلال والكفر ، وهو عالِم بقبحه ومفسدته .

أدلة هذا الفريق :

« قالوا : وهذا شيخ الضلال ، وداعى الكفر ، وإمام الفَجَرة ، إبليس عدو الله ، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه ، فخالفه وعاند الأمر ، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم ، مع علمه بذلك ومعرفته به ، وأقسم له بعزَّته أنه يغوى خلقه أجمعين ، إلا عباده منهم المخلصين ، فكان غير شاك فى الله ، وفى وحدانيته ، وفى البعث الآخر ، وفى الجنَّة والنار ، ومع ذلك اختار الخلود فى النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنَّته ، عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (1) ، وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به ، وقد علم قَسَم ربه ليملأنَّ جهنم منه ومن أتباعه . فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل .

وقال تعالى إخباراً عن قوم ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا

---

(1) الحجر : ٣٦

الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ (١) ، يعنى بيَّنا لهم وعرَّفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه ، فكان كفر هؤلاء عن جهل .

وقال تعالى حاكياً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ (٢) ، أى هالكاً - على قراءة من فتح التاء وهى قراءة الجمهور ، وضمها الكسائى وحده . وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى ، وبها تقوم الدلالة ، ويتم الإلزام ، بتحقق كفر فرعون وعناده . ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) ، فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلماً منهم وعلواً لا جهلاً .

وقال تعالى لرسوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٤) ، يعنى أنهم قد عرفوا صدقك وأنك غير كاذب فيما تقول ، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسرون . قال قتادة : يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) ، يعنى تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق ، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء .

وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ

---

(١) فصلت : ١٧ (٢) الإسراء : ١٠٢ (٣) النمل : ١٣ ، ١٤
(٤) الأنعام : ٣٣ (٥) النمل : ١٤ (٦) آل عمران : ٧٠ ، ٧١

فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [1] ، أى علموا مَن أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [2] ، ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة ، وفى التوحيد كقوله فى الأنعام : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُل لَّا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [3] ، وفى الكتاب أنه منزّل من عند الله لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [5] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هم قريظة والنضير ومَن دان بدينهم « كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به ، وشهدوا له بالنبوة . وإنما كفروا بغياً وحسداً . قال الزجّاج : أعلم الله عزّ وجلّ أنه لا جهة لهدايتهم ؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم ، لأنهم كفروا بعد البيّنات . ومعنى « كيف يهديهم » : أى أنه لا يهديهم ، لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه ، وكفروا عمداً ، فمن أين تأتيهم الهداية ؟ فإن الذى تُرتجى هدايته مَن كان ضالاً ولا يدرى أنه ضال ، بل يظن أنه على هدى ، فإذا عرف الهدى اهتدى . وأما مَن عرف الحق وتيقنه ، وشهد به قلبه ، ثم اختار الكفر والضلال عليه ، فكيف يهدى الله مثل هذا ؟

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [6] ، ثم قال : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [7] . قال

---

(١) البقرة : ١٠٢ (٢) البقرة : ١٤٦ (٣) الأنعام : ١٩ ، ٢٠
(٤) الأنعام : ١١٤ (٥) آل عمران : ٨٦ (٦) البقرة : ٨٩
(٧) البقرة : ٩٠

ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتباهاً ، ولكن بغياً منهم حيث صارت النبوة فى ولد إسماعيل .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم ، دلَّ على أنهم نبذوه عن علم ، كفعل مَن لا يعلم . تقول إذا خاطبت مَن عصاك عمداً : كأنك لم تعلم ما فعلت ، أو كأنك لم تعلم بنهيى إياك .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ (٢) . قالوا : فهل بعد هذه الآية بيان ؟ فإن هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وآثر الضلال والغى ، وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أُوتى الاسم الأعظم ، ومع هذا فلم ينفعه علمه ، وكان من الغاوين ، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا .

وقال تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣) .....

قالوا : ويكفى فى هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ، ووردوا القيامة ، ورأوا ما أخبرت به الرُّسُل : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤) ، فأى علم أبين من علم مَن ورد القيامة ، ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ؟ ثم لو رُدَّ إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه ؟

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا

---

(١) البقرة : ١٠١
(٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦
(٣) العنكبوت : ٣٨
(٤) الأنعام : ٢٧ ، ٢٨

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١) ، فهل بعد نزول الملائكة عَياناً ، وتكليم الموتى لهم ، وشهادتهم للرسول بالصدق ، وحشر كل شيء فى الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ؟ ومع هذا فلا يؤمنون ، ولا ينقادون للحق ، ولا يصدقون الرسول !

ومَن نظر فى سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ، ومع اليهود ، علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ ، لا يشكون أنه صادق فى قوله إنه رسول الله ، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان . قال المسور بن مخرمة رضى الله عنه لأبى جهل وكان خاله : أىْ خال ؛ هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها ؟ قال أبو جهل لعنه الله تعالى : يا ابن أخى ؛ والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يُدْعى الأمين ، ما جربنا عليه كذباً قط ، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله ! قال : يا خال ؛ فلِمَ لا تتبعونه ؟ قال : يا ابن أخى ؛ تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسَىْ رهان ، قالوا : منا نبى ، فمتى نُدرك هذه ؟

وهذا أُمية بن أبى الصلت كان ينتظره يوماً بيوم ، وعلمه عنده قبل مبعثه ، وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معاً معروفة ، وإخباره برسول الله ﷺ ، ثم لما تيَّقنه وعرف صدقه قال : لا أُومن بنبى من غير ثقيف أبداً .

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ، ولم يشك فيه ، وآثر الضلال والكفر استبقاءً لملكه .

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البيِّنات فأخبرهم بها قَبَّلوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبى . قال : فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ قالوا : إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال فى ذُرِّيته نبى ، وإنَّا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود !

فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها ، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال .

* *

---

(١) الأنعام : ١١١

• أقسام الكفر :

« قالوا : وقد بيَّن القرآن أن الكفر أقسام :

أحدها : كفر صادر عن جهل وضلال ، وتقليد الأسلاف ، وهو كفر أكثر الأتباع والعوام .

والثاني : كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ، ككفر مَن تقدَّم ذكره ، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار ، أو رياسة سلطانية ، أو مَن له مأكل وأموال في قومه ، فيخاف هذا على رياسته ، وهذا على ماله ومأكله ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمداً .

الثالث : كفر إعراض محض ، لا ينظر فيما جاء به الرسول ، ولا يحبه ولا يبغضه ، ولا يواليه ولا يعاديه ، بل هو مُعْرِض عن متابعته ومعاداته .

وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ، ويجعلون الثاني والثالث كفراً لدلالته على الأول ، لا لأنه في ذاته كفر ، فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل !

ومَن تأمل القرآن والسُّنَّة وسير الأنبياء في أُممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم ، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن عامة كفر الأُمم عن تيقن وعلم ، ومعرفة بصدق أنبيائهم ، وصحة دعواهم وما جاؤا به . وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عُبَّاد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وهو يُجير ولا يُجار عليه ، وأنه هو الذى سخَّر الشمس والقمر ، وأنزل المطر ، وأخرج النبات . والقرآن مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله . فكيف يقال : إن القوم لم يكونوا مقرِّين قط بأن لهم رباً وخالقاً ، وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء ، وزعموا أنه ليس بكفر .

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمناً إلا بهما جميعاً : واجب المعرفة والعلم ، وواجب الحب والانقياد والاستسلام . فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام . بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً ، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلاً . فإن الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع . وأما المعاند فلا دواء فيه . قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

قالوا : فحب الله ورسوله ، بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما : لا يكون العبد مسلماً إلا به . ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل مَن عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعى فى أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لا شىء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل : الحاسد عدو للنعم والمكارم ! فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله ، وإنما حمله على ذلك فساد قصده وإرادته ، كما هى حال الرُّسُل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرُّسُل ووارثوهم رئاستهم الباطلة ، فعادوهم وصدُّوا النفوس عن متابعتهم ، ظناً أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها . وسُنَّة الله فى هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم فى عيون الخلق ، مقابلة لهم بنقيض قصدهم ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) آل عمران : ٨٦

(٢) فصلت : ٤٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

■ حكم ابن القيم بين الفريقين :

« فهذا موارد احتجاج الفريقين ، وموقف أقدام الطائفتين . فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لا تُعارَض ولا تُمانَع ، وجاء ببيِّنات لا تُرَد ولا تُدَافع ، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضى الطائفتين ، ويزول به الاختلاف من البين ؟ وإلا فخلِّ المطى وحاديهَا . وأعط القَوْس باريهَا :

دع الهـــوى لأناس يُعرفـــون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه !

ومَن عرف قدره ، وعرف لذى الفضل فضله ، فقد قرع باب التوفيق . والله الفتَّاح العليم . فنقول وبالله التوفيق :

كِلَا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وإنما الاختلاف والتباين بينهما من **عدم التوارد على محل واحد** ، ومن إطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها .

وبيان هذا : أن المقتضى قسمان :

مقتضٍ لا يتخلف عنه موجَبه ومقتضاه ، لقصوره فى نفسه ، بل يستلزمه استلزام العِلَّة التامة لمعلولها .

ومقتضٍ غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره فى نفسه عن التمام ، أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره .

فإن أريد بكون العلم مقتضياً للاهتداء : الاقتضاء التام الذى لا يتخلَّف عنه أثره ، بل يلزمه الاهتداء بالفعل ، فالصواب قول الطائفة الثانية ، وأنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب .

وإن أريد بكونه موجباً : أنه صالح للاهتداء مقتض له ، وقد يتخلَّف عنه

مقتضاه لقصوره ، أو فوات شرط ، أو قيام مانع ، فالصواب قول الطائفة الأولى .

* *

● موانع الاهتداء إلى الحق :

وتفصيل هذه الجملة : أن العلم بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلّف عنه عمله بمقتضاه ، لأسباب عديدة :

السبب الأول : ضعف معرفته بذلك .

السبب الثاني : عدم الأهلية . وقد تكون معرفته به تامة ، لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فإذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية ، كان كالأرض الصلدة التى لا يخالطها الماء ، فإنه يمتنع النبات منها ، لعدم أهليتها وقبولها . فإذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح ، لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر ، وبُذرَ فيها كل بذر كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ... وهذا فى القرآن كثير .

فإذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً ، لا يعمل فيه العلم شيئاً ، وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم .

السبب الثالث : قيام مانع ، وهو : إما حسد ، أو كِبْر . وذلك مانع

---

(١) يونس : ٩٦ ، ٩٧ (٢) الأنعام : ١١١ (٣) يونس : ١٠١

إبليس من الانقياد للأمر . وهو داء الأوَّلين والآخرين ، إلا مَن عصم الله . . وبه تخلَّف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ، ومَن جرى مجراهم . وهو الذى منع عبد الله بن أُبَىّ من الإيمان ، وبه تخلَّف الإيمان عن أبى جهل وسائر المشركين ، فإنهم لم يكونوا يرتابون فى صدقه ، وأن الحق معه ، لكن حملهم الكِبْر والحسد على الكفر ، وبه تخلَّف الإيمان عن أمية (ابن أبى الصلت) وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ .

السبب الرابع : مانع الرياسة والمُلْك ، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق ، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد ومُلكه ورياسته . فيضن بمُلكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار ، الذين علموا نبوته وصدقه ، وأقروا بها باطناً ، وأحبوا الدخول فى دينه ، لكن خافوا على مُلكهم . وهذا داء أرباب المُلك والولاية والرياسة ، وقَلَّ مَن نجا منه إلا مَن عصم الله ، وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (١) ، أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا لهما ، وبنو إسرائيل عبيد لهم . ولهذا قيل : إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره . فقال : بيّنا أنت إله تُعبَد ، تصير عَبداً تَعبُد غيرك ! فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال .

السبب الخامس : مانع الشهوة والمال ، وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الإيمان ، خوفاً من بطلان مأكلهم ، وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم ، وقد كانت كفار قريش يصدُّون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ، فيدخلون عليه منها . فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إن محمداً يُحرِّم الزنا ويُحرِّم الخمر ، وبه صدُّوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وقد فاوضتُ غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته ، فكان آخرَ ما كلمنى به أحدهم :

---

(١) المؤمنون : ٤٧

أنا لا أترك الخمر وأشربها آمناً ، فإذا أسلمتُ حِلْتم بينى وبينها ، وجلدتمونى على شربها ! وقال آخر منهم بعد أن عرف ما قلت له : لى أقارب أرباب أموال ، وإنى إن أسلمتُ لم يصل إلىَّ منها شيء ، وأنا أؤمل أن أرثهم ، أو كما قال .

ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعى الشهوة والمال ، وضعف داعى الإيمان ، فيجيب داعى الشهوة والمال ، ويقول : لا أرغب بنفسى عن آبائى وسَلَفى .

السبب السادس : محبة الأهل والأقارب والعشيرة ، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

السبب السابع : محبة الدار والوطن ، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغُرْبة والنوى ، فيضن بوطنه .

السبب الثامن : تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعناً منه على آبائه وأجداده ، وذماً لهم ، وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام . . . .

السبب التاسع : متابعة مَن يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه إلى الدخول فى دينه ، وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيراً من اتباع الهدى ، يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ، ولا يحب أرضاً يمشى عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته ، فيراه قد اتبع الحق ، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله ، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار ، فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى ﷺ ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه ، فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا ، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم .

السبب العاشر : مانع الألف والعادة والمنشأ ؛ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ، ولهذا قيل : هي طبيعة ثانية . فيربَّى الرجل على المقالة ، وينشأ عليها صغيراً ، فيتربى قلبه ونفسه عليها ، كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ، ولا يعقل نفسه إلا عليها ، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه ، وأن يسكن موضعها ، فيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال .

وهذا السبب ، وإن كان أضعف الأسباب معنى ، فهو أغلبها على الأُمم ، وأرباب المقالات والنِحَل ليس مع أكثرهم بل جميعهم - إلا ما عسى أن يشذ - إلا عادة ومَرْبىً تربى عليه طفلاً ، لا يعرف غيرها ، ولا يحسن به ، فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس ، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورُسُله خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ، كيف غيَّروا عوائد الأُمم الباطلة ، ونقلوهم إلى الإيمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية ، خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ، ولا يعلم مشقة هذا على النفوس ، إلا مَن زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحداً من العالمين » (١) .

❊ ❊ ❊

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/٨٨ - ٩٨

العلم سبيل اليقين

وكما أن العلم - كما يصوِّره القرآن - دليل الإيمان ، فهو كذلك سبيل اليقين ، وهو - كما قال الراغب - سكون الفهم مع ثبات الحكم . وهو من صفة العلم ، فوق المعرفة والدراية وأخواتها . يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين .

وهو يقابل الظن والشك . قال فى الصحاح : اليقين : العلم وزوال الشك . ولهذا قال تعالى فى خطاب المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (١) .

وفى شأن الذين زعموا قتل عيسى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾ (٢) .

واليقين بالله تعالى وآياته ولقائه هو ما يسعى إليه كل مؤمن ، ويحرص على تحقيقه ، ليجد فيه ثلج صدره ، وطمأنينة قلبه ، وسكينة نفسه ، وإنما يصل إلى هذه المرتبة بالعلم ورسوخه ، الذى يطرد الجهل والظن والشك .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الجاثية : ٣٢ (٢) النساء : ١٥٧ (٣) البقرة : ١١٨

(٤) الجاثية : ٤ (٥) الجاثية : ٢٠ (٦) الرعد : ٢

(٧) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

ومدح الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) .

كما مدح الله تعالى المتقين والمؤمنين والمحسنين بأنهم من أهل اليقين بالآخرة ، فقال تعالى فى مطلع سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وكذلك وصف المؤمنين فى مطلع سورة النمل ، والمحسنين فى مطلع سورة لقمان ، فكلهم : ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣).

وجعل القرآن اليقين مع الصبر ، جناحين يطير بهما الإنسان إلى مقام الإمامة فى الدين ، يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « بالصبر واليقين تُنال الإمامة فى الدين » .

ومن المعلوم أن الشيطان يحارب الإنسان المؤمن بجندين رئيسين : جند الشهوات ، وجند الشبهات . فهو بالشهوات يفسد سلوكه وعمله ، وبالشبهات يفسد اعتقاده وفكره . والمؤمن يقاوم هذا الغزو الشيطانى بسلاحين أساسيين : سلاح الصبر ليهزم به الشهوات ، وسلاح اليقين ليهزم به الشبهات .

وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر والثبات ، ونهاه أن يستخفه الذين لا يوقنون بالله ولا بالآخرة ، فيستعجل فيما تنبغى فيه الأناة ، أو يغضب حيث ينبغى الرضا ، أو يقتحم حيث ينبغى التثبت ، فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ٧٥ — (٢) البقرة : ٢ - ٥ — (٣) النمل : ٣ ، ولقمان : ٤

(٤) السجدة : ٢٤ — (٥) الروم : ٦٠

ومن علامات الساعة الكبرى التى تنبئ بأن الكون يوشك أن تنقض خيامه ، وينفرط نظامه : خروج دابة الأرض ، التى تخاطب الناس ، وتعلمهم بانعدام اليقين بآيات الله ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

قال ابن القيم : « واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضل العارفون ، وفيه تنافس المتنافسون ، وإليه شمر العاملون ، وعمل القوم إنما كان عليه ، وإشاراتهم كلها إليه . . . وهو روح أعمال القلوب ، التى هى أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصِّدِّيقية ، وهو قطب هذا الشأن الذى عليه مداره » (٢) .

قال ابن القيم : « لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يُثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب ، وبه طمأنينته ، وقوته ، ونشاطه وسائر لوازم الحياة ، ولهذا مدح الله سبحانه أهله فى كتابه وأثنى عليهم بقوله : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) ، وقوله فى حق خليله إبراهيم : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِىَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٤) . وذمَّ مَن لا يقين عنده فقال : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) . وفى الحديث المرفوع من حديث سفيان الثورى عن سليمان التيمى عن خيثمة عن عبد الله ابن مسعود يرفعه : « لا تَرضينَّ أحداً بسخط الله ، ولا تَحْمَدنَّ أحداً على فضله ، ولا تَذُمّنَّ أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وإن الله - بعدله وقسطه - جعل

---

(١) النمل : ٨٢

(٢) مدارج السالكين : ٢/٣٩٧ - طبعة السُّنَّة المحمدية - مصر .

(٣) البقرة : ٤ (٤) الأنعام : ٧٥ (٥) النمل : ٨٢

الرَّوْح والراحة والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط ، فإذا باشر القلب اليقين امتلأ نوراً ، وانتفى عنه كل ريب وشك ، وعوفى من أمراضه القاتلة ، وامتلأ شكراً لله ، وذكراً له ، ومحبة وخوفاً ، فحييَ عن بيِّنة .

واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما ينبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتهما قوتها . وجميع منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدىً مستقيم .

قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم ، الذى لا ينقلب ولا يتحول ، ولا يتغير فى القلب .

وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله .

وقيل : من علاماته : الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون .

وقال السرى : اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك ، لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً .

قلت : هذا إذا لم تكن الحركة مأموراً بها ، فإذا كانت مأموراً بها ، فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة . فالعلم أول درجات اليقين . ولهذا قيل : العلم يستعملك واليقين يحملك .

فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين .

قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَن يُؤْمِن

بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (1) . قال ابن مسعود : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله ، فيرضى ويسلّم . فلهذا لم يحصل له هداية القلب ، والرضا والتسليم ، إلا بيقينه » (2) .

* *

● درجات اليقين :

واليقين - كما ذكره القرآن - درجات ثلاث :

أُولاها : علم اليقين . وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (3) .

وثانيتها : عَيْن اليقين ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (4) .

وثالثتها - وهى الأعلى والأخيرة : حق اليقين . وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (5) .

وقال عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (6) .

* درجة علم اليقين :

فأما « علم اليقين » فهو العلم الراسخ الجازم ، الذى لا يخالج القلب فيه شبهة ، ولا شك ، ولا تناسٍ ولا غفلة عنه . فكل عقيدة تواردت عليها الأدلة ، وتكاثرت الآيات البيِّنات على صدقها وصحتها ، حتى صدَّق بها العقل ، واطمأن بها القلب ، وسكنت إليها النفس ، وانتفت عنها كل الظنون والشكوك والشبهات ، فهذا العلم أو هذا الإيمان بها ، أو هذا العلم

---

(1) التغابن : 11
(2) مفتاح دار السعادة : 1/ 154 ، 155
(3) التكاثر : 5
(4) التكاثر : 6 ، 7
(5) الواقعة : 95
(6) الحاقة : 51

المؤمن أو الإيمان العالِم ، هو علم اليقين ، الذى مدح الله به عباده المتقين فى كتابه ، وإن كانت مراتبه تتفاوت ، وهو يزداد ويقوى بالأسباب والبراهين والطاعات ، التى تزيده قوة على قوة . كما قال أحد السَّلَف - وهو عامر ابن عبد قيس - : لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً !

وقال بعضهم : رأيتُ الجنَّة والنار حقيقة . قيل له : وكيف ؟ قال : رأيتهما بعينى رسول الله ﷺ . ورؤيتى لهما بعينيه آثر عندى من رؤيتى لهما بعينىّ ، فإن بصرى قد يطغى ويزيغ ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم [(١)] .

*

* درجة عَيْن اليقين :

وأما درجة « عَيْن اليقين » فهى أعلى وأرفع . والفرق بينها وبين « علم اليقين » كالفرق بين المعاينة والخبر الصادق . والشاعر يقول :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما   قد حدَّثوك ؟ فما راءٍ كمن سمعا !

وفى الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة » [(٢)] .

وهى الدرجة التى طلبها خليل الله إبراهيم عليه السلام من ربه ، حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [(٣)] .

وهى التى رقى الله عزَّ وجلَّ إليها خاتم رسله ، وصفوة خلقه محمداً ﷺ ، ليلة الإسراء والمعراج ، ليرى من آيات ربه الكبرى ، ويشاهد من عوالِم

---

(١) انظر : مدارج السالكين : ٢/ ٤٠٠

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط والحاكم عن ابن عباس ، والطبرانى فى الأوسط عن أنس ، والخطيب عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥٣٧٤) ، (٥٣٧٣) .

(٣) البقرة : ٢٦٠

الغيب عَياناً ما لم يشهده غيره ، ورأى جبريل على صورته المَلَكية الحقيقية ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (١) .

*

* درجة حق اليقين :

وأما « حق اليقين » فهى درجة فوق « علم اليقين » ، و« عَيْن اليقين » .

فإذا كان « علم اليقين » للخبر الصادق ، و« عَيْن اليقين » للمشاهدة والعيان ، فإن « حق اليقين » أشبه باللَّمس والذَّوْق .

وقد مثَّلوا المراتب الثلاث بمن أخبرك أن عنده عسلاً طبيعياً مصفىً حلو المذاق ، صفته كذا وكذا . وأنت لا تشك فى صدقه .. ثم أراك إياه ، فازددتَ يقيناً ، ثم قدَّمه إليك فذقته وأكلت منه .

فالأول : « علم اليقين » . والثانى : « عَيْن اليقين » . والثالث : « حق اليقين » .

قال ابن القيم : « فعلمنا بالجنَّة والنار : علم يقين ، فإذا أُزلفت الجنَّة - فى الموقف - للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وعاينها الخلائق ، فذلك عَيْن اليقين . فإذا أُدخل أهل الجنَّة الجنَّة ، وأهل النار النار ، فذلك حق اليقين » (٢) .

* * *

(١) النجم : ١١ - ١٨

(٢) مدارج السالكين : ٢/ ٤٠٣

العلم شرط فى كل منصب قيادى

ومن فضل العلم الذى أشار إليه القرآن : أنه اعتبر « العلم » مؤهلاً لا بد منه ، لكل منصب قيادى فى المجتمع ، فلا يجوز أن يقود الأمة جُهَّالها ، إنما يقودها علماؤها . والأمة التى توسد مناصبها القيادية إلى الجهلة إنما تحفر رمسها بخمسها ، لأنهم لا يسوقونها إلا إلى الضلال والوبال . وقد قال الشاعر :

إذا كان الغراب دليل قوم   سيهديهم إلى جيف الكلاب !

قالوا : إن بشار بن برد الشاعر المعروف - وقد كان مكفوف البصر - سأله أحد المبصرين يوماً عن طريق أو مكان ، فقال : تعال أدلك عليه ، ثم أنشأ يقول ساخراً :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمو !   قد ضلَّ من كانت العميان تهديه !

لهذا نجد القرآن يذكر العلم مرشحاً لمنصب الخلافة فى الأرض فى قصة آدم ، كما ذكرنا من قبل : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (١) .... الآيات .

ووجدنا فى قصة طالوت كيف كان العلم أحد مؤهلاته الأساسية للقيادة العسكرية ، نقرأ ذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ .... إلى أن قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ، قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢) .

فهؤلاء القوم من بنى إسرائيل هم الذين قالوا لنبيهم : ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ ، أى هم الذين طلبوا ذلك ورغبوا فيه ، فلما حقق الله لهم

---

(١) البقرة : ٣١ وما بعدها .

(٢) البقرة : ٢٤٦ - ٢٤٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما طلبوا وعيَّن لهم نبيهم الملك المنشود بوحى من الله ، ظهرت طبيعتهم النكدة المعاندة ، وقالوا معترضين : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ ، لأننا نملك المال الكثير وهو لم يُؤت إلا القليل ؟ كأن المناصب الكبيرة فى الأُمة لمن يملك الدرهم والدينار ، لا لمن يملك البصيرة والاعتبار ، وكأن الفقراء يجب أن يُحرموا من كل مزية ، ولو كانوا من ذَوى المواهب والمَلَكات !

وهنا كان رد نبيهم : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ . و« العلم » هنا يدخل فيه - بصفة أوَّلية - العلم بالشؤون العسكرية التى تتطلبها إدارة المعارك ، كما أن « البسطة فى الجسم » مطلوبة هنا أيضاً ، حتى يكون فى مقدمة رجاله وجنوده ، تحملاً لأعباء الحرب ، وصبراً على لأوائها ، ويكون منظره نفسه مهيباً ومرهباً لأعدائه .

ذكر البقاعى فى تفسير : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ ﴾ : « أى الذى تحصل به المكنة فى التدبير والنفاذ فى كل أمر ، وهو يدل على اشتراط العلم فى الملك وفى تقديم العلم على الجسم دليل على أن الفضائل النفسانية أشرف من الجسمانية وغيرها » (١) .

ووجدنا فى قصة يوسف الصِّدِّيق عليه السلام كيف جعل العلم أحد وصفين رئيسين يؤهلانه للمنصب الذى طلبه من الملك ، بعد أن ظهرت براءته ، وعلت درجته ، وظهر علمه فى تأويل رؤيا الملك بما لم يكن فى الحسبان : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

فحين أفصح الملك عن منزلة يوسف لديه ، وأنه ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ رأى يوسف أن واجبه أن يتولى مسؤولية إدارة الأزمة التى أشار إليها فى تعبير الحلم

---

(١) نظم الدرر ، للبقاعى : ٤١٨/٣ (٢) يوسف : ٥٤ ، ٥٥

الملكى : أزمة المجاعة التى تطوِّق البلاد ، والسنين الخصبة والسنين العجاف . وليس هناك أولى منه بتولى أمرها ، وقيادة سفينتها .

وفى هذا دليل على جواز طلب المنصب إذا تعين الطالب للقيام به ، لأن الفرار منه فى ذلك الحين فرار من المعركة ، وهرب من الواجب الذى لا يؤديه غيره .

لهذا قال يوسف : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ . وخزائن الأرض فى ذلك الوقت تشمل ما يتعلق بالمالية والاقتصاد والزراعة والتموين والتخطيط .

وعبارة : ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ تعنى صفتين لا غِنَى عنهما فى أى منصب : فالحفظ يعنى « الأمانة » التى بها تُحفظ الحقوق والأموال وتُصان ولا تُنهب ولا تُسرق ، ولا تعرض للضياع .

والعلم يعنى « الخبرة » والكفاية فيما يُسند إليه ، بحيث يستطيع أن يعرف مداخل الأمر ومخارجه ، ولا يكون مجرد أداة فى يد غيره من العارفين والخبراء .

وهاتان الصفتان اللّتان ذكرهما يوسف عليه السلام هنا ، شبيهتان بالصفتين اللّتين ذكرتهما بعد ذلك ابنة الشيخ الكبير من أهل مَدْيَن فى قصة موسى عليه السلام ، بعد أن سقى لها ولأختها غنمهما ، وأرسلها أبوها فى طلبه ، فقالت إحداهما : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَئْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَئْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ ﴾ (١) .

فصفة « القوى » هنا مقابل صفة « العليم » فى قول يوسف ، وصفة « الأمين » مقابل صفة « الحفيظ » فى قوله عليه السلام .

ولا بد من الصفتين معاً ، كما وضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » .

* * *

(١) القصص : ٢٦

ذم كل أمر قام على غير علم

ومن فضل العلم فى القرآن : أنه أنكر أبلغ الإنكار ، وذمَّ أشد الذم : كل أمر من قول أو عمل ، قام على غير علم .

● **الجدال بغير علم :**

من ذلك : الجدال بغير علم ، وخصوصاً فى شأن العقيدة فى الله . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (١) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢) .

ويبدو من السياق هنا : أن العلم فى الآية هو العلم العقلى بدليل عطف الهدى والكتاب المنير عليه . والعطف يقتضى المغايرة ، فليس عند هؤلاء المجادلين فى الله علم من عقل ، ولا دليل من نقل .

ونظير هذا قوله تعالى فى محاجة اليهود والنصارى فى شأن إبراهيم عليه السلام ، وادعاء اليهود أنه كان يهودياً ، والنصارى أنه كان نصرانياً : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) الحج : ٣ — (٢) الحج : ٨ ، ولقمان : ٢٠

(٣) آل عمران : ٦٥ - ٦٧

● الخوض فى الأعراض بغير علم :

ومن ذلك : الخوض فى أعراض الناس بغير علم ، وإطلاق الألسنة كأنها أنياب أو مخالب تنهش فى حرمات المؤمنين والمؤمنات بغير بيِّنة ، كما وقع فى حديث الإفك ، وتناول عِرض أم المؤمنين ، الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضى الله عنها ، ورجل فاضل من أصحاب النبى ﷺ ، من ألسنة السوء . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● دعوى الجبرية بغير علم :

ومن ذلك : دعوى « الجبرية » ومضمونها أنَّ ما هم فيه من شرك وضلال ليس من سوء اختيارهم وصنيع أيديهم ، بل هو مما شاء الله لهم ، يعنون المشيئة الملجئة المجبرة ، التى لا تدع لهم حرية الإرادة ، ولا قابلية الاختيار . وفى هذا يقول القرآن عن الأصنام والآلهة المزعومة لهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى يقول تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) النور : ١٤ ، ١٥ (٢) الزخرف : ٢٠ (٣) الأنعام : ١٤٨

● دعوى التحريم والتحليل بغير علم :

ومن ذلك : دعوى التحريم والتحليل بغير علم ولا سلطان من الله تعالى ، الذى له وحده حق التحليل والتحريم الدينى لعباده ، فليس من شأن بَشَر أن يُحرِّم أو يُحلِّل ما شاء له هواه ، تحريماً وتحليلاً له الديمومة والصفة الدينية المطلقة . يقول تعالى معقباً على ما حَرَّم المشركون من الضأن والمعز : ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) . ثم يناقشهم هذه المناقشة نفسها فى شأن الإبل والبقر ، ثم يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى عن ضلال العرب فى الجاهلية ، وكيف أحلُّوا الحرام المحض ، وحرَّموا الحلال الصرْف ، سفهاً بغير علم ، وافتراءً على الله بغير حق : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ ، قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

وقد بيَّن القرآن قبل ذلك كيف زيَّن لهم شياطينهم قتل أولادهم وفلذات أكبادهم . فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ (٤) .

وهذا كله منشؤه اتباع الهوى ، وترك العلم . ولهذا قال تعالى فى هذه السورة نفسها . سورة الأنعام : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥) .

وهذا الإضلال لغيرهم إنما يتم بعد أن ضلُّوا فى أنفسهم بغير علم أيضاً ،

---

(١) الأنعام : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٤٤ (٣) الأنعام : ١٤٠
(٤) الأنعام : ١٣٧ (٥) الأنعام : ١١٩

كما قال تعالى فى سورة أُخرى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾ (١) .

❊ ❊

● الشرك ضلال بغير علم :

وما ذكرناه عن التحريم والتحليل بغير إذن من الله ، إنما هو فرع من أصل كبير هو الشرك بالله تعالى ، الذى هو جرثومة كل شر ، وأصل كل انحراف وفساد فى الفكر أو فى السلوك . وهذا الشرك إنما هو – فى حقيقته – قول أو اعتقاد بغير علم . كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٣) .

وقد بيَّن القرآن فى مواضع شتَّى أن الشرك لا يقوم على أى أساس من علم أو سلطان ، ويعنى بالسلطان : الحُجَّة والبرهان . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (٥) .

وقال على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى

---

(١) الروم : ٢٩ (٢) الحج : ٧١ (٣) الأنعام : ١٠٠
(٤) الأعراف : ٣٣ (٥) لقمان : ١٥

النَّجَاة وَتَدْعُونَنى إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنى لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وقال فى شأن المشركين والنصارى الذين قالوا : اتخذ الله ولداً - المشركون جعلوا الملائكة بنات الله سبحانه ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود قالوا : عُزَير ابن الله - فقال تبارك وتعالى فى شأن الجميع : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (٣) .

* *

● الإضلال عن سبيل الله بغير علم :

ومن ذلك : الإضلال عن سبيل الله بغير علم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ، أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٤) .

ولقد بيَّن القرآن أن هؤلاء المُضلِّين يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، كما يحملون جزءاً من أوزار الذين ضلّوا بسببهم . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٥) .

* *

---

(١) غافر : ٤١ ، ٤٢ (٢) المؤمنون : ١١٧ (٣) الكهف : ٤ ، ٥

(٤) لقمان : ٦ (٥) النحل : ٢٤ ، ٢٥

● ذم الجهالة والجاهلين :

وإذا كان القرآن قد نوَّه أبلغ التنويه بالعلم والعلماء ، فإنه فى المقابل قد ذمَّ أبلغ الذم الجهالة والجاهلين .

* ذم الجاهلية :

ومن ذلك : ذم القرآن للجاهلية ، فاشتقاقها من هذه المادة « ج هـ ل » وقد ذمَّها القرآن الكريم فى أربعة مواضع :

ذم جاهلية العقيدة فى قوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١) .

وذم جاهلية السلوك فى مجال الأُسرة فى قوله : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ (٢) .

وذم جاهلية الأخلاق فى مجال المجتمع فى قوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (٣) .

وذم جاهلية الحكم والسياسة فى قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

*

* الإعراض عن الجاهلين :

ومن توجيهات القرآن المتكررة : الإعراض عن الجاهلين ، والترفع عن مقابلة جهلهم بمثله ، فهم أهون من أن يضيع العقلاء الوقت والجهد معهم .

---

(١) آل عمران : ١٥٤
(٢) الأحزاب : ٣٣
(٣) الفتح : ٢٦
(٤) المائدة : ٥٠

يقول تعالى لرسوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

وقال عَزَّ وجَلَّ فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاماً ﴾ (٢) .

وقال فى وصف بعض عباده المؤمنين من أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

* *

● من مظاهر الجهل فى القرآن :

والجهل الذى ذمَّه القرآن له مظاهر شتَّى :

* الهزل فى موضع الجد :

منها : الهزل فى موضع الجد .

وهذا ما نلمسه فى قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام مع قومه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ، قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤) .

فقد اتهمه بنو إسرائيل بأنه يمزح ويهزل ، وهو يتحدث عن الله تعالى وعن أمره لهم ، بهذه الصيغة المؤكدة : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ ، فكان رد موسى رداً حاسماً يدل على أن مثل هذا لا يصدر إلا عن جاهل لا يعرف مقام ربه ، ولا يقدِّره حق قدره . وهو يعوذ بالله أن يكون كذلك .

*

---

(١) الأعراف : ١٩٩ — (٢) الفرقان : ٦٣

(٣) القصص : ٥٥ — (٤) البقرة : ٦٧

* تغليب العاطفة على العقل :

ومنها : تغليب العاطفة على مقتضى العقل والحكمة .

وهذا ما نجده فى طلب نوح عليه السلام الشفاعة فى ابنه الذى كفر به وخالفه ، وأوى إلى جبل ظن أنه يعصمه من الماء ، فلم يعصمه شىء من أمر الله ، وابتلعه الموج وكان من المغرقين . غلبت عاطفة الأُبوة على نوح ، وما كان ينبغى لها أن تغلب ، فكان ما حكاه القرآن : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وهكذا كان الرد الإلهى على شيخ الأنبياء شديداً ، فلم يسامحه ربه فى هذا الطلب ، وبيَّن له أن نسب العقيدة فوق نسب الدم ، وأن هذا الولد الكافر العاق ليس من أهله وإن كان من صلبه ، وقال له بصريح العبارة : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

*

* الجمود على الأفكار الضالة والسلوك المنحرف :

ومن أبرز مظاهر الجهل : الجمود على العقائد الباطلة ، والأفكار الضالة ، والسلوك المنحرف ، وسد الآذان عن سماع دعوة الحق التى يجىء بها رُسُل الله .

نقرأ فى قصة نوح عليه السلام حين طلبوا إليه أن يطرد الفقراء من أتباعه ، الذين يستنكفون أن يكونوا مثلهم فى المنزلة : رد نوح عليهم بقوله :

---

(١) هود : ٤٥ - ٤٧

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، إِنَّهُم مُّلاقُواْ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ [(1)] ، وإنما تتمثل جهالتهم فى النظر إلى الناس من خلال ما يملكون من مال ، لا ما يملكون من قيم وأخلاق !

ونقرأ فى قصة لوط مع قومه الذين شذوا عن الفطرة ، وأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق لهم ربهم من الأزواج قوله فى الإنكار عليهم : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [(2)] ، وأى جهالة أكبر من هذه الجهالة التى جعلت هؤلاء يدعون الطهارة ، ويغرقون فى القذارة ، ويتهكمون بلوط ومن معه : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [(3)] .

ونقرأ فى قصة هود مع قومه حين قالوا له : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ [(4)] .

وإنما جهالتهم فى استعجالهم عذاب الله الذى توعَّدهم رسولهم به ، وكان أولى بهم أن ينظروا فى رسالته بتأمل وإنصاف ، وقد بيَّن أنه لهم ناصح أمين ، وأنه لا يبغى منهم مالاً ولا أجراً ، إن أجره إلا على الله .

وفى قصة موسى عليه السلام لم يكد ينجو هو وقومه من فرعون وملئه وجنوده ، حتى سأله قومه من بنى إسرائيل سؤالاً غريباً ، لا يدل على شىء إلا على استحكام الجهل لدى سائله ، يقول تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُواْ يَا مُوسَى

---

(1) هود : ٢٩

(2) النمل : ٥٥

(3) النمل : ٥٦

(4) الأحقاف : ٢٢ ، ٢٣

اجْعَل لَّنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وأى جهل أعظم من نسيان فضل الله عليهم ، الذى أنجاهم من جبروت فرعون ، وسؤالهم أن يجعل لهم إلهاً أو صنماً غير الله تعالى يعبدونه ، كما يفعل أُولئك القوم الوثنيون ؟؟ وأقدامهم لم تكد تجف من البحر الذى خرجوا منه .

وفى حديث القرآن عن المشركين الذين بُعث إليهم محمد ﷺ ، وتعنتهم فى طلب الخوارق ، وعجائب الآيات ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (٢) .

* *

● معصية الله من دلائل الجهل ولوازمه :

ومما أرشد إليه القرآن : أن معصية الله تعالى من دلائل الجهل ولوازمه التى لا تنفك عنه ، ولا ينفك عنها ، فكل مَن عصى الله تعالى بمخالفة أمره ، أو ارتكاب نهيه ، فهو لا محالة جاهل : جَهِلَ مقام ربه ، وجَهِلَ قيمة نفسه ، وجَهِلَ أمر آخرته ، وآثر اللّذة العاجلة على المثوبة الآجلة ، وقدَّم حظ النفس على حق الرب ، وغلَّب باعث الهوى على باعث الدين والحق . ولا يقدم على هذا إلا جاهل غبى ، لا عالم ذكى .

من أجل هذا لازم القرآن بين عمل السوء والجهالة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩ (٢) الأنعام : ١١١ (٣) النساء : ١٧

وقال سبحانه : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه .

وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ : أن كل شىء عُصِىَ الله فيه فهو جهالة .

وقال السدّى : كل مَن عصى الله فهو جاهل .

وقال سفيان الثورى : كل مَن عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل ، كان جاهلاً أو عالماً . إن كان عالماً فمَن أجهل منه ؟ وإن كان جاهلاً فمثل ذلك .

وقد نقلنا عن ابن القيم قوله : « ويدل على صحة هذا : أنه مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبياً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ، ورؤيته له ، وعقابه على الذنب ، وتحريمه له ، وسوء عاقبته ؟ ! فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه . فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم . والذنب محفوف بجهلين : جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه . وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة . فما عُصِىَ الله إلا بالجهل ، وما أُطيع إلا بالعلم » (٣) .

* *

---

(١) الأنعام : ٥٤ (٢) النحل : ١١٩

(٣) مفتاح دار السعادة : ١/ ٩٠

● الجهل المركَّب :

وشر أنواع الجهل هو : الجهل المركَّب ، وهو الذى يجهل صاحبه أنه يجهل ، لأنه لا يسعى إلى التعلم ، وهو يعتقد فى نفسه أنه عالِم .

ولهذا سُئل بعض العارفين : ما شر ما يُصاب به الإنسان ؟ فقال : الجهل بالله تعالى . فقيل له : وهل هناك شر من هذا ؟ قال : نعم ، الجهل بالجهل !

وفى هذا يقول الشاعر :

إذا كنت لا تدرى بأنك جاهـــل فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى ؟!

ويقول الخليل بن أحمد : « الناس أربعة : رجل يدرى ، ويدرى أنه يدرى ، فهذا عالِم فاتبعوه .

ورجل يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ، فهذا نائم فأيقظوه .

ورجل لا يدرى ، ويدرى أنه لا يدرى ، فهذا جاهل فعلِّموه . .

ورجل لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى ، فهذا ضال فارفضوه » .

وقد وصف القرآن المنافقين بهذا النوع من الجهل ، حين قال فى شأنهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

كما وصف القرآن بعض أصناف الكفار بهذا الجهل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ١١ - ١٣ (٢) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ (١) .

ومن أجل ذلك كان المبتدع شراً من العاصى ، وكانت البدعة شراً من المعصية ؛ لأن العاصى يعلم أنه عاص لربه ، مخالف لأمره ، فيُرجى أن يتوب . أما المبتدع فهو يتقرَّب إلى الله ببدعته ، فكيف يُرجى أن يتوب منها ؟ وهذا هو الخطر .

* * *

---

(١) فاطر : ٨

العلم المذموم فى القرآن

• العلم الذى يضر ولا ينفع « السحر » :

العلم المذموم فى القرآن يأخذ عدة صور ، أولاها : العلم الضار .

فقد وجَّه القرآن « الطاقة العقلية » لدى الإنسان إلى تحصيل العلوم النافعة ، والمعارف المفيدة له وللمجتمع من حوله ، وحفزه على طلب العلم النافع بأعظم الحوافز المرغِّبة والمرهِّبة والباعثة .

ولم يقبل أن تُوَجَّه هذه الطاقة إلى العلوم التى لا تجنى من ورائها ثمرة للفرد ولا للأمة . وذلك مثل « علم السحر » .

بل بيَّن القرآن : أن تعلم هذا العلم يضر ولا ينفع ، فشأنه أن يُستخدم فى الإفساد وتقطيع الروابط بين الناس ، كالتفريق بين المرء وزوجه ، وهو مما يبغضه الله تعالى ، ويحبه الشيطان ، ولهذا كان من كبائر الإثم .

عرض القرآن لهذه القضية فى قصة هاروت وماروت فى سورة البقرة ، فقال تعالى فى شأن اليهود وما ارتكبوه من ألوان الانحراف والفساد :

﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ١٠٢

ولقد اختلف علماء المسلمين فى حقيقة السحر ما هى : أهو أمر حقيقى مؤثر فى الواقع ؟ أم هو مجرد إيهام وتخييل وسحر للأعين فحسب ؟

ذهب المعتزلة إلى الثانى ، مستدلّين بما جاء فى القرآن فى قصة موسى وسَحَرة فرعون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ، فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (٢) .

وذهب أهل السُّنَّة إلى الرأى الأول ، وأن للسحر حقيقة ، وأن له تأثيراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (٤)

ولهذا أيضاً أُمرنا بالاستعاذة من شر السَحَرة الذين ينفثون فى العُقَد ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . . . . . ﴾ (٥) .

وأيّاً كانت ماهية السحر وحقيقته ، فهو علم يضر ولا ينفع ، ولا يجوز للمسلم تضييع وقته وجهده فى تعلمه . فما أحوج هذا الجهد وهذا الوقت أن يُنفقا فى تحصيل ما ينفع من العلم .

* *

● التنجيم شُعْبة من السحر :

وقد ورد فى الحديث النبوى اعتبار « التنجيم » شُعْبة من السحر ، وهو الذى يقوم على التنبؤ بالغيب بواسطة النجوم ، وادعاء قراءة المستقبل من خلالها .

---

(١) الأعراف : ١١٦ (٢) طه : ٦٦ (٣) البقرة : ١٠٢

(٤) البقرة : ١٠٢ (٥) الفلق : ١ - ٤

فقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « مَن اقتبس علماً من النجوم اقتبس شُعْبة من السحر ، زاد ما زاد » [1] .

قال الإمام الخطابى فى « معالم السُنن » : « علم النجوم المنهى عنه هو : ما يدَّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع ، وستقع فى مستقبل الزمان ، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح ، ومجىء المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغير الأسعار ، وما كان فى معانيها من الأُمور ، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها ، وباجتماعها واقترانها ، ويدَّعون لها تأثيراً فى السُّفْليات ، وأنها تتصرف على أحكامها ، وتجرى على قضايا موجباتها .

وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به . لا يعلم الغيب أحد سواه .

فأما علم النجوم الذى يُدرك من طريق المشاهدة والحس ، كالذى يُعرف به الزوال ، ويُعلم به جهة القِبْلة . فإنه غير داخل فيما نهى عنه .

وذلك : أن معرفة رَصْد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعدُ صاعدةٌ نحو وسط السماء من الأُفق الشرقى . وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأُفق الغربى .

وهذا علم يصح دَرْكه من جهة المشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده .

وأما ما يُستدل به من جهة النجوم على جهة القِبْلة : فإنما هى كواكب

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسند ابن عباس برقم (٢٠٠٠) وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وأبو داود فى الطب (٣٩٠٥) ، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) ، وصحَّحه النووى فى « رياض الصالحين » ، والذهبى فى « الكبائر » . انظر : « فيض القدير » (٦/ ٨٠).

أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها . مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ، ويشاهدوها فى حال الغيبة عنها فكان إدراكهم : الدلالة عنها بالمعاينة . وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم ، إذ كانوا غير متهمين فى دينهم ولا مقصرين فى معرفتهم » (١) .

ولا يدخل فى علم « التنجيم » هذا : ما يُذاع فى نشرات الأخبار من هيئات الأرصاد الجوية فى الأقطار المختلفة ، من توقع حركة الرياح ، ونزول الأمطار أو عدمها ، ودرجات الحرارة والبرودة ، ونحو ذلك ، لأن هذا ليس من التنبؤ بالغيب المطلق ، الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، بل هو مبنى على مشاهدات وتجارب معروفة ، مبنية على سنن الله فى الكون ، وشبكه الأسباب والمسببات . وينبغى أن يكون ذلك على سبيل التوقع ، لا على سبيل الجزم والقطع ، فقد يُحْدث الله تعالى ما ليس فى الحسبان . ولهذا يختم كثير من المؤمنين من مقدمى نشرات الأخبار الجوية حديثهم بقولهم : هذا والعلم عند الله تعالى .

فهذا ليس من عمل المنجمين الذين قيل فيهم : « كذب المنجمون ولو صدقوا » !

وكذلك ليس من علم التنجيم ولا من عمل المنجمين : ما يتعلق بـ « علم الفلك » الذى كان للمسلمين فيه يد طولى ، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ، والذى استبحر فى عصرنا ، ووصل إلى غاية من الدقة حتى سمعت من بعض علمائه : أن احتمال الخطأ فيه ١ : ١٠٠٫٠٠٠ (واحد إلى مائة ألف) من الثانية ، وعلى أساسه وصل الإنسان إلى القمر ، وغزا الكواكب .

---

(١) انظر : معالم السنن للخطابى ، مع مختصر المنذرى وتهذيب ابن القيم - فى شرح الحديث (٣٧٥٤) : ٥/ ٣٧١ ، ٣٧٢ - طبعة المكتبة الأثرية بباكستان ، المصوَّرة عن طبعة السُّنَّة المحمدية بالقاهرة .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا العلم فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

أعتقد أن القوم « الذين يعلمون » هنا ، والذين فصَّل الله لهم الآيات : هم الذين يعلمون علم الفلك .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٣) .

* *

● العلم الذى يكتمه صاحبه عن أهله :

وهناك صور أخرى للعلم الذى ذمَّه القرآن ، وذمَّ أهله . منها :

صورة العلم الذى يكتمه صاحبه عن أهله ، كما قال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٤) . .

وقال سبحانه فى شأن اليهود : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) يونس : ٥ (٢) الأنعام : ٩٧ (٣) الإسراء : ١٢

(٤) آل عمران : ١٨٧ (٥) البقرة : ١٤٦

وقال عزّ وجلّ : ﴿ إنَّ الَّذينَ يكتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا منَ الْبَيِّنَات وَالْهُدَى من بَعْد مَا بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ فِى الْكتَاب أُولَئكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنُونَ * إلا الَّذينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

* *

● العلم الذى لا يعمل به صاحبه :

صورة العلم الذى لا يعمل به صاحبه ، ولا يؤثر فى توجهه وسلوكه ، بل يعمل بعكسه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذى آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا وَلَكنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْب إِن تَحْملْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ، ذَّلكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

فانظر كيف صوّر القرآن هذا النموذج ، الذى يؤتَى آيات الله ، فينسلخ منها ، هكذا كما ينسلخ الحيوان من جلده ، فيبقى مكشوفاً ، أو كما ينسلخ الإنسان من ثوبه ، فيصبح عارياً مفضوحاً ، وكان يمكن أن ترتفع به آيات الله التى عنده وأن ترقى به ويرقى بها إلى القمة ، ولكنه هبط إلى أسفل ، إلى الطين ، وأخلد إلى الأرض ، واتبع داعية الهوى لا داعية الدين والحكمة .

* *

● العلم المادى الذى يعارض علم النبوة :

صورة العلم المادى الذى يغتر به صاحبه ، ويحجبه عن الإيمان بالوحى ، واتباع الرُّسُل ، فيهلك مع الهالكين .

---

(١) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠ (٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وفى هذا جاء قول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) .

ففرح هؤلاء بما عندهم من العلم المادى أعماهم عن علم النبوة وأنوار الوحى ، واستهزأوا به ، فحاق بهم عاقبة استهزائهم .

* *

● العلم بظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة :

صورة العلم الذى يشغل صاحبه بظاهر الحياة الدنيا ، وينسيه الدار الآخرة ، وهذا العلم اعتبره القرآن كلا علم ، أى اعتبره جهلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) .

فانظر - يارعاك الله - كيف وصفهم بأنهم لا يعلمون . ثم أثبت لهم أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، مع الغفلة التامة عن الآخرة ، ليدلنا أن هذا العلم والعدم سواء .

* *

● العلم الذى يغر صاحبه بالثروة أو السُلْطة :

ومن ذلك : العلم الذى يغر صاحبه بما أوتى من مال وثروة ، وينسى فضل الله عليه ، الذى رزقه هذا المال ، وسخَّره لمنفعته .

وذلك مثل قارون الذى آتاه الله من الكنوز ما آتاه ، ونصحه قومه جملة

---

(١) غافر : ٨٢ ، ٨٣ (٢) الروم : ٦ ، ٧

نصائح ثمينة ليعمل بها فى نفسه وماله ، ولكنه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ (١) .

وكان تعقيب القرآن عليه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ (٢) ؛ يعنى : ألم يصل إلى علمه الذى يدَّعيه ما حدث للقرون من قبله وما نزل بهم من عذاب الله وبأسه ، حتى هلكوا وبادوا ، وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر عددا ؟!

* *

• العلم الذى يؤدى إلى اختلاف الكلمة بغياً بين أهله :

ومن ذلك : العلم الذى يؤدى بأهله إلى أن تختلف كلمتهم ، ويتفرق صفهم ، الذى كان واحداً ، مثل بنى إسرائيل الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، ولكن العلم الذى آتاهم الله لم يجمع كلمتهم ، وإنما اختلفوا من بعده ، بغياً بينهم وتحاسداً . يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) .

* * *

---

(١) القصص : ٧٨ — (٢) القصص : ٧٨ — (٣) الجاثية : ١٦ ، ١٧

(٤) الشورى : ١٤ — (٥) آل عمران : ١٩

الفصل الثالث

العلم والفقه والحكمة .. في لسان القرآن

- شمول العلم وتنوعه في لسان القرآن .
- العلم عند سَلَف الأُمة .
- أول ما ينبغى أن يُعلم .
- العلم الذى لا يُطلب .
- الفقه فى لسان القرآن .
- الحكمة فى لسان القرآن .

العلم والفقه والحكمة .. فى لسان القرآن

■ شمول العلم وتنوعه فى لسان القرآن :

والعلم الذى نوَّه به القرآن ، وحفلت به آياته ، يشمل كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء ، وتزول به غشاوة الجهل والشك عن عقل الإنسان ، سواء أكان موضوعه الكون والطبيعة ، أم موضوعه الإنسان ، أم موضوعه الوجود والغيب ، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحس والتجربة ، أم وسيلته العقل والبرهان ، أم وسيلته الوحى والنبوة .

فليس صحيحاً ما شاع عند الغربيين ومَن دار فى فلكهم : أن العلم مقصور على ما قام على الملاحظة والتجربة ، وليس صحيحاً أيضاً ما يتصوره بعض المسلمين المتدينين أو يُصوِّرونه ، بأن « العلم » فى القرآن يعنى « العلم الدينى » ولا شىء غيره ، وحاول بعض أهل العلم الدفاع عن هذه الدعوى !

ومما يدل على بطلان ذلك التصور : استخدام لفظة : « العلم » ومشتقاتها فى غير العلم الدينى ، كما تدل على ذلك آيات القرآن .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فالعلم الذى وصف الله به هؤلاء القوم الذين فصَّل لهم الآيات ، والذى جاء ذكره بعد قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا . . . ﴾ لا يمكن إلا أن يكون هو العلم الكونى ، الذى يدخل فيه علم الفلك وما يتعلق به .

---

(١) الأنعام : ٩٧

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (١) .

فالعلم المراد هنا : هو الذى به يتعرف على آيات الله فى الكون ، علويه وسفليه ، وفى سر اختلاف الألسنة والألوان ، فهو يشمل علوم الكون ، وعلوم الإنسان .

واختلاف الألسنة والألوان قد يراد به : اختلاف الأمم والشعوب فى لغاتها وألوانها بعضها عن بعض ، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

وقد يراد به اختلاف الأفراد فى أصواتهم حتى إن لكل فرد منهم تميّزا فى صوته يجعل له « بصمة » خاصة به لا يشاركه فيها غيره . ومثله الاختلاف فى الصورة فكل واحد له صورته المستقلة المتميزة ، مهما يكن شبهه بغيره .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٢) .

وفى القرآن بضعة وأربعون مثلاً . وكان بعض السَّلَف يبكى على نفسه إذا مرَّ بمثل من القرآن ولم يفهم مغزاه ، ويقول : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ فأنا لست من العالمين ! فالعالمون هنا هم الذين يعقلون الحكمة من وراء ضرب الأمثال للناس ، فهم الذين يغوصون فى الأعماق ، ولا يقفون عند السطوح .

ويقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

---

(١) الروم : ٢٢ (٢) العنكبوت : ٤٣ (٣) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

فالعلماء هنا - كما يبدو من السياق - ليسوا هم علماء الدين ، وفقهاء الشريعة ، على فضلهم ومكانتهم . وإنما هم الذين يعرفون آيات الله ، ويكتشفون سُنَّته فى خلقه ، فيما ذكر من السماء ، والنبات ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والأنعام ، أى الذين يعرفون عظمة الله من خلال معرفتهم بالسماء وعلم الفلك ، ومن خلال معرفتهم بالجبال وعلم الأرض (الچيولوچيا) ، ومن خلال معرفتهم بعلوم الإنسان ، وعلوم الحياة من نبات وحيوان ، ومن خلال هذه المعرفة الحقيقية يخشون الله ، إذ لا يخشى اللهَ ويخاف مقامه حقاً إلا مَن عرفه سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فتفصيل الآيات هنا إنما ينتفع به الذين يعلمون أسرار الله فى هذه الظواهر الكونية ، من جعل الشمس ضياءً فيها النور والحرارة ، والقمر نوراً لأنه يستمد نوره من الشمس ، ومن تقدير القمر منازل لمعرفة عدد السنين والحساب .

وقال تعالى فى قصة الرهط التسعة من ثمود : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فالذين يعلمون هنا هم : الذين يعرفون سنن الله تبارك وتعالى فى التعامل مع المكذِّبين والظالمين ، وأن مكره تعالى أعظم من مكرهم ، وكيده أقوى من

---

(١) يونس : ٥ (٢) النمل : ٥٠ - ٥٢

كيدهم ، وأنه يمهل ولا يهمل ، وأنه يأخذهم وهم لا يشعرون . وما ربك بغافل عما يعملون .

وفى كثير من الآيات يأتى العلم فيها بمعنى المعرفة الواعية ، والإدراك الراشد للأمور ، فهو ضد الجهل والغباء بصفة عامة ، لا بمعنى تحصيل علم معيَّن من علوم الدين أو الدنيا ، وهذا فى الحقيقة أكثر ما جاء فى القرآن بصيغة « يعلمون » أو « تعلمون » مثبتة أو منفية .

خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فالذين يعلمون تفصيل الآيات هنا : هم أُولو المعرفة الراشدة ، الذين يميزون بين ما يُعلم بطريق الحس ، وما يُعلم بطريق العقل ، وما يُعلم بطريق الشرع ، فيأخذون كل علم من طريقه المخصوص به ، وهم هنا يعلمون أن ما حرَّمه الله على عباده لا يُعرف إلا من طريق الوحى ، فلا يفترون على الله الكذب ويقولون : هذا حلال وهذا حرام ، بغير برهان من الله .

وقد جاءت هذه الآية فى سياق نعى القرآن على أهل الجاهلية دعاواهم على الله بغير الحق أنه أمر بكذا أو حرَّم كذا من غير سلطان أتاهم ، فقبل ذلك بآيات قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الأنعام مناقشة تفصيلية للذين حرَّموا أنواعاً من الأنعام بغير برهان من الله ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) الأعراف : ٢٨

أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ومثل ذلك قوله تعالى بعد ذكر بعض أحكام الأسرة : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فالمراد هنا : أنهم يعلمون بما لديهم من فقه ورشد : أن الله لا يشرع إلا ما فيه الخير والصلاح لهم . فهم أهل علم ووعى لا أهل جهل وبلادة .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

فليس المراد هنا : أنهم يعلمون علماً معيَّناً من علوم النقل أو العقل ، بل المراد أنهم ليسوا من أهل الجهل والغباء .

وهذا ما نجده أيضاً فى حالات نفى العلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فليس المقصود نفى علم معيَّن عنهم من علوم الشرع أو الكون ، بل المقصود نفى العلم من حيث هو ، أى أنهم ليس بأهل علم ومعرفة .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

ومثله فى سورة أخرى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٤٣ ، ١٤٤ — (٢) البقرة : ٢٣٠ — (٣) الأنعام : ١٠٥

(٤) التوبة : ٦ — (٥) التوبة : ٩٣ — (٦) الروم : ٥٩

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

فالناظر فى هذه الآيات وما شابهها يتبين أنها لا تنفى علماً معيَّناً من علوم الدين أو الدنيا ، إنما تنفى العلم من حيث هو ، فهؤلاء ليسوا من أهل العلم الذين يُقام لهم وزن أو يُحسب لهم حساب ، بل هم من أهل الجهل الذين لا يعلمون . وكفى بالجهل وصمة وعارا .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

فقد يكون المراد نفى العلم عنهم ودمغهم بالجهل المطلق ، أو نفى العلم بهذه القضية المتحدَّث عنها ، فهم لا يعلمون أن العِزَّة لله جميعاً ، لأنه خالق الخلق ، ومالك المُلك ، وصاحب الأمر ، ومَن بيده ملكوت كل شىء وهو يُجير ولا يُجار عليه . وأن العِزَّة لرسوله ، فهو الذى أرسله بالهدى ودين الحق ، فهو يتكلم باسم الله ، وينفذ أمر الله ، ويُبلِّغ رسالة الله ، ومعه المؤمنون ، فعِزَّتهم من عِزَّة الله ، وحبلهم موصول بحبله ، وقوَّتهم مستمَدة من قوَّته ، فلا يملك أحد أن يذل نفوسهم ، أو يحنى رؤوسهم ، وهم منسوبون إلى القَوِىّ العزيز .

* *

● أكثر الناس لا يعلمون :

ولقد حكم القرآن فى آيات كثيرة على أكثرية البَشر بأنهم ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، بمعنى : أنهم ينقصهم العلم الحقيقى بهذه القضايا المهمة التى يتحدث عنها . ونعنى بالعلم الحقيقى : الإدراك الواعى الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل ، وهو أمر مؤسف حقاً ، مع أن الله تعالى نصب الأدلة لعباده ، من الكون

---

(١) الجاثية : ١٨ (٢) المنافقون : ٨

المنظور ، ومن الوحى المسطور ، لكى يعلموا ويعرفوا . فمالهم لا يعلمون ؟

وإنما قلنا : الإدراك الجازم ؛ لأن ما ليس بجازم لا يكون علماً ، بل ظناً ، إذا كان راجحاً ، ووهماً إذا كان مرجوحاً ، وشكاً إذا استوى الطرفان ، ولهذا قابل القرآن بين العلم والظن فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (١) .

ووصفنا الإدراك الجازم بـ « المطابق للواقع » ؛ لأن غير المطابق لا يكون علماً ، بل هو جهل وغباء .

وقيَّدناه بـ « الناشىء عن دليل » ؛ لأن ما ليس كذلك ليس علماً ، بل هو تقليد . بمعنى اعتماد قول الغير بلا حُجَّة ، وقد أجمعوا على أن التقليد ليس بعلم .

ولو أردنا أن نتتبع هذه الصيغة فى القرآن : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أو ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أو ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ونحوها . . . لاتسع بنا المجال . وطال بنا المقال .

ولكن لا بأس أن نعرض لمجموعة منها تدل على غيرها ، ومعظمها يتعلق بجانب الإلهيات .

ففى سورة الأنعام نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وسواء أكان الضمير فى « أكثرهم » يرجع إلى الناس عامة أم إلى المشركين خاصة ، فإن المشركين هم أكثر الناس ، وهم لا يدركون ولا يعون قدرة الله تعالى المطلقة على تنزيل الآيات الكونية الخارقة متى شاء ، وكيف شاء . كما

---

(١) الجاثية : ٢٤ (٢) الأنعام : ٣٧

لا يدركون حكمته فى عدم تنزيلها على محمد ﷺ ، والاكتفاء بالقرآن آية عظمى له : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وفى سورة الأعراف نقرأ : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ولا زال إلى اليوم أكثر الناس يجهلون أن علم الساعة عند الله وحده ، وأن موعد قيامها مغيب عنهم ، ولا يبرح يخرج واحد من الغرب أو الشرق ، يزعم أن الساعة ستقوم فى يوم كذا ، ويجد فى الناس مَن يُصدِّقونه ويفزعون كلما اقترب ذلك اليوم .

بل وجدنا مسلماً مرق من الإسلام ، يحدد موعد قيام الساعة ، بناء على قراءة خاصة متميزة للحروف المقطعة فى أوائل السور !

ونقرأ فى سورة الأنفال قوله تعالى : ﴿ وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وسواء أكان الضمير فى قوله : « أولياءه » لله تعالى أم للمسجد الحرام ، فهؤلاء المشركون قد أخرجهم الشرك عن الولاية لله تعالى ولبيته ، فهم أبعد الناس عن ذلك ، إنما أولياؤه حقاً هم المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، ويحسبون أن الولاية بمجرد الدعوى والتظاهر الكاذب .

---

(١) العنكبوت : ٥١ (٢) الأعراف : ١٨٧ (٣) الأنفال : ٣٤

ونقرأ فى سورة يونس : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . فهم يجهلون أن الله تعالى إذا وعد لا بد أن يُنجز وعده ، لأن الذى يُخلف وعده إما لعجزه ، والله لا يعجزه شيء ، وإما لكذبه ، والله يتعالى عن الكذب ، فلا أصدق من الله قيلا .

ومثل هذا ما جاء فى أوائل سورة الروم من قوله : ﴿ وَعْدَ اللهِ ، لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقد تكرر هذا المعنى فى سورة النحل (الآية : ٣٨) ، وفى سورة القصص (الآية : ١٣) .

ونقرأ فى سورة يوسف قوله تعالى فى شأن يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، والضمير فى قوله : « على أمره » هل يعود إلى يوسف أو يعود إلى الله ؟ أيّاً كان فالله هو الغالب الذى لا يُغلب ، والذى لا ينفذ إلا ما أراده ، وإن جهل ذلك الأكثرون الذين يظنون أنهم هم الذين يسيرون حركة الفلك ، أو أنهم الذين يرفعون ويخفضون ، وما لهم من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله !

وفى السورة نفسها نقرأ قول يوسف للنزلاء معه فى السجن من عُبّاد الأوثان : ﴿ يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِه إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) يونس : ٥٥
(٢) الروم : ٦
(٣) يوسف : ٢١
(٤) يوسف : ٣٩ ، ٤٠

فهذه هى الحقيقة الكبرى التى ضلَّ أكثر الخلق عنها ، رغم وضوحها فى نفسها ، وهى حقيقة التوحيد : توحيد الربوبية ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد العبادة ، فلا يتخذ غير الله رباً ، ولا يبتغى غير الله حَكَماً ، ولا يعبد غير الله إلهاً ، وهذا هو الدين القيم حقاً ، دين الفطرة ، ولكن ضلَّ عنه أكثر الناس لأسباب وموانع شتَّى .

ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الروم ، بعد أن عرض لوحة رائعة من آيات الله تعالى فى الآفاق والأنفس : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة سبأ نجد حقيقتين مهمتين جهلهما أكثر الناس :

الأولى : عموم الرسالة المحمدية لكل البَشر ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

والأخرى : مسألة الرزق ، بسطاً وقبضاً ، وسعة وضيقاً ، وأنها بيد الله سبحانه وإن كان لها أسبابها ، منها ما هو معروف ، وما هو مجهول ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وفى سورة الزمر نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الروم : ٣٠ — (٢) سبأ : ٢٨

(٣) سبأ : ٣٦ — (٤) الزمر : ٤٩

فهذه الآية تدل على طبيعة الإنسان الذى يلجأ إلى الله ، يدعوه ويتضرع إليه عند نزول الضر والشدة به ، ثم سرعان ما ينسى ربه . ولا يذكر إلا نفسه ، عندما تنكشف الغمة ، وتحل النعمة ، فهو لا يعترف بفضل ربه ، بل بقدرة ذاته ، ويقول ما قال قارون من قبل : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى ﴾ ! (١) .

إنها فتنة حقاً ، واختبار صعب للإنسان ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حقيقة هذا الاختبار ولا أهميته ، ولذلك يرسبون فيه ويسقطون !

وفى سورة غافر نقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وذلك لأن الناس - كما يقول البقاعى - شُعْبة يسيرة من خلقهما . فعُلِمَ أن الذى قدر على ابتدائه (أى الكون) على عظمه ، قادر على إعادة الناس على حقارتهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الذين ينكرون البعث وغيره ، أى لا علم لهم أصلاً ، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم ، واتباعهم أهواءهم ، فهم لا يستدلون بذلك على القدرة على البعث ، كما أن البهائم ترى الظاهر فلا تدرك به الباطن ، بل هم أنزل رتبة من البهائم ؛ لأن هذا النحو من العلم فى غاية الظهور ، فهو كالمحسوس ، فمَن توقف فيه كان جماداً ! (٣) .

وفى سورة الدخان نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

بيَّن الله فى هاتين الآيتين : أنه لم يخلق هذا الكون - علويه وسفليه - باطلاً ولا لعباً ولا عبثاً ، كما يظن الذين كفروا أن هذا الكون بُنِيَ وسينهدم لغير حكمة ولا هدف ، فإنما هى أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، ولا شىء وراء ذلك ، وهذا ما ردَّه القرآن واعتبره باطلاً ولعباً : أن تُطوَى صفحة هذا الوجود . وقد استوى المؤمنون والكفار ، والمتقون والفجار ، يقول تعالى :

---

(١) القصص : ٧٨
(٢) غافر : ٥٧
(٣) نظم الدرر : ١٧/ ٩٤
(٤) الدخان : ٣٨ ، ٣٩

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) .

فاللَّعب والعبث أن تنتهى الحياة ولا تُجزَى كل نفس بما كسبت : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق ، ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، لأنهم يعيشون فى يومهم ، غافلين عن غدهم ، غارقون فى دنياهم ، عمين عن آخرتهم .

بهذا التتبع النسبى لكلمة « ع ل م » ومشتقاتها فى القرآن ، مثبتة ومنفية ، تبيَّنا مدى شمول العلم وتنوعه فى كتاب الله ، بحيث يشمل علم الدين وعلم الدنيا وكل معرفة واعية ، وذلك بحسب السياحة ، كما بيَّناه بوضوح ، والحمد لله .

* * *

---

(١) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨ (٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦

العلم عند سَلَف الأُمة

والعلم عند سَلَف الأُمة يشمل علوم الشرع ، وعلوم العقل ، وعلوم اللِّسان ، أو قل : هو يشمل علم الدين وعلم الدنيا .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رضى الله عنه فى كتابه الشهير « جامع بيان العلم » : « حدُّ العلم عند العلماء والمتكلمين فى هذا المعنى هو ما استيقنته وتبينته ، وكلُّ مَن استيقن شيئاً وتبيَّنه فقد علمه ، وعلى هذا مَن لم يستيقن الشيء وقال به تقليداً فلم يعلمه .

والتقليد عند العلماء غير الاتِّباع ؛ لأن الاتِّباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه .

والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرف وجه القول ولا معناه ، وتأبى مَن سواه .. أو أن يتبيَّن لك خطؤه ، فتتبعه مهابة خلافه ، وأنت قد بان لك فساد قوله ، وهذا محرَّمٌ القول به فى دين الله سبحانه وتعالى .

والعلم عند غير أهل اللِّسان العربى - فيما ذكروا - يجوز أن يترجم باللِّسان العربى علماً ، ويترجم معرفةً ، ويترجم فهماً .

والعلوم تنقسم قسمين : ضرورى ، ومكتسب .

فحدّ **الضرورى** : ما لا يمكن العالم أن يشكك فيه نفسه ، ولا يدخل فيه على نفسه شبهة ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر ، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل ، كالعلم باستحالة كون الشيء متحركاً ساكناً ، أو قائماً قاعداً ، أو مريضاً صحيحاً فى حالٍ واحدةٍ .

ومن الضرورى أيضاً وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس ، كذوق الشيء يعلم به المرارة من الحلاوة ضرورةً ، إذا سلمت الجارحة من آفة ، وكرؤية الشيء يعلم بها الألوان والأجسام ، وكذلك السمع يدرك به الأصوات .

ومن الضرورى أيضاً عِلْم الناس أن فى الدنيا مكة والهند ومصر والصين وبلداناً قد عرفوها ، وأُمماً قد خلت .

وأما العلم المكتسَب : فهو ما كان طريقةُ الاستدلال والنظر ، ومنه الخفى والجلى ، فما قرب منه من العلوم الضرورية كان أجلى ، وما بَعُد منها كان أخفى .

والمعلومات على ضربين : شاهد ، وغائب .

فالشاهد ما عُلِم ضرورة ، والغائب ما عُلِم بدلالة من الشاهد .

والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أسفل ، وعلم أوسط .

فالعلم الأسفل هو : تدريب الجوارح فى الأعمال والطاعات ، كالفروسية والسياحة والخياطة . . . وما أشبه ذلك من الأعمال التى هى أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتى عليها وصف .

والعلم الأعلى عندهم علم الدِّين الذى لا يجوز لأحدٍ الكلام فيه بغير ما أنزل الله فى كُتُبه وعلى أَلْسِنة أنبيائه - صلوات الله عليهم أجمعين - نصاً ومعنى ، ونحن على يقين مما جاء نبيناً ﷺ عن ربِّه عَزَّ وجَلَّ ، وسَنَّهُ لأُمته من حكمته ، فالذى جاء به هو القرآن هدىً للناس وبيِّنَاتٍ من الهدى والفرقان ، شفاءً ورحمةً للمؤمنين ، آتاه الله الحكم والنبوة ؛ فكان ذلك يُتلى فى بيوته . قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ (١) .

يريد : القرآن والسُّنَّة ، ولسنا على يقين مما يدَّعيه اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل ؛ لأن الله قد أخبرنا فى كتابه عنهم أنهم يكتبون الكتاب

---

(١) الأحزاب : ٣٤

بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ويقولون : هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . فكيف يؤمَن مَن خان الله ، وكذب عليه وجحد واستكبر ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ (١) . وقد اكتفينا والحمد لله بما أنزل الله على نبينا ﷺ من القرآن ، وما سَنَّه لنا عليه السلام .

قال أبو عمر : من الواجب على مَن لا يعرف اللِّسان الذى نزل به القرآن ؛ وهى لغة النبى ﷺ أن يأخذ من علم ذلك ما يكتفى به ، ولا يستغنى عنه حتى يعرف تصاريف القول وفحواه ، وظاهره ومعناه ، وذلك قريب على مَن أحبَّ علمه وتعلَّمه ، وهو عونٌ له على علم الدِّين الذى هو أرفع العلوم وأعلاها . به يُطاع الله ويُعبد ، ويُشكر ويُحمد ! فمَن عَلِم من القرآن ما به الحاجة إليه ، وعرف من السُّنَّة ما يُعوَّل عليه ، ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نزعوا به وانتزعوه من كتاب ربِّهم وسُنَّة نبيهم ، حصل على علم الديانة ، وكان على أُمة نبيه مؤتمناً حق الأمانة ، إذا اتقى الله فيما علمه ، ولم تملْ به دنيا شهوته ، أو هوىً يُرديه ، فهذا عندنا العلم الأعلى الذى نحظى به فى الآخرة والأولى .

والعلم الأوسط هو : معرفة علوم الدنيا التى يكون معرفة الشىء منها بمعرفة نظيره ، ويُستَدل عليه بجنسه ونوعه ، كعلم الطب والهندسة » (٢) .

ومن هنا ذهب الإمام أبو حامد الغزالى ، وغيره من علماء الأُمة ، إلى أن كل علم به قوام الدين أو الدنيا ، فإنَّ تعلمه واتقانه فرض كفاية على الأُمة ، مثل الطب والهندسة وغيرهما .

فإذا قام فى الأُمة عدد كاف يلبى مطالبها ، ويسد حاجتها ، ويغنيها أن

---

(١) العنكبوت : ٥١ (٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر .

تكون كَلاًّ على غيرها فى النواحى المدنية والعسكرية ، فقد سقط الإثم والحَرَج عن سائر الأمة ، وإن لم يقم هذا العدد الكافى فى كل اختصاص تحتاج إليه ، فالأُمة كلها آثمة ، لتضييعها هذه الفريضة الجَماعية ، الواجبة عليها بالتضامن ، على تفاوت فى مستوى المسؤولية ، فمسؤلية الجاهل ليست كمسؤلية العالِم ، ومسؤلية ذوى الشأن وأولى الأمر ، ليست كمسؤلية غيرهم من المغمورين .

بل ذهب الغزالى وغيره إلى أن تعلم أُصول الصناعات المختلفة فرض على الأُمة ، من الحدادة والنجارة والنسيج والخياطة . . . وغيرها من كل ما لا يستغنى عنه المجتمع المدنى .

وفى عصرنا تدخل كل الصناعات « التكنولوچية » التى طورت بها الحضارة المعاصرة الحياة تطويراً هائلاً ، فطوى الإنسان المكان ، واختصر الزمان ، ووفر جهد الإنسان ، وغدونا نتحدث عن ثورة « التكنولوچيا » وثورة « البيولوچيا » وثورة « الاتصالات » ، وثورة « المعلومات » ، وغيرها من الثورات التى غيَّرت وجه الحياة ، ويجب على أُمة الإسلام أن يكون لها دورها فى هذه الثورات ، وألا تقف متفرجة والعالَم يعمل ويتحرك ، ودينها يوجب عليها أن تكون فى مقدمة القافلة لا فى ذيلها .

وقد أشار القرآن إلى صناعات شَتَّى ، مثل صناعة الحديد فى الجانب العسكرى ، والجانب المدنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يشير إلى الصناعات الحربية ، وقوله : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يشير إلى الصناعات المدنية ، وقد علَّم الله نبيه داود صناعة الدروع : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ (٣) ،

(١) الحديد : ٢٥ (٢) الأنبياء : ٨٠ (٣) سبأ : ١٠ ، ١١

ومثل ذلك : الصناعات الغذائية كما فى قوله : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ (١) .

ومنها : الصناعات المتخذة من الأنعام : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢) .

ومنها : صناعات التجميل والزينة : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ (٣) ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (٤) .

ومنها : صناعة السفن ، وقد أجادها نوح عليه السلام : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٥) ، ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ (٦) .

ومنها : صنعة البناء ، وقد تعلَّمها إبراهيم وابنه إسماعيل ، وهما اللَّذان بنيا أول بيت وُضِعَ للناس : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ (٧) .

ومنها : صناعة السدود العظيمة كما فعل ذو القرنين : ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ ، حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ (٨) .

والقِطْر : هو النحاس المذاب ، وهو إذا أضيف إلى الحديد زاده صلابة وقوة .

---

(١) النحل : ٦٧ — (٢) النحل : ٨٠ — (٣) الرعد : ١٧

(٤) النحل : ١٤ — (٥) المؤمنون : ٢٧ — (٦) هود : ٣٨

(٧) البقرة : ١٢٧ — (٨) الكهف : ٩٦

ومنها : الصناعات التى عملها الجن لسليمان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (٢) .

وعمل الجن لها لا يعنى أن بنى الإنسان لا يقدرون عليها ، ففى قصة سليمان رأينا بعض الناس ممن ﴿ عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٣) يقدر على ما لم يقدر عليه العفريت . . . .

إلى غير ذلك من الصناعات التى أشار إليها القرآن .

* * *

(١) سبأ : ١٣ (٢) سورة ص : ٣٧ (٣) النمل : ٤٠

أول ما ينبغى أن يُعْلم

وإن الحقائق التى ينبغى للإنسان أن يعلمها كثيرة ، ولا تتناهى .

● العلم بالله وصفاته مقدَّم على كل علم :

ولكن أعظم الحقائق التى يحض القرآن على معرفتها والعلم بها ، هى : العلم بالله تبارك وتعالى ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا . فهذا أول ما ينبغى للإنسان أن يعلمه .

بل هذا ما خلق الله له هذا الكون بسمواته وأرضه ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم : أن الله سبحانه خلق هذا العالَم علويه وسفليه لكى نعرفه سبحانه ، فنعبده بعد ذلك .

يقول تعالى : ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (١) .

وقد ذكر الصوفية فى هذا حديثاً قدسياً لم يثبت ، يقول : « كنتُ كنزاً خفياً ، فأحببت أن أُعرف ، فخلقتُ الخلق ليعرفونى » ! (٢) .

ولا حاجة إلى هذا الحديث ، فالآية التى ذكرناها تغنى عنه ، وهى صريحة الدلالة على غاية الخلق ، وهى معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وخصوصاً الاسمين الكريمين : القدير والعليم .

---

(١) الطلاق : ١٢

(٢) قال ابن تيمية : ليس من كلام النبى ﷺ ، ولا يُعرف له سند صحيح ، ولا ضعيف ، وتبعه الزركشى وابن حجر والسخاوى وغيرهم ، ممن ألَّف فى الأحاديث المشتهرة ، انظر : « كشف الخفاء » : ٢/ ١٢٢

وهذه الآية الكريمة استدل بها العلماء على فضيلة علم التوحيد ، وتقدمه على سائر العلوم ، وهذا صحيح ، ولكن علم التوحيد الحقيقي ليس هو علم الكلام الجدلي ، الذى امتلأ بمباحث ومجادلات هى أبعد ما تكون عن لُبّ التوحيد ، وعن تكوين جوهر الإيمان ، وحقيقة اليقين ، وذلك لأنه امتزج بفلسفة اليونان ، وابتعد عن نهج القرآن ، الذى يخاطب العقل والعاطفة جميعاً ، ويعتمد على آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، وقد ألّف الإمام ابن الوزير كتاباً قيماً سمّاه « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » .

وكذلك بيّن القرآن أن الله جعل الكعبة المشرّفة ، وشرع الأشهر الحُرُم ، وشرع الهَدْى والقلائد وما يتعلق بالمناسك ، لنعرف الله جَلّ جلاله .

يقول تعالى : ﴿ جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ومَن تتبع الآيات التى فيها الأمر بالعلم للفرد أو الجماعة : ﴿ اعْلَمْ ﴾ أو ﴿ اعْلَمُواْ ﴾ ، يتبين بوضوح : أن أول ما ينبغى أن يُعلم هو التوحيد وما يتعلق به من كمال الله تعالى وجلاله وجماله ، وكذلك لقاءه سبحانه ، وأننا إليه محشورون ، فلا ينبغى أن تلهينا عنه أموال ولا أولاد ولا الحياة الدنيا بما فيها من لَعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر .

اقرأ هذه الآيات :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٢) .

﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) المائدة : ٩٧ (٢) محمد : ١٩ (٣) البقرة : ١٩٤

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٦) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٧) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨) ، ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٩) .

﴿ اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٠) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١١) .

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٢) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣) .

---

(١) البقرة : ١٩٦ (٢) البقرة : ٢٠٣ (٣) البقرة : ٢٠٩

(٤) البقرة : ٢٢٣ (٥) البقرة : ٢٣١ (٦) البقرة : ٢٣٣

(٧) البقرة : ٢٣٥ (٨) البقرة : ٢٤٤ (٩) البقرة : ٢٦٧

(١٠) المائدة : ٩٨ (١١) الأنفال : ٢٤ (١٢) الأنفال : ٢٥

(١٣) الأنفال : ٢٨

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

وهكذا نجد هذه الصيغة : ﴿ اعْلَمُواْ ﴾ تتعلق بكمال الألوهية ، وصفات جلالها وجمالها ، أو التذكير بالحشر وملاقاة الله سبحانه ، أو بيان مَعيَّة الله تعالى لعباده المتقين فى ثلاثة آيات منها ، وأنه مُخزى الكافرين .

* *

• العلم بقيمة الحياة الدنيا :

ويقرب من ذلك قوله : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٣) .

* *

• العلم برسالة الرسول :

وفى هذه الآيات - بهذه الصيغة - : آيتان تتعلقان بالرسالة والرسول :
﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٤) .

والثانية قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ﴾ (٥) .

* *

---

(١) الأنفال : ٤٠ (٢) التوبة : ٢ (٣) الحديد : ٢٠
(٤) المائدة : ٩٢ (٥) الحجرات : ٧

● العلم بالأحكام متأخر عن العلم بالعقائد :

وهناك في هذه المجموعة المكونة من سبعة وعشرين آية ، توجد آية واحدة تتعلق بالأحكام ، وذلك في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . . ﴾ (1) .

وهذا يدل على أن العقائد مقدَّمة على الأعمال ، وأن الأُصول مُقدَّمة على الفروع ، وأن أحكام الآخرة وما يتعلق بها مقدَّمة على أحكام الدنيا . على خلاف ما انتهى إليه حال المسلمين في الأعصار الأخيرة ، فقد أخذت الأحكام الفرعية الجزئية الفقهية مساحة كبيرة من حياتهم العلمية والعملية ، وشغلهم الحديث عنها ، والخلاف فيها ، عن أهم القضايا الكلية ، وأخطر المسائل المصيرية .

* * *

---

(1) الأنفال : 41

العلم الذى لا يُطلب

قصد القرآن إلى توفير الجهد العقلى للإنسان ، فلا يضيعه فيما لا قدرة له عليه ، ولا سبيل له إلى معرفته ، كما أنه لا فائدة له ولنوعه فى العلم به .

وبهذا يدخر الإنسان ما وهبه الله من طاقات ذهنية مكنونة ، وقدرات فطرية مخزونة ، ليصرفها فيما هو أجدى له ، وأعود عليه وعلى جنسه بالخير والبركة له فى دينه ودنياه .

ومن ثَمَّ كان هناك أنواع من العلم لا يطلبها المسلم ، وبعبارة أُخرى لم يُؤمر بطلبها ، بل ربما نُهِىَ عن طلبها والبحث عنها .

● **علم الغيب :**

وفى مقدمة هذه الأشياء التى دعا القرآن الإنسان ألا يسعى فى طلب معرفتها : العلم بالغيب ، أو كما عبَّر القرآن : علم الغيب ؛ أى ما غاب عن الحس ، فلم يُدرَك بأى حاسة من حواسه ، وغاب عن العقل ، فلم يُدرَك بأى أداة من أدواته .

والمراد بالغيب هنا : الغيب المطلق ، الذى لم يجعل الله له دلائل ترشد إليه ، أو علامات تدل عليه ، ويستوى كل الناس فى الجهل بها ، مثل العلم بما يكنه ضمير المستقبل للإنسان : هل يعيش الطفل حتى يكبر ؟ وإذا كبر هل يتزوج ؟ وإذا تزوج هل ينجب ؟ وإذا أنجب هل يكونون ذُكوراً أو إناثاً ؟ وهل يكونون أذكياء أم أغبياء ؟ سعداء أو أشقياء ؟ وكم يعيش هو ؟ ومتى يموت ؟ وأين يموت ؟ وعلى أى حال يموت ؟؟؟ إلى آخر تلك الأسئلة التى لا تكاد تتناهى .

هذه الأسئلة وما شابهها لا يستطيع الإنسان أن يعرف إجابتها على وجه القطع والتفصيل ، فهى من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى .

حتى أنبياء الله ورُسُله لا يعلمون من هذا الغيب شيئاً إلا ما أعلمهم الله تعالى به ، لينبئوا به أقوامهم . قال الله تعالى لخاتم رسله محمد : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ (٣) .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا . . . . ﴾ الآية (٤) .

وقد أمر الله تعالى رسوله الخاتم أن يعلن أنه لا يدرى ماذا يحدث له ولا لقومه فى الغد : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٧) .

وهذا لا يعنى - كما قد يتوهم بعض الناس - أن يهمل الإنسان التفكير فى مستقبله والتخطيط له . فقد بيَّنا فى كتبنا الأُخرى أن النظرة المستقبلية من

---

(١) الأعراف : ١٨٨ (٢) الجن : ٢٦ ، ٢٧ (٣) النمل : ٦٥
(٤) الأنعام : ٥٩ (٥) الأحقاف : ٩ (٦) الأنبياء : ١٠٩
(٧) الأنبياء : ١١١

صميم الإسلام ، وأن هذا ما أرشد إليه القرآن ، وما صنعه الرسول عليه الصلاة والسلام (١) .

« الغيب » - فى نظر القرآن - لا يعلمه الإنسان ، ولكنه يؤمن به ولا ينكره ، ومن أوصاف المتقين فى القرآن أنهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢) .

والماديون فى عصرنا وفى كل عصر ، يجعلون الإيمان بالغيب مساوياً للإيمان بالخرافة ! ومما لا شك فيه أن « الله » غيب ، والوحى غيب ، والآخرة غيب ، فكل الذين يؤمنون بالله وبرسالاته وبالجزاء الأخروى خرافيون ؛ لأن عقليتهم « عقلية غيبية » لا « عقلية علمية » !!

وهذا يكون صحيحاً لو طولب الإنسان أن يؤمن بما لم يقم عليه الدليل العقلى القاطع ، وجرى وراء الظنون والأوهام ، واتبع أهواء الكَهَنة والدجَّالين .

أما أن يقوم البرهان وتشهد آيات الله فى الأنفس والآفاق على وجود الخالق المبدع الحكيم ، وتقوم الأدلة الناصعة على أن فلاناً رسول من الله ينزل عليه الوحى ، ولا ينطق عن الهوى ، فهنا نخضع لمنطق العقل نفسه ، الذى دلَّ على صدق الرسول المبلِّغ عن ربه ، ويحكم العقل بعزل نفسه - كما يقول الإمام الغزالى - ليتلقى عن الوحى ، ويقول مع المؤمنين : سمعنا وأطعنا .

ثم يبقى للعقل مساحة رحبة يعمَل فيها ، وذلك فيما لم ينص فيه الوحى ، وفى فهم ما نصَّ عليه ، وفى التوفيق بينه وبين العقل فيما ظاهره التعارض .

ولا يُكلَّف الإنسان فى نظر القرآن والإسلام أن يؤمن بما يستحيل ثبوته فى حكم العقل ، فهذا لا يُقبل فى منطق القرآن الذى يقول للمخالفين : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٣) ، إنما يُطالَب الإنسان بما هو ممكن فى نظر العقل الحر ،

---

(١) انظر : فصل « فكر مستقبلى » من كتابنا « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » ، وفصل « النظرة المستقبلية » من كتابنا « الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة » .

(٢) البقرة : ٣ (٣) البقرة : ١١١ ، والأنبياء : ٢٤ ، والنمل : ٦٤

ولكن ليس لديه آلة لإدراكه ، فهو يؤمن به ، لأن الوحى المعصوم جاء به ، وإلا لناقض العقل نفسه ، حيث أثبت صدق الوحى ، ثم كذَّب ما أنبأ به .

والإنسان حين يؤمن بالغيب ولا يبحث عنه ، إنما يوفر طاقته العقلية للبحث فى « عالَم الشهادة » الذى يعيش فيه ، ويتعامل معه ، ولديه الوسائل لمعرفته ؛ لأنه كله مسخَّر لمنفعته من قبَل خالقه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ (١) .

ومن هنا كان خطأ المدرسة المشائية فى الفلسفة الإسلامية ، المتمثلة فى الكندى والفارابى وابن سينا ومَن دار فى فلكهم : أنهم أخذوا الفلسفة اليونانية بكل شُعَبها وجوانبها - بما فيها الجانب الإلهى والغيبى - وجعلوها أصلاً مسلَّماً ، وجعلوا ما جاء به القرآن تابعاً . ومن هنا كان موقفهم من القضايا العقدية الكبرى التى كفَّرهم فيها الغزالى ، وهى : قضية الخلق ، أعنى خلق الله للعالَم بسمواته وأرضه .. وقضية علم الله تعالى لجزئيات الحوادث ، وقضية البعث الجسمانى فى الدار الآخرة ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، وجنَّة ونار .

ولو أن هؤلاء الفلاسفة الكبار أخذوا من فلسفة اليونان : الشُعَب المتعلقة بعلوم الطبيعة والرياضيات ونحوها . . . واكتفوا فى الجانب الإلهى بما نطق به القرآن ، لاستراحوا وأراحوا ، ووفروا على الأُمة الصراع بين المتكلمين والفقهاء من جانب ، والفلاسفة من جانب آخر ، ولانطلقت الأُمة بالجانب العلمى المحض ، واستمرت فى تطويره وتحسينه وتنقيحه والإضافة إليه ، وربما لو تم ذلك لبقيت قيادة الحضارة فى يد الشرق ، ولم تنتقل الشُعْلة منه إلى الغرب ، ولكن هكذا قدَّر الله ، ولا يجدى هنا « لو » ولا « ليت » !

* *

(١) الجاثية : ١٣

■ العلم بحقيقة الذات الإلهية :

وأعظم أنواع الغيب ، وأبعدها عن إدراك الإنسان وإحاطته : العلم بحقيقة الذات الإلهية المقدَّسة ، المتعالية على المخلوقات ، المتصفة بكل كمال ، المنزَّهة عن كل نقص .

دعا القرآن العقل إلى الاعتراف بقصوره الذاتى عن إدراك حقيقة ذات الله جلَّ شأنه . بحسبه أن يدرك وجوده تبارك وتعالى ، ويدرك وحدانيته ، ويدرك تفرده بالكمال الأعلى ، وروعة تدبيره لهذا الكون ، واتصافه بالعلم والحكمة ، والمشيئة والقدرة ، والعزَّة والرحمة ، ونحو ذلك من صفات الكمال اللائقة بذاته سبحانه .

أما ما عدا ذلك ، فالعقل الإنسانى أعجز من أن يحيط به ، ويدرك كُنْهه ، ولا عجب فى ذلك ، فقد ثبت عجز الإنسان عن « معرفة الكُنْه » لكثير من الأشياء من حوله ، فهو يعرف آثارها ، ولا يعرف حقيقتها ، وأبرز مثال لذلك هو : الحياة نفسها ، التى لا يعرفها إلا بآثارها .

بل عجز الإنسان أن يحيط علماً بحقيقة نفسه ، وكيف يعمل عقله ؟ حتى ألَّف أحد كبار علماء الكونيات - وهو حائز لجائزة نوبل فى العلوم - كتاباً سمَّاه « الإنسان ذلك المجهول » !

فإذا كان هذا شأن الإنسان مع نفسه ، فكيف يطمع أن يكتنه حقيقة الله الخالق المبدع ، وليس له مثال من الشاهد يمكن أن نقيسه عليه ، ولا يدخل تحت سلطان الخيال ، الذى يستطيع أن يركب صوراً يتوهمها ، وإن لم يكن لها وجود !

لهذا ذكر القرآن عجز الناس عن الإحاطة به جَلَّ وعلا . يقول تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (١) .

---

(١) طه : ١١٠

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٢) .

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣) .

بهذا أراح القرآن الإنسان المسلم من معاناة البحث عما لا طائل وراءه ، والتفكير فيما هو فوق طاقة عقله ، وسلَّم بذلك فسلم ، ووجَّه هذا الطاقة فيما هو أقرب إليه ، وأجدى بالنفع عليه ، ولم يركض خلف السراب يحسبه ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا !

أعلن ذلك رسول الإسلام ، فقال - فيما يُروى عنه - : « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » ، أو « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله » (٤) .

وناجى - عليه الصلاة والسلام - ربه ، فقال : « لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » (٥) .

وروى عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه : « العجز عن درك الإدراك إدراك » .

ولقد حاول بعض مفكرى المسلمين ومتكلميهم أن يقتربوا من لجج هذا البحر الخضم فأوشكوا أن يغرقوا ، فابتعدوا عنه ، وحذروا منه .

---

(١) الشورى : ١١ (٢) سورة الإخلاص كاملة . (٣) الأنعام : ١٠٣

(٤) رواه باللَّفظ الأول أبو نعيم فى « الحلية » عن ابن عباس ، ورواه باللَّفظ الثانى أبو الشيخ والطبرانى فى « الأوسط » عن ابن عمر ، بأسانيد ضعيفة ، وحسَّنها الألبانى بمجموع طرقها فى « صحيح الجامع الصغير وزيادته » .

(٥) سيأتى تخريجه قريباً .

يقول الإمام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ = ١٢١٠ م) صاحب التفسير الكبير والكتب الشهيرة فى« الأصولَيْن » : أُصول الدين وأُصول الفقه ، بعد أن حصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين .

العلم للرحـمن جَلَّ جـلاله وسواه فى جهلاته يتغمغـم

ما للتراب وللعلوم ؟ وإنمـا يسعى ليعلم أنه لا يعـلم !

وينشد الإمام الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) فى أول كتابه « نهاية الأقدام فى علم الكلام » .

لقـد طفت فى تلك المعاهد كلها وسرحت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائـر على ذقن ، أو قارعاً سـن نادم

وصرَّح بذلك الإمام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) فى « الإحياء » وصنَّف فيه ، وجوَّد القول فيه فى كتابه « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

ومن الصوفية اشتهر عن أبى القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م) أنه كان يقول : لا يعرف الله إلا الله !

والمعتزلة - على خوضهم فى بحر الإلهيات - نجد منهم مثل العلاَّمة ابن أبى الحديد (ت ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م) فى شرحه كتابه « نهج البلاغة » المنسوب للإمام علىّ رضى الله عنه ، يتعرض لهذه القضية فى مواطن من شرحه ، ويذكر فيه كلمات بليغة نثراً وشعراً مع توغله فى علم الكلام ، ومن شعره يخاطب الفلاسفة :

هل أنتـمو إلا الفـرا ش رأى السراج وقد توقد ؟

فدنا ، فأحرق نفسـه ولو اهتدى رشداً لأبـعد !

وقال أيضاً يخاطب الذات الإلٰهية :

سافرت فيك العقولُ فما ربحت إلا عنا السـفر

فلحا الله الألَى زعـموا أنك المعلوم بالنـظر

كذبوا ! إنَّ الذى زعموا　　خارج عن قوة البَشر [1]

قال العلامة أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى الشهير بابن الوزير (ت ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م) بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها : « ودع عنك هؤلاء كلهم ، فقد كفانا كتاب الله تعالى حيث يقول سبحانه : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [2] . ولا أوضح من القرآن إذا أجير من التأويل بغير برهان » .

وكيف نتأوّل ذلك ، وهذا رسول الله ﷺ وهو المبيِّن لكتاب الله يقول فى هذا المقام : « سبحانك لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » [3] .

هذا وهو أفصح وأعلم مَن ترجم عن ممادح ربه سبحانه ، وهو المؤتَى فى ذلك لجوامع الكلم وحسناها ، وأنفسها عند الله وأسناها ، وهو المخاطَب بقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [4] .

فاعترف عليه السلام بقصور عباراته عن بلوغ المرام فى هذا المقام ، فكيف بسائر الأنام ؟ [5] .

* * *

---

(١) ذكر هذه الأقوال كلها الإمام ابن الوزير فى كتابه الفريد « إيثار الحق على الخلق » ص ١٣٩ وما بعدها - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) طه : ١١٠

(٣) رواه مسلم فى « الصلاة » (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) وابن ماجه (٣٨٤١) من حديث عائشة : « اللَّهُمَّ إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أُحصى ثناءً عليك ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك » ، ولم أجد فى الأصول لفظ « سبحانك » وهى مشتهرة على الألسن .

(٤) النساء : ١١٣　　(٥) إيثار الحق - المرجع السابق ص ١٤٠ - ١٤١

مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلَّا الله

﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

● **علم السَّاعة :**

فأما « علم الساعة » فقد انفرد به الله سبحانه ، ولم يُطلع عليه مَلَكاً مقرَّباً ، ولا نبياً مرسلاً ، وقد وجَّه القرآن الرسول الكريم فى أكثر من آية أن يجيب السائلين عن الساعة بجواب محدد : ﴿ إنما عِلْمُهَا عندَ الله ﴾ (٢) ، و﴿ عندَ ربِّى ﴾ (٣) ، حتى يغلقوا أفواههم فلا يطمعوا فى معرفتها بكثرة السؤال عنها .

نقرأ فى ذلك قوله تعالى فى القرآن المكى :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وفى القرآن المدنى :

﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (٥) .

وفى حديث جبريل المشهور ، سأل النبى ﷺ عن الساعة ، فكان جوابه : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » !

وكما أخفى الله ساعة كل حى عن نفسه ، فلا يعلم متى ينقضى أجله ،

---

(١) لقمان : ٣٤

(٢) الأعراف : ١٨٧ ، والأحزاب : ٦٣

(٣) الأعراف : ١٨٧ ، وطه : ٥٢

(٤) الأعراف : ١٨٧

(٥) الأحزاب : ٦٣

ويُطوى كتابه ، ليعد العدة للغد ، ويستعد للقاء ربه بعمل الصالحات ، واتقاء السيئات فى كل حين . . أخفى سبحانه ساعة الناس جميعاً عنهم ، فلا تأتيهم إلا بغتة ، حتى يتهيأوا لاستقبالها بما ينبغى لها من تقوى الخالق والإحسان إلى الخلق .

كل ما أخبر به الرسول عن الساعة هو أشراطها أو أماراتها وعلاماتها ، صغرى كانت أو كبرى .

وبعثة النبى ﷺ من أمارتها ، فهو آخر الأنبياء ، ليس بعده نبى ، ولا بعد قرآنه كتاب ، ولا بعد شريعته شريعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « بعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » (١) وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى .

وإلى هذا يشير القرآن بقوله : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (٢) .

* *

● **علم تنزيل الغيث :**

وكذلك لا يعلم بدقة وتفصيل : متى ينزل الغيث ؟ وعلى أى مساحة من الأرض ينزل ؟ وكم يستمر نزوله ؟ وما مدى قوته ؟ وهل يتحول إلىٰ سيل جارف وفيضان مدمر ؟

كل ذلك لا يعلمه إلا الله جَلَّ وعَلا . قد تستطيع الأرصاد الجوية أن تتوقع ما يحدث ، بناءً على ظواهر جوية طبيعية نشاهدها ، ونستنتج منها ما يمكن أن يحدث فى الغد ، ولكن هذا لا يعدو أن يكون توقعاً واستنتاجاً ، كثيراً ما يحدث خلافه تماماً ، وكثيراً ما فوجئ أهل الأرصاد بما لم يكن فى حسبانهم . وكثيراً ما توقعوا الأمر هيِّناً فإذا هو يباغتهم بالخطورة ، وقد يكون بالعكس . ويسميها بعضهم مفاجآت الطبيعة ، وربما قال : غدر الطبيعة .

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وأحمد فى مسنده عن أنس بن مالك ، ورواه الثلاثة عن سهل بن سعد ، كما فى الجامع الصغير للسيوطى برقم (٣١٤٦) .

(٢) محمد : ١٨

والمؤمن يردِ ذلك إلى مشيئة الله الذى يُجرى كل شىء فى الكون بقدر وحساب ، وليس شىء فيه يجرى اعتباطاً ، أو يمضى عبثاً . قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١) .

* *

• علم ما فى الأرحام :

ومن مفاتح الغيب التى ذكرها الحديث : علم ما فى الأرحام . وقد ذكر بعض المفسِّرين ، أن المراد : أنه تعالى يعلم ما فى الرحم : أذكر أم أُنثى ؟ . واستغل ذلك بعض دعاة العلمانية اللادينية ، ليتخذوا من هذا القول ذريعة إلى اتهام علماء الدين وتفسير القرآن بأنهم جعلوا القرآن مناقضاً للعلم . فقد أصبح من الميسور اليوم معرفة جنس الجنين من وقت مبكر من الحمل ، ولم يعد هذا من علم الغيب الذى استأثر الله به .

وهذا التفسير لم يجئ عن النبى المعصوم حتى نلتزم به ، بل هو قول من الأقوال ، والآية الكريمة إنما ذكرت أن الله ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ (٢) ، و« ما » فى الآية لفظ عام ، يشمل جنس الجنين ، ويشمل ما هو أكثر من ذلك وأوسع : هل يعيش الجنين حتى ينزل مكتملاً ؟ أو ينزل قبل اكتماله أو يُجهض ؟ وهل يكون ضعيفاً أو قوياً ؟ ذكياً أو غبياً ؟ جميلاً أو قبيحاً ، وما صورة وجهه ولون عينيه ، ونوع شعره ؟ . . . إلى آخر تلك الأسئلة التى لا يقدر على الإجابة عنها بدقة إلا الله تعالى .

وقد عرض القرآن لما فى الأرحام فى آية أخرى وسُورة أخرى فقال : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (٣) .

* *

---

(١) المؤمنون : ١٨ (٢) لقمان : ٣٤ (٣) الرعد : ٨ ، ٩

● وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً :

ومن مفاتح الغيب التى لا يعلمهن إلا الله : ماذا يصنع الإنسان غداً ، وماذا تكسب يداه ، وليس هذا مقصوراً على كسب الرزق كما قد يُتوهم ، وإن كان داخلاً فى الكسب ، ولكن الكسب يشمل كل ما عملت يد الإنسان من خير أو شر يُجزَى عليه فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ (٢) .

والناس من قديم يعترفون بأنهم يجهلون ما يأتى به الغد ، يقول المثقب العبدى فى قصيدته النونية الشهيرة :

ولا أدرى إذا يممتُ أرضاً ... أريد الخير أيهمـــــا يلينى ؟

ءالخـــير الذى أنا أبتغـــيه ... أم الشر الذى هو يبتغينى ؟

قد يخطط الإنسان لما يصنعه فى غده ويرتب الأمر ترتيباً دقيقاً ، ويضع فيه كل شيء موضعه المناسب له ، وربما كتب ذلك وكلّف به من ينفذه ، ولكن كثيراً ما تجدّ أحداث تقلب الأُمور رأساً على عقب ، فيتوقف السائر ، ويسكن المتحرك ، ويسكت المتكلم ، ويمرض الصحيح ، بل يموت الحى ، دون إنذار ولا إعلام ، بحادث مفاجئ ، أو بسكتة قلبية ، أو ذبحة صدرية ، أو غير ذلك مما هو معروف غير منكور لدى الناس . وهذا ما جعل الناس يقولون فى أمثالهم : « العبد فى تفكير ، والرب فى تدبير » !

* *

● وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت :

ومن مفاتح الغيب : العلم بمكان الموت ، ومثله : العلم بزمان الموت ، فلا يعلم الإنسان بأى أرض يموت ، ولا فى أى وقت يموت . كل ما يعلمه أن له

---

(١) المدثر : ٣٨ (٢) الأنعام : ١٦٤

أجلاً مسمًّى عند الله ، وأنه إذا جاء أجله لا يؤخَّر ساعة ، كما لا يُستقدم : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (١) .

وكم من امرئ عاش عمره فى بلد ، ثم قدَّر الله له أن يموت فى بلد آخر ، جعل الله له حاجة فيها ، تكون هى الدافع لانتقاله ، ليموت حيث قدَّر الله له .

يقول الشاعر :

مشـــــيناها خُطاً كُتِبت علينا ... ومَن كتُبت عليه خطاً مشاها !

ومَن كـانت مَنِـــيَّته بأرض ... فليس يموت فى أرض سواها !

* *

• علمُ ما قبل التاريخ :

وإذا كان علم المستقبل بتفاصيله لا يعلمه على وجه القطع إلا الله ، فإن علم الماضى السحيق - علم القرون الأولى قبل التاريخ - مما لم يقم عندنا دليل صحيح عليه ، لا من أثر يشهد ، ولا من خبر يروى ، هو من هذا الوادى الذى نكل العلم فيه إلى الله ، ولا نقفو ما ليس لنا به علم ، ولا نقحم أنفسنا فيما لا تسعفنا وسائلنا وآلياتنا المختلفة فى كشف اللثام عنه .

وهنا لا يسعنا إلا ما وسع كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ، فى المحاورة التى تمت بينه وبين فرعون : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (٢) .

أما إذا خلف القوم وراءهم من المعالم والآثار المشهودات ، أو من الخطوط والجلود والأوراق المكتوبات : ما يمكن استنطاقه بما كان عليه القوم ، فينبغى

---

(١) المنافقون : ١١ (٢) طه : ٤٩ - ٥٢

الاستفادة منه بلا ريب ، استجابة لقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وقد يدخل فى ذلك السير فى الأرض للنظر فى قضية بدء الحياة وكيف كان .

وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ، إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

* *

● علم حقيقة الروح :

ومما قد يدخل فى هذه الدائرة : علم حقيقة الروح التى بها يحيا الإنسان والحيوان .

وفى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

على أن المراد بـ « الروح » فى الآية الكريمة هو روح الإنسان . وهو الراجح لدى المفسِّرين .

وإن كان هناك أقوال أخرى : أن المراد هو « جبريل » بوصفه « الروح الأمين » .

وقيل : المراد بالروح : القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَوْحاً مِن أَمْرِنَا ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) الحج : ٤٦
(٢) العنكبوت : ٢٠
(٣) الإسراء : ٨٥
(٤) الشورى : ٥٢

الفقه فى لسان القرآن

وكما دعا القرآن إلى العلم ، دعا إلى الفقه أيضاً ، فى سوره المكية والمدنية .

والفقه القرآنى ليس هو الفقه بالمعنى الاصطلاحى ، فهذا مما بدَّله الناس من مصطلحات العلوم وأسمائها ، كما بيَّن ذلك الغزالى فى « الإحياء » .

الفقه الاصطلاحى يُراد به : معرفة الأحكام الشرعية الفرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية ، مثل أحكام الطهارة والحيض والنفاس والصلاة والصيام والرضاع والزواج والطلاق . . . ونحوها ، مما يدخل تحت ما عرفه المسلمون باسم « علم الفقه » .

أما الفقه القرآنى فلا يتعلق بذلك ، إنما يتعلق بالفهم لآيات الله فى الآفاق والأنفس ، والتأمل فى سنن الله فى الكون والاجتماع ، فى وضوء شواهد التاريخ ، ودلائل الواقع ، ومعرفة أسرار الله فى خلقه ، ومقاصده فى شرعه .

● الفقه فى القرآن المكى :

ولهذا جاءت هذه الكلمة فى القرآن المكى قبل أن تُشرع الأحكام ، وتُحد الحدود ، وتنزل التفصيلات فى السور المدنية .

يقول تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

وفى نفس السورة نجد القرآن يذكر ألواناً من العذاب يهدد بها المشركين الظالمين ، فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً

---

(١) الأنعام : ٩٨

مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ، ثم يقول تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) . . فهذا فقه في سنن الله وعقوباته للأمم إذا كذبت رسله ، واستحبوا العمى على الهدى .

وقد نجد القرآن الكريم في السياق الواحد يذكر العلم ، ويذكر الفقه ، مفرقاً بينهما . فللعلم موضعه ، وللفقه موضعه . وقد تكرر ذلك في أكثر من موضع .

من ذلك : ما جاء في هذه السورة - سورة الأنعام - في آيتين متتاليتين ، وهما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

لماذا فرَّق بينهما في التعبير ؟ هنا نقرأ لصاحب « الظلال » رحمه الله هذه الكلمات المنيرة :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . .

« فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها . . كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم . . فالاهتداء - كما قلنا - هو الاهتداء في الظلمات الحسِّية الواقعية ، وفي ظلمات العقل والضمير . . والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسِّي ، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها ، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى ؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه ، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم . .

---

(١) الأنعام : ٦٥

(٢) الأنعام : ٩٧ ، ٩٨

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . .

« إنها اللَّمسة المباشرة فى هذه المرة . . اللَّمسة فى ذات النفس البَشرية . النفس البَشرية الواحدة الموحدة الكنه والحقيقة فى الذكر والأُنثى . تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفسٌ هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ، ونفسٌ هى مستقر لها فى رحم الأُنثى . . ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار . فإذا أجناس وألوان ، وإذا شيات ولغات ، وإذا شعوب وقبائل ، وإذا النماذج التى لا تُحصى ، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . .

« فالفقه هنا ضرورى لإدراك صنع الله فى هذه النفس الواحدة ، التى تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح سيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث - فى عالَم لإنسان - لتتم عملية التزاوج التى قدَّر الله أن تكون هى وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفال فى ظروف تحفظ « إنسانيتهم » ، وتجعلهم أكفاء للحياة « الإنسانية » !

« ولا نملك هنا - فى الظلال - أن نبعد فى عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها لجلاء هذه الموافقات - فهى فى حاجة إلى بحث متخصص - ولكننا نذكر فقط كيفية نشأة النطفة « ذكراً أو أُنثى » ، وكيف يتم عن طريق التوزيع الغيبى الربَّانى إنتاج القدر الكافى من الذكور ومن الإناث دائماً لكى تتوافر الأعداد المناسبة لبقاء الحياة وامتدادها . .

« ولقد ذكرنا من قبل عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (١) . . أن الذى يقرر صيرورة البويضة المَلقحة ذكراً أو أُنثى ، و أن يجرى قدر الله بأن يكون عدد « كروموسومات » الحيوان المنوى الذى

---

(١) الأنعام : ٥٩

يلتحم بالبويضة يرجح « كروموسومات » التذكير على « كروموسومات » التأنيث أو العكس ، وأن جريان القدر بهذا أو ذاك غيب من غيب الله . لا سلطان لأحد عليه إلا الله . .

« هذا القدَر الذى يجريه الله فى كل مرة » فيهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، يحافظ على توازن دائم فى الأرض كلها بين عدد مَن يجرى بهم ليكونوا إناثاً » وعدد مَن يجرى بهم ليكونوا ذكوراً . فلا يقع اختلال - على مستوى البَشرية كلها - فى هذا التوازن . الذى عن طريقه يتم الإخصاب والإكثار ، وتتم به حياة زوجية مستقرة فى الوقت ذاته . . ذلك أن الإخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور . . ولكن الله قدَّر فى الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأُنثى ؛ إنما الغاية - التى تميز الإنسان من الحيوان - هى استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأُنثى . . لما وراء هذا الاستقرار من أهداف لا تتم إلا به . وأهمها استقرار الذُرِّيَّة فى كنف أبوين فى محيط أُسرة ، ليتم إعداد هذه الذُرِّيَّة لدورها « الإنسانى الخاص - فوق إعدادها لتحصيل القوت وحماية النفس كالحيوان - والدور « الإنسانى » الخاص يحتاج إلى الاستقرار بين أبوين فى أُسرة فترة أطول جداً مما تحتاج إليه طفولة الحيوان !

« وهذه الموازنة الدائمة تكفى وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره . . ولكن لقوم يفقهون : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . .

« أما المطموسون المحجوبون . . وفى أولهم أصحاب « العلمية » الذين يسخرون من « الغيبية » . فإنهم يمرون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [(١)] ، [(٢)] .

* *

---

(١) الأعراف : ١٤٦

(٢) انظر : فى ظلال القرآن : ٧/١١٥٩ ، ١١٦٠ - طبع دار الشروق .

● نفى الفقه عن الكفار والمنافقين :

ولا غرو أن نفى الله تعالى هذا الفقه عن الكفار وعن المنافقين .

فيقول عن الكفار : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (١) .

ويقول مخاطباً المؤمنين : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

فهكذا يعلل غلبة المسلمين عليهم بأنهم ينقصهم الفقه : ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ويقول فى شأن اليهود : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

ويقول فى شأن المنافقين : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ، لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٤) .

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ ، صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦) .

قال فى « تفسير المنار » فى قوله : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ : « جملة تحتمل الدعاء والخبر ، ومضمونهما فى كلام الله واحد ، والمعنى : صرف الله قلوبهم عن صدق الإيمان ، والاهتداء بآيات الله فى القرآن ، المرشدة إلى آياته فى الأكوان : ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أى بسبب أنهم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية ،

---

(١) الأعراف : ١٧٩ (٢) الأنفال : ٦٥ (٣) الحشر : ١٣

(٤) التوبة : ٨١ (٥) التوبة : ٨٧ (٦) التوبة : ١٢٧

وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، لعدم استعمال عقولهم فيها ، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات ، لعدم تدبرها ، والإعراض عن النظر والتأمل فى معانيها ، وموافقتها للعقل ، وهدايتها إلى الحق والعدل ، ذلك بأنهم اتخذوا أنفسهم أعداءً وخصوماً للرسول ، فوطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به ، من غير بحث ولا تأمل فيه : أمعقول أم غير معقول ؟ أحق أم باطل ؟ أخير أم شر ؟ أهُدىً أم ضلال ؟ أنافع أم ضار ؟ فأنَّى يُرجى لهم - وهذه حالهم - أن يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور » (١) .

وفى السورة التى سميت « سورة المنافقين » وصفهم الله فى آيتين بأنهم ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

الأُولى : قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

والثانية قوله : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣) .

وبذلك نجد أن نصيب المنافقين من الحرمان من الفقه أكثر من غيرهم ، وذلك لما فى قلوبهم من المرض ، الذين يحول بينهم وبين هذا الفقه ، سواء أكان مرض الشبهات أم مرض الشهوات .

* *

● كلمات من « ظلال القرآن » :

ويحسن بنا أن ننقل هنا هذه الكلمات المضيئة عن صاحب « الظلال »

---

(١) تفسير المنار : ١١/ ٨٥ - طبعة ثانية .

(٢) المنافقون : ٣ — (٣) المنافقون : ٧

رحمه الله تعليقاً على الآية الكريمة : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ (١) :

« وهى قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسَّة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسِّهم ، فيحاربون بها المؤمنين .

« إنها خطة قريش وهى تقاطع بنى هاشم فى الشِعْب ، لينفضّوا عن نُصرة رسول الله ﷺ ويُسلموه للمشركين !

« وهى خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية ، لينفضّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

« وهى خطة الشيوعيين فى حرمان المتدينين فى بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

« وهى خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامى فى بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق . .

« وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) . .

« ومن خزائن الله فى السموات والأرض يرتزق هؤلاء ، الذين يحاولون أن يتحكموا فى أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم ، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

« وهكذا يُثبّت الله المؤمنين ويُقوّى قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة

---

(١) المنافقون : ٧

(٢) المنافقون : ٧

والوسيلة الخسيسة ، التى يلجأ أعداء الله إليها فى حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله فى السموات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع . والذى يعطى أعداءه لا ينسى أولياءه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيراً ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق ؟ وهو أكرم أن يكل عباده – ولو كانوا أعداءه إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء » ! [1] .

* * *

(١) فى ظلال القرآن : ٢٨/٣٥٧٩ – طبع دار الشروق .

الحكمة فى لسان القرآن

ومن الكلمات القرآنية التى لها صلة بموضوع العلم والعقل : كلمة « الحكمة » ، وقد تكررت فى كتاب الله - مُعرَّفة ومُنكَّرة - عشرين مرة ، عشر منها مقرونة بالكتاب ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

ولكن ما المراد بـ « الحكمة » ؟

قال الراغب فى « مفردات ألفاظ القرآن » : « الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . فالحكمة من الله تعالى : معرفة الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام ، ومن الإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات ، وهذا هو الذى وُصِفَ به لقمان فى قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ [1] ، ونبَّه على جملتها بما وصفه بها » [2] .

● الحكمة نظرية وعملية :

وقال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير : « اعلم أن الحكمة هى : الإصابة فى القول والعمل ، ولا يسمى حكيماً إلا مَن اجتمع له الأمران . وقيل : أصلها من أحكمت الشىء ، أى رددته ، فكأن الحكمة هى التى ترد عن الجهل والخطأ . وذلك إنما يكون بما ذكرنا من الإصابة فى القول والفعل ، ووضع كل شىء موضعه . قال القفَّال : وعبَّر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البَشرية [3] .

وعبَّر بعضهم عن ذلك بعبارة : « التخلق بأخلاق الله تعالى » والمراد : أن

---

(١) لقمان : ١٢ — (٢) مفردات ألفاظ القرآن ص ٢٤٩

(٣) تفسير الرازى : ٤/ ٧٤

يكون له حظ من أسمائه وصفاته تعالى بما يليق ببَشريته ، وبقدر وسعه وطاقته .

قال الفخر : « واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين (العلمى والعملى) وذلك لأن كمال الإنسان فى شيئين : أن يعرف الحق لذاته (أى ليؤمن به) و(يعرف) الخير لأجل العمل به . فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطابق ، وبالثانى إلى فعل العدل والصواب ، فحكى تعالى عن إبراهيم ﷺ قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ [1] ؛ الحكمة العملية . ونادى موسى عليه السلام فقال : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَاْ ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية ، ثم قال : ﴿ فَاعْبُدْنِى ﴾ [2] ؛ وهو الحكمة العملية . وقال عن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً ﴾ [3] . . . إلخ ؛ وكل ذلك للحكمة النظرية . ثم قال : ﴿ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [4] ؛ وهو الحكمة العملية . وقال فى حق محمد ﷺ : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية . ثم قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ . . . ﴾ [5] ؛ وهو الحكمة العملية . وقال فى جميع الأنبياء : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَاْ ﴾ ؛ وهو الحكمة النظرية ، ثم قال : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ [6] ؛ وهو الحكمة العملية » [7] .

وقال تعالى فى بيان فضل الحكمة وأهميتها : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [8] .

---

(١) الشعراء : ٨٣ — (٢) طه : ١٤ — (٣) مريم : ٣٠

(٤) مريم : ٣١ — (٥) محمد : ١٩ — (٦) النحل : ٢

(٧) تفسير الرازى : ٧/ ٧٢ ، ٧٣ — (٨) البقرة : ٢٦٩

وإذا كان الله تعالى قد اعتبر الدنيا كلها « متاعاً قليلاً » ، فما تكون قيمة هذا الخير الذى وصفه الله بأنه كثير ، وهو من ثمرات الحكمة .

وذلك أنه بهذه الحكمة يميز بين الإلهام الربّانى ، والوسواس الشيطانى ، فقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● **مهمة النبى تعليم الكتاب والحكمة :**

وقد جعل القرآن من شُعَب مهمة النبى ﷺ فى الأُمة : « تعليم الكتاب والحكمة » ، وذلك فى أربع آيات من كتاب الله تعالى :

أُولاها : كانت فى دعاء إبراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان البيت العتيق . فكان منه : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

والثانية : فى نفس السورة فى معرض الامتنان برسالة الرسول الكريم حيث قال : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

والثالثة : فى سورة آل عمران فى معرض الامتنان على المؤمنين بالبعثة المحمدية : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٢٦٨
(٢) البقرة : ١٢٩
(٣) البقرة : ١٥١
(٤) آل عمران : ١٦٤

والرابعة : فى سورة الجمعة فى مقام الامتنان على الأُميين من العرب ببعثة الرسول إليهم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وقد اختلف مفسِّرو السَّلَف فى معنى الحكمة فى هذه الآيات .

فروى ابن جرير عن ابن وهب قال : قلت لمالك : ما الحكمة ؟ قال : المعرفة بالدين ، والفقه فى الدين ، والاتباع له .

وروى ابن جرير عن قتادة أن الحكمة هى السُّنَّة .

ويبدو أن ذلك باعتبار السُّنَّة بيان القرآن النظرى ، وتطبيقه العملى .

وروى عن ابن وهب أيضاً قال : قال ابن زيد فى قوله : ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ : الحكمة : الدين الذى لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم ، يعلمهم إياها . قال : والحكمة : العقل فى الدين . وقرأ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٢) ، وقال عن عيسى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٣) . قال : وقرأ ابن زيد : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ (٤) ، قال : لم ينتفع بالآيات ، حيث لم تكن معها حكمة ، والحكمة شىء يجعله الله فى القلب ، ينور له به (٥) .

وقال الرازى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ : أى يعلمهم ما فيه من الأحكام . ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ : أراد بها أنه يعلمهم حكمة تلك الشرائع ، وما فيها من وجوه المصالح والمنافع (٦) .

* *

---

(١) الجمعة : ٢
(٢) البقرة : ٢٦٩
(٣) آل عمران : ٤٨
(٤) الأعراف : ١٧٥
(٥) انظر : تفسير ابن جرير الطبرى : ٣/٨٦ ، ٨٧ - طبعة دار المعارف بتحقيق محمود وأحمد محمد شاكر .
(٦) تفسير الرازى : ٤/٧١

● الحكمة فى « تفسير المنار » :

وقال فى تفسير المنار فى معنى : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) : أى الكتاب الإلهى ، أو الكتابة التى يخرجون بها من ظلمة الأمية والجهل إلى نور العلم والحضارة ، ويجوز الجمع بين المعنيين ، على القول الصحيح باستعمال المشترك فى معنييه ، أو فيما يقتضيه المقام من معانيه .

وأما الحكمة فهى العلم المقترن بأسرار الأحكام ، ومنافعها ، الباعث على العمل بها .

قال : وفسَّرها بعضهم بالسُّنَّة ، وهو غلط ، فإنها (أى الحكمة) أُطلقت على بعض نصوص الكتاب كالعقائد والفضائل والأحكام الإيجابية والسلبية ، بدليل قوله تعالى بعد الوصايا المقرونة بعلل الأمر والنهى من سورة الإسراء : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (٢) ، وفى سورة لقمان أن الله آتاه الحكمة ، وذكر منها وصاياه لابنه المعلَّلة بأسباب النهى ، فحكمة القرآن أعلى الحكم ، وتليها حكمة الرسول ﷺ .

وفى الحديث : « لا حسد إلَّا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويُعلِّمها » (٣) ، وفى بعض رواياته : « فهو يعمل بها ويُعلِّمها للناس » (٤) .

* *

● المراد بـ « الكتاب والحكمة » :

ولا بد من تفسير ﴿ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ تفسيراً يصلح المعنى فيه لكل المواقع التى وردت الكلمتان فيها .

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) الإسراء : ٣٩

(٣) رواه الشيخان من حديث ابن مسعود . (٤) تفسير المنار : ٢/ ٢٩ – الطبعة الثالثة .

فقد وصف الله بإيتائهما آل إبراهيم : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (١) ، ولا يمكن أن يكون المراد هنا : السُّنَّة . إذ المقصود بالسُّنَّة : سُنَّةَ محمد ﷺ .

وقال تعالى فى مقام تبشير مريم بابنها عيسى عليه السلام : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٢) .

وفى مقام امتنانه على عيسى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٣) .

ولا يمكن أن تُفسَّر الحكمة هنا أيضاً بالسُّنَّة .

كما لا يمكن تفسير الكتاب بالتوراة أو الإنجيل ، لأنها مذكوران فى نفس النص .

فالمراد بالكتاب إذن : إما مصدر « كتب » أى الكتابة بالخط ، وهو الذى يُخرج الإنسان من الأُمية ، ولهذا لم يمنّ بذلك على محمد ﷺ ، ولكن على أُمَّته : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٤) ، لأن الأمية فيه دلالة على الإعجاز الإلٰهى : أن يصدر من هذا الأُمِّى أعظم كتاب عرفه الوجود « فى مضمونه وفى نظمه وفى بيانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٥) .

أو المراد بـ « الكتاب » : جنس الكتب الإلهية . . ثم عطف عليه التوراة والإنجيل من باب عطف الخاص على العام « لأهميتهما وخصوصيتهما .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن

---

(١) النساء : ٥٤ (٢) آل عمران : ٤٨ (٣) المائدة : ١١٠

(٤) البقرة : ١٢٩ (٥) العنكبوت : ٤٨

كِتَاب وَحِكْمَة ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ (١) . . . الآية

فكلمة « كتاب » هنا : لا تعنى كتاباً معيَّناً ، وإنما جنس ما أنزل الله من كتب السماء .

والحكمة - فى هذه المواضع كلها - يراد بها : حسن الفهم للكتب والتفقه فى أحكامها ، بحيث يعرف مقاصدها وأسرارها ، ولا يقف عند ظواهرها ، ويعرف ما وراء أحكامها وتوجيهاتها من المنافع والمصالح الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة ، وسعادة الفرد والمجتمع ، فى مادياتهما ومعنوياتهما . . بحيث يدفع هذا الفقه المنشود إلى حُسْن العمل بها ، ووضعها فى موضعها الملائم .

وهذه الحكمة هبة أو نعمة من الله يؤتيها لمن يشاء من عباده ، كما قال تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ (٢) .

وقد يُعبِّر عن هذا الإيتاء الإلهى بالإنزال ، كما فى قوله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (٣) . فليس المقصود بالإنزال هنا : أن الله أنزل بها جبريل عليه السلام كالقرآن . بل ألهم الله بها رسوله ، ومَنَّ عليه بها .

وقال فى تفسير المنار : « الحكمة : العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة : إلى العمل النافع ، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم ، لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل » (٤) .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ قال فى المنار : « فسَّر الأستاذ الإمام « الحكمة » - هنا - بالعلم الصحيح يكون صفة محكمة فى

---

(١) آل عمران : ٨١

(٢) البقرة : ٢٦٩

(٣) النساء : ١١٣

(٤) تفسير المنار : ٣/ ٣١٠

النفس ، حاكمة على الإرادة ، توجهها إلى العمل . ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح ، كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة . وكم من محصل لصور كثير من المعلومات ، خازن لها فى دماغه ، ليعرضها فى أوقات معلومة ، لا تفيده هذه الصور التى تسمى علماً ، فى التمييز بين الحقائق والأوهام ، ولا فى التزييل بين الوسوسة والإلهام ؛ لأنها لم تتمكن من النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإرادة ، وإنما هى تصورات وخيالات تغيب عند العمل ، وتحضر عند المراء والجدل ، قال الأستاذ الإمام ما معناه : والمراد بإيتائه الحكمة من يشاء : إعطاؤه آلتها - العقل - كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة فى تحصيل العلوم الصحيحة . فالعقل هو الميزان القسط الذى توزن به الخواطر والمدركات ، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات ، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام ، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام » .

قال السيد رشيد : « وهذا القول يتفق مع ما روى عن ابن عباس من أن « الحكمة هى الفقه فى القرآن » ؛ أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعللها وحكمها ؛ لأن هذا الفقه هو أجَلّ الحقائق المؤثرة فى النفس ، الماحية لما يعرض لها من الوساوس ، حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح . . . .

ولكن الفقه فى القرآن ، لا يكون إلا بكمال العقل ، وحُسْن استعماله فى الفهم ، والبحث عن فوائد الأحكام وعللها ودلائل المسائل وبراهينها . فالحَبْر (يعنى ابن عباس) فسَّر الحكمة بالأخص ، رعاية للمقام ، والأستاذ الإمام فسّرها بالأعم ، بياناً لشمول هداية القرآن . فالآية بإطلاقها رافعة لشأن الحكمة بأوسع معانيها ، هادية إلى استعمال العقل فى أشرف ما خُلِق له ، ومَن رزئ بالتقليد كان محروماً من ثمرة العقل وهى الحكمة ، ومحروماً من الخير الكثير الذى أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [1] ، فيكون كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن

---

(١) البقرة : ٢٦٩.

وجهالة شياطين الإنس ، يتوهم أنه قد يستغنى بعقول الناس عن عقله ، وبفقه الناس عن فقه القرآن » (١) .

* *

● الدعوة بالحكمة :

وقد أمر الله تعالى بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) .

وأظهر ما تكون الحكمة فى مخاطبة العقول لتقتنع وتستنير ، وأظهر ما تكون الموعظة فى مخاطبة القلوب لتتأثر وتتحرك ، والداعية الموفق هو الذى يخاطب العقل والقلب معاً ، وهذا هو نهج القرآن ، ونهج الرسول عليه الصلاة والسلام .

والأنبياء والرُّسُل جميعاً كانوا دعاة إلى الله بالحكمة ، لا بالحماقة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالكلمة الخشنة ، ومن ثَمَّ وصفهم الله بأنهم آتاهم الحكمة فى كثير من آيات كتابه .

كما قال عن آل إبراهيم : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٣) .

وقال عن داود : ﴿ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٤) ، ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير المنار : ٣/ ٧٥ ، ٧٦ - الطبعة الثالثة .

(٢) النحل : ١٢٥

(٣) النساء : ٥٤

(٤) البقرة : ٢٥١

(٥) سورة ص : ٢٠

وقال عن عيسى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ (١) .

وقد يُعبِّر القرآن عن « الحكمة » بـ « الحكم » فكلمة الحكم تعنى : الفصل والقضاء ، كما تعنى : الحكمة أيضاً .

ولقد لاحظنا أن القرآن الكريم تحدَّث عن عدد من الرُّسُل بأن الله آتاهم حكماً وعلماً .

قال ذلك عن لوط ويوسف وموسى وداود وسليمان .

وقد يفرد الحكم وحده كما قال عن إبراهيم أنه دعا ربه فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

وقال عن موسى : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُم لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

وقال عن يحيى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ (٤) .

وقال عن ثمانية عشر رسولاً ذكرهم فى سورة الأنعام : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (٥) .

* * *

---

(١) الزخرف : ٦٣ (٢) الشعراء : ٨٣ (٣) الشعراء : ٢١

(٤) مريم : ١٢ (٥) الأنعام : ٨٩

الفصل الرابع

التعلم والتعليم فى القرآن

- التعلم عن طريق القراءة والتلقى .
- سؤال أهل الذكر والخبرة .
- الرحلة فى طلب العلم .
- ممن نتعلم ، وكيف نتأدب مع المعلم ؟
- وسائل تحصيل العلم .
- التعليم والبيان بعد التعلم .
- ألا يستحى من قول : « لا أعلم » .

التعلم والتعليم .. فى القرآن

• القرآن يأمر بالتعلم عن طريق القراءة :

أمر القرآن الكريم بالتعلم ، منذ أول آيات أنزلها الله من وحيه على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

أمرت الآيات الكريمة بالقراءة مرتين ، والأمر لرسول الله بالأصالة ، ولكل مَن يتأتى خطابه بالتبع . والقراءة هى وسيلة التعلم ، ومفتاح العلم ، سواء فسَّرنا القراءة بالمعنى الحقيقى ، وهى القراءة للكتاب المسطور ، أم فسَّرناها بالمعنى المجازى ، وهى القراءة لكتاب الكون المشهود . على نحو ما قال الشاعر :

تأمل سطور الكائنات ، فإنهـا ... من الملأ الأعلى إليك رسـائل

وقد خُطَّ فيها لو تأملت سطرها : ... ألا كل شىء ما خلا الله باطل !

ولعل ذكر « القلم » فى السياق ، يرجح التفسير الحقيقى للقراءة ، فهو أداة التعلم .

ومن أوائل ما نزل من القرآن سورة « القلم » ، وفيها يقسم الله بهذه الأداة

---

(١) العلق : ١ - ٥

الخطيرة ، التى تنقل العلم من فرد إلى فرد ، ومن جيل إلى جيل ، ومن أُمة إلى أُمة : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) .

* *

● التعلم عن طريق التلقى والمشافهة :

ومن وسائل التعلم : تلقى العلم عن أهله عن طريق السماع والمشافهة والصحبة .

ومن هنا حرَّض القرآن على النفير لطلب العلم ، والتفقه فى الدين ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

استخدم القرآن هنا كلمة « النفير » فى قوله : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ . . . . ﴾ ، وهى الكلمة التى تُستخدم فى الجهاد ، ليوحى بأن طلب العلم ضرب من الجهاد فى سبيل الله .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى : « مَن خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

والمراد بنفير الطائفة المؤمنة للتفقه فى الدين : أن تتلقاه على أيدى العلماء الربَّانيين الثقات . الذين يَعلمون ويَعملون ويُعلِّمون ، بحيث يعيشون فى جو العلم ، وفى صحبة أهله ، يأخذون عنهم مشافهة ، وبلا واسطة ، ويسألونهم فيما خفى عليهم ، ويناقشونهم فيما لم يقتنعوا به ، ويستمعون إلى أسئلة زملائهم ومناقشاتهم ، وإلى أجوبة شيوخهم وشروحهم ، وتتكوَّن من خلال ذلك كله « مَلَكة » العالِم ، وعقلية الباحث ، الذى يعرف الحق بدليله ، ويعرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال .

---

(١) القلم : ١ (٢) التوبة : ١٢٢

ومن أجل ذلك كان السَّلَف يرون التعلم الحقيقى إنما يكون بصحبة العلماء ، وملازمة مجالس العلم ، ولا يكتفون بمجرد قراءة الكتب أو الصحف من غير أخذ عن شيخ يسدد الطالب إذا أخطأ ، ويبين له ما التبس عليه .

ولهذا كان من وصاياهم الشهيرة لمن يطلب العلم : لا تأخذ العلم من صُحُفى ، ولا القرآن من مصحفى !

يقصدون بالصُحُفى : الذى يأخذ العلم من الصحف ، لا من شيوخه وأربابه المتقنين له ، العارفين بدقائقه ، القادرين على كشف غوامضه ، وفك رموزه ، وتفسير مصطلحاته .

ويقصدون بالمصحفى : الذى تعلَّم القرأءة من المصحف وحده ، ولم يتلقه على أيدى القُرَّاء المجيدين ، يقرؤه عليهم سورة سورة ، بل آية آية ، يُصوِّبونه إذا أخطأ ، ويُقوِّمونه إذا اعوج ، فى نطق كلمة ، أو مخرج حرف ، أو غنَّة أو مدَّة ، أو إدغام أو إخفاء ، أو إظهار أو إقلاب ، أو غير ذلك مما يعرفه قُرَّاء القرآن .

وسنذكر بعد ذلك رحلة كليم الله موسى عليه السلام ، لأخذ العلم مشافهة من عبد الله الذى آتاه رحمة من عنده ، وعلَّمه من لدُنْه علماً ، والمعروف باسم الخضر عليه السلام .

* *

● فضل الكلب المعلَّم على غيره :

ومن لطائف المعانى التى أشار إليها القرآن : أن التعلم يرفع من قدر المتعلم ، ويعلى من شأنه ، إنساناً كان أو حيواناً ، حتى رأينا الكلب المعلَّم - فيما ذكره القرآن - يؤكل ما صاده ، ويُعتبر طعاماً حلالاً ، لأنه لم يصده لنفسه ، إنما صاده لصاحبه الذى علَّمه ، وبتعبير القرآن : إنه لم يمسك الصيد على نفسه ، إنما أمسكه على صاحبه ، وهذه هى ميزة الكلب المعلَّم على غيره .

يقول القرآن فى ذلك : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ (١) .

وإذا كان هذا شأن الكلب إذا تعلَّم شيئاً وأتقنه ، ومثله الطائر ، مثل الصقر ، الذى يُعلَّم الصيد ، فيُشترى بمئات الألوف ، كما نسمع ذلك فى منطقة الخليج العربى ، فما بالكم بالإنسان إذا تعلَّم علماً نافعاً ، أو صنعة يحتاج إليها الناس ، كم يعلو قدره ، وتغلو قيمته ؟!

يقول الشاعر :

تعلَّم فليس المـــرء يولد عـــــالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل !

* *

● طلب الزيادة فى العلم :

ومن أدب التعلم كما يهدى إليه القرآن : ألا يقف المتعلم عند حد معيَّن من المعرفة ، ثم يقول : حسبى هذا لا أزيد عليه . فإن العلم بحر لا ساحل له ، ولا قرار له ، ومهما اغترف الإنسان منه فسيظل فى حاجة إلى المزيد ، ولا يمكن أن يصل إلى درجة « التشبع » المطلق . وفى هذا قال الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (٢) . ولم يرد فى القرآن كله أمر آخر للرسول الكريم بطلب الزيادة منه ، غير العلم ، وهذا دليل على فضيلة العلم ومزيته على ما سواه .

ولأجل هذا جاء عن النبى ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا » (٣) .

---

(١) المائدة : ٤ (٢) طه : ١١٤

(٣) أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » عن ابن مسعود وقال : رواه الطبرانى فى « الكبير » ، وفيه أبو بكر الداهرى ، وهو ضعيف ، كما رواه الطبرانى فى « الكبير » =

وكان سَلَف الأُمة يطلبون الزيادة فى العلم ، ولا يتوقفون عن طلبه ، وإن بلغوا من السن ما بلغوا ، أو ارتقوا إلى أعلى مراتب العلم فى نظر الناس ، بل هم كلما ارتقوا فى درجات سلّم العلم شعروا بأنهم لا زال ينقصهم الكثير ، فازدادوا له طلباً ، وعليه حرصاً .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

كلما أدّبنى الدهـــــر أرانى نقص عقـــــلى !

أو أرانى ازددت علماً زادنى علماً بجـــــــهلى !

سُئل أبو عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما دام تحسن به الحياة .

وقيل لعبد الله بن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : حتى الممات إن شاء الله .

وقيل له ذلك مرة أخرى ، فقال : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد !

وسُئل سفيان بن عيينة : مَن أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال : أعلمهم ؛ لأن الخطأ منه أقبح !

وقيل للمأمون : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به !

وقال ابن أبى غسان : لا تزال عالماً ما كنت متعلماً ، فإذا استغنيتَ كنت جاهلاً !

= و« الأوسط » ، والبزار عن ابن عباس ، وفيه ليث بن أبى سليم ، وهو ضعيف (١/ ١٣٥) ، ورواه أيضاً أبو خيثمة فى « العلم » ، ورواه ابن عدى أيضاً عن أنس ، وذكره الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » وزيادته (٦٦٢٤) ولعله صحَّحه بمجموع طرقه !

وقال قتادة : لو كان أحد يكتفى من العلم بشيء ، لاكتفى موسى عليه السلام ، ولكن قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (١) ، (٢) .

* *

● سؤال أهل الذكر والخبرة :

ومن الأدبيات القرآنية المهمة فى مجال العلم : وجوب الرجوع إلى أهل الخبرة فى كل علم وفن ، وسؤال أهل الذكر فى كل موضوع ، فهم الذين يستطيعون أن يحلوا العقد ، ويعالجوا العضل من المسائل ، والعويص من القضايا .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومثل ذلك قوله تعالى لرسوله : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٤) ، فالخبير هو الذى يجيب بعلم إذا سُئل ، ويقول : لا أدرى فيما يجهل .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٥) .

ويقول جَلَّ شأنه : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (٦) .

فلا يجوز أن نترك كل الأمور فوضى ، يدخل فيها كل مَن هبَّ ودبَّ ، وخصوصاً ما يتعلق بالأمن والخوف ، أو ما يتعلق بأمن الجماعة أو الأمن القومى ، فهذا يجب أن يرد إلى أهله ، وذوى الشأن فيه ، العارفين بدخائله ، القادرين على استنباط الحكم المناسب بعقولهم الذكية .

وقد أدخل كثير من أئمة مفسِّرى السَّلَف والخَلَف : العلماء فى ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾

---

(١) الكهف : ٦٦

(٢) ذكر هذه الآثار كلها وغيرها الحافظ ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » فى باب « الحض على استدامة الطلب والصبر على اللأواء والنَّصَب » : ١/٩٥ - ١٠٠

(٣) النحل : ٤٣ ، والأنبياء : ٧

(٤) الفرقان : ٥٩ (٥) فاطر : ١٤ (٦) النساء : ٨٣

الذين أمر الله تعالى بطاعتهم ، كما أمر بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

فإذا كان هناك مَن فسَّر ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ ﴾ بالأمراء ، فهناك مَن فسَّرهم بالعلماء ، على أن أولى الأمر لا تجب طاعتهم حقاً إلا إذا كانوا هم علماء أو كانوا فى طاعة العلماء ، ولهذا قال مَن قال من رجال السَّلَف : الملوك حُكَّام على الناس ، والعلماء حُكَّام على الملوك ، وهو ما عبَّر عنه الشاعر بقوله :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحـكم العلماء !

وستظل الأُمة بخير ما دام فيها من أهل الذكر والخبرة مَن إذا سُئِل أجاب بالصواب ، وإذا استُفتى أفتى بعلم ، وإذا استُقضى قضى بحق ، وما دام الناس يتوجهون إلى هؤلاء يسألونهم فى المُلِمّات ، ويستفتونهم فى المشكلات .

أما إذا اختفى هذا الصنف من الأُمة ، فهذا هو الخطر الماحق الذى يهدد كيانها المعنوى ، حين تستفتى الأمة الجُهَّال ، فيفتونها بغير علم ، فيُعسِّرون عليها اليسير ، ويُصعِّبون عليها السهل ، ويُحرِّمون عليها الحلال ، أو يحلون لها الحرام ، ويُسقطون عنها الفرائض ، أو يُلزمونها بما لم يُلزمها به الله ، وهذا ما حذَّر منه رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً ، فَسُئِلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلَّوا وأضلُّوا » (٢) .

إن فتوى الجاهل قد تُفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، قد تقتل مَن يستحق الحياة ، وقد تخرب ما يستحق العمران ، وحسبنا مثلاً على ذلك فتوى أولئك

---

(١) النساء : ٥٩

(٢) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

الذين أفتوا – فى زمن رسول الله ﷺ – الرجل الذى أصابته جنابة وبه جراحة ، أن يغتسل من جنابته برغم جراحته ، فاشتد عليه الجرح وتفاقم أثره حتى مات ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « قتلوه قتلهم الله ! هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ إنما شفاء العِيّ السؤال ، إنما كان يكفيه أن يعصب على جرحه ويتيمم » (١) .

• •

• حُسْن السؤال :

وإذا كان المسلم مُطالَباً أن يسأل أهل الذكر والخبرة فى كل علم وفن ، فهو مطالَب أيضاً أن يحسن السؤال فيما يسأل عنه ، فيسأل عما ينفعه فى دينه أو دنياه ، ولا يسأل فيما لا فائدة من ورائه ، ويسأل فى الوقت المناسب ، وفى الحال المناسب ، ولا يكثر من الأسئلة فيما لا طائل تحته .

وقد ذكر القرآن لنا قصة بنى إسرائيل ، وكيف قال لهم نبيهم موسى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ (٢) . وكان يمكنهم أن يذهبوا إلى أى بقرة فيذبحوها ، فتجزئهم . ولكنهم غلبهم اللجاج فسألوا وسألوا وسألوا : ما هى ؟ ما لونها ؟ ثم ما هى مرة أخرى ؟؟ وكل سؤال يوجب عليهم تكليفاً كانوا فى سعة منه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ، قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ

---

(١) رواه أبو داود عن جابر ، كما فى « صحيح الجامع الصغير » (٤٣٦٢) ، ورواه هو وأحمد والحاكم باختصار عن ابن عباس (المرجع نفسه : ٤٣٦٣) .

(٢) البقرة : ٦٧

النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ، قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره : « أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل ، وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيّقوا على أنفسهم ضيّق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد : شدَّدوا فشُدِّد عليهم » (٢) .

وقد ذكر القرآن أنواعاً من الأسئلة بعضها عن المشركين مثل السؤال عن الساعة : ﴿ يسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ (٣) ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ (٤) ، وقد تكرر فى القرآن ، وهو سؤال لا ثمرة له ، لذا كان جوابه : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ . ومثل السؤال عن الجبال : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ (٥) .

وبعضها من اليهود ، أو عن طريق دلالتهم لقريش ، مثل السؤال عن الروح ، وعن ذى القرنين .

أما معظم الأسئلة فهى من المؤمنين ، أى من الصحابة رضى الله عنهم ، ويلاحظ أنها أسئلة قليلة محدودة ، وأنها كلها أسئلة عملية متصلة بحياة الناس ، ممتزجة بواقعهم ، مثل سؤالهم عن الأهلَّة ، وسؤالهم : ماذا ينفقون ؟ وقد جاء هذا السؤال مرتين فى سورة البقرة ، ودلَّ الجواب أن المراد فى إحدى الآيتين هو مقدار الإنفاق ، ودلَّ الآخر أن المراد به : فيم يكون الإنفاق ؟

---

(١) البقرة : ٦٧ - ٧١ (٢) تفسير ابن كثير : ١/ ١١٠ - طبعة الحلبى .

(٣) الأحزاب : ٦٣ (٤) الأعراف : ١٨٧ (٥) طه : ١٠٥

ومثل السؤال عن الخمر والميسر ، والسؤال عن اليتامى ، والسؤال عن المحيض ، والسؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، وسؤالهم : ماذا أُحِلّ لهم ؟ وسؤالهم عن الأنفال ، واستفتائهم فى النساء ، وفى الكلالة ، فكلها أحد عشر سؤالاً ، تسعة منها بصيغة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ، واثنان بصيغة : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ .

قال ابن عباس : « ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ، ما سألوه إلّا عن ثلاث عشرة مسألة ، كلهن فى القرآن ، ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم » (١) .

والذى يبدو لى أن أسئلة الصحابة : أحد عشر ، وليست ثلاثة عشر ؛ سبعة منها فى البقرة ، وواحدة فى المائدة ، وأُخرى فى أول الأنفال . كلها بصيغة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ، واثنتان فى النساء بصيغة : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ ، وقد يُضاف إليها قوله تعالى فى البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

ولا أدرى وجه جعلها ثلاثة عشر من ابن عباس ، فلعله - رضى الله عنه - اعتبر من أسئلتهم أحد الأسئلة الأُخرى التى اعتبرناها من المشركين أو من اليهود أو بتوجيههم مثل السؤال عن الروح أو عن ذى القرنين .

والمهم فى قول ابن عباس ثناؤه على الصحابة بقلة أسئلتهم من ناحية ، وسؤالهم عما ينفعهم من ناحية أُخرى ، فلم يشغلوا أنفسهم بالمسائل التافهة ، والتعمقات التى لا طائل من ورائها ، والسؤال عما يوجب العنت والحَرَج فى الدين .

وهذا إنما هو باعتبار الغالب على الصحابة ، ولا ينافى هذا سؤال بعضهم : مَن أبى ؟ ، وأين أبى ؟ وما روى فى التفسير أنهم سألوا عن الهلال : ما باله يبدو رقيقاً كالخيط ، ثم لا يزال ينمو حتى يصير بدراً ، ثم لا يزال ينقص إلى أن يعود كما كان ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ هِيَ

---

(١) انظر : الموافقات للشاطبى : ٣١٤/٤ ، ٣١٥

(٢) البقرة : ١٨٦

مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (١) .

فالملاحَظ أنه أجابهم هنا بمنافع الأهلَّة في الدين والدنيا ، ولم يجبهم عن سؤالهم ، لأن تعريفهم بحقيقة ما يرونه من تغير فى صورة الهلال يحتاج إلى علوم ومعارف لم يتأهَّلوا لها بعد ، فعدل عن الإجابة عن حقيقة سؤالهم إلى الإجابة عن الفائدة من الأهِلَّة ، وأنها مواقيت للناس فى عباداتهم ومعاملاتهم ، وخصوصاً الحج .

ثم نبَّههم على فعلٍ لا معنى له كانوا يرتكبونه فى الجاهلية ، إذا قدم الرجل من الحج : أن يدخل بيته من ظهره لا من بابه ، وبيَّن لهم أن هذا ليس من البر فى قليل ولا كثير ، وإنما البر هو بر أهل التقوى .

وهناك تفسير يتجه بهذه الفقرة من الآية اتجاهاً آخر لعله أقرب ، وهو أنهم فى سؤالهم عن تغير الهلال ، عكسوا فى سؤالهم ، فسألوا عما لا يعنيهم ولا يفيدهم ، فهم بمثابة مَن يأتى البيوت من ظهورها ، وكان الأَوْلى أن يأتوها من أبوابها ، فيسألوا عما يعنيهم وينفعهم فى أمر دينهم ودنياهم (٢) .

* * *

---

(١) البقرة : ١٨٩

(٢) انظر : نظم الدرر للبقاعى : ٣/٩٩ ، ١٠٠

الرحلة فى طلب العلم

من أدبيات العلم فى القرآن : أن العلم ينبغى أن يُطلب من مظانه ، ويُؤخذ من منابعه الصافية ، ويُرحل إليه ، ليستقى من أهله ، وإن بعدت الشقة ، وأرهقت الرحلة ، فكل تعب فى سبيل العلم يهون ، وكل مسافة وإن طالت فهى قصيرة .

قصَّ علينا القرآن قصة طالب علم صمم على أن يجتاز الفيافى ، ويقطع المسافات حتى يدركه النَصَب ، من أجل لقاء رجل عرف أن لديه علماً ليس عنده .

هذا الطالب هو نبى الله موسى بن عمران ، أحد أُولى العزم من الرسل ، الذى اصطفاه الله برسالاته ، وكلَّمه تكليماً ، وأنزل عليه التوراة ، فيها موعظة وتفصيل لكل شىء .

ولكن الله تعالى أعلمه أنَّ هناك عبداً من عباده عنده من العلم ما ليس عند موسى ، فلم يهنأ له بال ، ولم يستقر له جنب ، حتى يصل إليه ويلقاه ويصحبه ويتعلم منه . وذلك هو عبد الله المعروف باسم « الخضر » عليه السلام ، الذى ذكر الله قصة موسى معه فى سورة الكهف ، وأنه يمكن أن يلقاه فى مجمع البحرين ، وعرَّفه علامة تدل على مكانه .

يقص علينا القرآن قصة رحلة موسى عليه السلام الشاقة المجهدة ، مع فتاه وصاحبه يوشع بن نون ، كما ذكرته الروايات ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَباً * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَباً * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا

قَصَصاً ❁ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ❁ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (١) .

و« مجمع البحرين » اختلف المفسِّرون فيه اختلافاً كثيراً .

فذهب الإمام برهان الدين البقاعى فى تفسيره « نظم الدرر » إلى ترجيح أنه ملتقى النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند مدينة دمياط أو مدينة رشيد ، واستدل لذلك بما جاء فى القصة - فى رواية البخارى - أن عصفوراً نقر نقرة فى الماء . . .

والظاهر : أن العصفور نقر فى الماء ليشرب منه ، فهذا دليل على أنه ماء عذب ، وهو ماء نهر النيل .

ولكن يعكر على هذا القول : أن موسى كان قد خرج من مصر ، واتجه إلى سيناء ، فيبعد أن يعود إلى مصر مرة أُخرى ، وخصوصاً بعد أن حكم الله على قومه بالتيه أربعين سنة فى هذه الأرض ، وقد توفى بها موسى عليه السلام .

وقال بعض مفسِّرى السَّلَف : المراد بمجمع البحرين : ملتقى بحرى فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى الغرب ، ولعل المراد : مكان يقرب فيه التقاؤهما ، وهما لا يلتقيان إلا فى البحر المحيط ، وهما شعبتان منه ، كما فى « روح المعانى » .

وقيل : ملتقى البحر الأبيض والمحيط (الأطلسى) عند طنجة بالمغرب ، وهذا لا يمكن الوصول إليه إلا بعد شهور بل سنين .

وقال صاحب « الظلال » رحمه الله : « الأرجح - والله أعلم - أنه مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم ، أى البحر الأبيض

(١) الكهف : ٦٠ - ٦٦

والبحر الأحمر . . ومجمعهما : مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرَّة وبحيرة التمساح .

أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر (وهذا قريب معقول لمن يكون فى سيناء) ، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . . وعلى أى ، فقد تركها القرآن مجملة ، فنكتفى بهذه الإشارة » [1] .

والظاهر من سياق القصة : أن موسى وفتاه قطعا هذه المسافات الطويلة مشياً على أقدامهما ، إذ لم يشر السياق إلى مطية أو أكثر معهما من بعير أو حمار .

وكان منشأ عزيمة موسى عليه السلام على هذه الرحلة المضنية : ما رواه الشيخان من حديث ابن عباس عن أُبَىّ بن كعب : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن موسى عليه السلام قام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ! فعتب الله عليه ؛ إذ لم يرد العلم إليه سبحانه ، فأوحى الله تعالى إليه : أن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . . . » الحديث [2] .

وفى رواية أُخرى عن أُبَىّ أيضاً : أن موسى سأل ربه فقال : أى رَبِّ ، إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى ، فدلنى عليه ، فقال له : نعم ، فى عبادى مَن هو أعلم منك . . ثم نعت له مكانه ، وأذن له فى لقيّه .

وهذه القصة - كما ذكرها القرآن - لا تُعرف عند اليهود ، ولم تُذكر فى كتابهم ، ولهذا ينكرونها ، ويرون أنه لا ينبغى أن يتعلم نبى من غير نبى ، وحتى مع التسليم بأن هذا العبد الصالح - الخضر - نبى يُوحَى إليه ،

---

(١) فى ظلال القرآن : ١٥/١٠٣ - طبعة الحلبى - الأولى .

(٢) الحديث متفق عليه ، انظر « اللؤلؤ والمرجان » (١٥٣٩) .

لا تسمح أنفسهم بالقول بتعلم نبيهم الأفضل درجة ، والأرفع مقاماً ، ممن هو دونه فى الفضل والمنزلة .

وأجاب علماء تفسير القرآن بأن هذا الموقف من أحبار اليهود لا يساعده العقل ولا النقل ، وليس هو إلَّا كالحمية الجاهلية ، إذ لا يبعد عقلاً تعلم الأفضل الأعلم شيئاً ليس عنده ممن هو دونه فى الفضل والعلم ، ومن الأمثال المشهورة : قد يوجد فى الأسقاط ما لا يوجد فى الأسفاط .

وقالوا : قد يوجد فى المفضول ما لا يوجد فى الفاضل .

وقال بعضهم : لا مانع من أن يكون الله تعالى قد أخفى علم المسائل التى تضمنتها القصة عن موسى عليه السلام - على مزيد علمه وفضله - لحكمة يعلمها ، ولا يقدح ذلك فى كونه أفضل وأعلم من الخضر عليه السلام فيما عدا هذه الأمور (١) .

وفى حديث الصحيحين فى القصة : أن الخضر عليه السلام قال لموسى صلوات الله عليه : « يا موسى ؛ إنى على علم من علم الله علَّمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علَّمكه لا أعلمه » (٢) .

وإنما ينمو العلم ويثمر ويزدهر إذا ضم العالِم علم الآخرين إلى علمه ، ولم يكتف بما عنده ، أو يحقر ما عند غيره ، أو يستنكف أن يتعلم منه ويأخذ عنه ، وإن كان هو دونه . فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها . حتى إنه ليأخذ الحكمة من الكافر ، وحتى إنه ليتعلم من الحيوان والطير كالهدهد والغراب .

ومما له دلالة هنا : أن القرآن عبَّر عن الخروج فى طلب العلم والتفقه فى

---

(١) انظر : تفسير « روح المعانى » للألوسى : ١٥/ ٣١٠ ، ٣١١

(٢) اللؤلؤ والمرجان - المرجع السابق .

الدين بكلمة « النفير » ، وهى الكلمة المستخدَمة فى الخروج للجهاد فى سبيل الله .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) . فهذا - كما قال حمَّاد بن زيد - فى كل مَن رحل فى طلب العلم والفقه ، ورجع به إلى مَن وراءه ، فعلَّمه إياه (٢) .

وعن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ (٣) قال : هم طلبة الحديث (٤) . ففسَّر السياحة بمعنى الضرب فى الأرض للعبادة والجهاد ، ومنه طلب علم القرآن والحديث ، والفقه فى الدين .

وأكدت السُّنَّة النبوية هذا المعنى ، فقد جاء فى الحديث : « مَن خرج فى طلب العلم ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع » (٥) .

ولم يعرف التاريخ أُمة من الأُمم رحلت فى سبيل العلم ، وضربت فى ذلك أروع الأمثال ، وخلَّدت فى ذلك وقائع تُذكر فتُشكر ، مثل الأُمة الإسلامية ، ولا سيما علماء الحديث .

وقد ألَّف العلَّامة الخطيب البغدادى كتاباً خاصاً سماه « الرحلة فى طلب الحديث » ، ذكر فيه فضل العلم ، والرحلة فى طلبه ، ورحلات الصحابة إلى

---

(١) التوبة : ١٢٢

(٢) رواه الخطيب فى « الرحلة فى طلب الحديث » ص ٨٧ ، بتحقيق الدكتور نور الدين عتر .

(٣) التوبة : ١١٢ (٤) المصدر السابق ص ٨٧ ، ٨٨

(٥) رواه الترمذى فى « العلم » عن أنس (٢٦٤٩) ، وقال : حسن غريب ، ولم يرفعه بعضهم ، وعزاه فى « الجامع الصغير » إلى الضياء فى المختارة ، وفى إسناده خالد بن يزيد اللؤلؤى ، قال بعضهم : لا بأس به ، وقال العقيلى : لا يُتابَع على كثير من حديثه ، وذكر له هذا الحديث . الفيض : ٦/ ١٢٤ ، وانظر ترجمته فى « تهذيب الكمال » : ٨/ ١٦٦٧

النبى ﷺ للأخذ عنه والتعلم منه ، ورحلات الصحابة بعضهم إلى بعض للاستفادة والتلقى المباشر ، ورحلات التابعين إلى الصحابة للأخذ والتعلم ، ورحلات التابعين بعضهم إلى بعض ، ورحلات الأئمة الحُفَّاظ فى العصور المختلفة وما قاسَوْا فيها من مشاق السفر وصعوباته فى تلك الأزمان .

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله قال : بلغنى عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله لم أسمعه منه قال : فابتعتُ بعيراً فشددتُ عليه رَحْلى ، فسرتُ إليه شهراً حتى أتيتُ الشام ، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى . قال : فأرسلتُ إليه أن جابراً على الباب . قال : فرجع إلىّ الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم . فرجع الرسول إليه . . فخرج إلىَّ فاعتنقنى واعتنقته . قال : قلت : حديث بلغنى أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه ، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه . . وسمع منه الحديث (١) .

وذكر الحافظ : أن أبا داود روى من طريق عبد الله بن بريدة : أن رجلاً من الصحابة رحل إلى فضالة بن عبيد - وهو بمصر - فى حديث !

وروى الخطيب عن عبيد الله بن عدى قال : بلغنى حديث عن علي ، فخفت إن مات ألَّا أجده عند غيره ، فرحلت حتى قدمت عليه العراق !

قال الحافظ : وتتبع ذلك يكثر .

وقال ابن مسعود : لو أعلم أحد أعلم بكتاب الله منى لرحلتُ إليه .

---

(١) الحديث علَّقه البخارى فى « صحيحه » بصيغة الجزم ، باب : الخروج فى طلب العلم - البخارى مع الفتح : ١٧٣/١ . قال الحافظ : أخرجه المصنف فى الأدب المفرد ، وأحمد وأبو يعلى فى مسنديهما من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل ، وله طريق أخرى أخرجها الطبرانى فى مسند الشاميين ، وتمام فى « فوائده » وإسناده صالح ، وله طريق ثالثة أخرجها الخطيب فى« الرحلة » ، وفى إسناده ضعف .

وقال سعيد بن المسيب : إن كنت لأرحل الأيام واللّيالى فى طلب الحديث الواحد .

وقال الشعبى بعد أن روى حديثاً لرجل : خذها بغير شيء ، وإن كان الرجل ليرحل فيما دونها إلى المدينة .

وأخرج الخطيب عن أبى العالية قال : كنا نسمع عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا نرضى حتى خرجنا إليهم فسمعنا منهم .

وقيل لأحمد بن حنبل : رجل يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل ؟ قال : يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيشافه الناس ويتعلم منهم .

وقال الشعبى : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضاع [(١)] .

وقد اشتهر بين المسلمين هذا القول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » حتى رفعه بعضهم حديثاً إلى النبى ﷺ . وما هو بحديث ، إنما هو كلمة إسلامية مأثورة عن سَلَف الأُمة ، ومعناها صحيح بالإجماع . وإنما ذكروا « الصين » خاصة ؛ لأنها كانت أبعد ديار الحضارة المعروفة عن جزيرة العرب ، فهى أبعد من مصر ، ومن فارس ، ومن الروم ، ومن الهند . . . ومن كل بلد يمكن أن يوجد فيه علم يُطلب .

* * *

---

(١) انظر : فتح البارى : ١/١٧٥ ، وجامع بيان العلم : ١/٩٢ - ٩٥ ، ومجمع الزوائد : ١/١٣٣ - ١٣٥ ، والرحلة فى طلب الحديث للخطيب .

ممن نتعلَّم ؟

ومن توجيهات القرآن فى مجال العلم والتعلم : أن الإنسان ينبغى أن يتعلم من كل مَن لديه علم ينفعه فى دينه أو فى دنياه ، وإن كان أصغر منه سناً ، أو أدنى منه درجة ، أو أقل منه مالاً أو جاهاً .

وقد رأينا موسى - وهو مَن هو منزلة بين رُسُل الله - يتعلم من الخضر عليه السلام ، وهو أدنى منه يقيناً ، حتى إنهم اختلفوا : أهو نبى أم لا ؟ وحتى لو رجحنا أنه نبى - وهو الراجح فعلاً - ولكن الأنبياء ليسوا فى درجة واحدة ، كما هو معلوم .

بل رأينا إبراهيم الخليل عليه السلام يقول لأبيه فى حواره الخصب له : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ (١) . فدلَّ ذلك على أن الجاهل يجب أن يتبع العالِم ، ليقبس منه ، ويأخذ عنه ، وإن كان العالِم هو الابن ، والمتعلم هو الأب .

بل رأينا موقف سليمان ، حين تفقَّد الطير ، فلم يجد الهدهد ، فقال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

هنا نرى طائر الهدهد قد علَّم سليمان عليه السلام ما لم يكن يعلم من أمر سبأ وملكتهم ، ولم يجد سليمان حرجاً أن يأخذ هذه المعلومة الهامة من هذا الهدهد .

ولقد حكى عن بعض العلماء : أنه سُئل عن مسألة فقال : لا أعلمها ، فقال أحد تلامذته : أنا أعلم هذه المسألة . فغضب الأستاذ وهَمَّ به ، فقال له التلميذ : أيها الأستاذ ؛ لستَ أعلم من سليمان بن داود ، ولو بلغتَ من العلم

---

(١) مريم : ٤٣ (٢) النمل : ٢١ - ٢٣

ما بلغت ، ولستُ أنا أجهل من الهدهد ، وقد قال لسليمان نبى الله : أحطت بما لم تحط به ، فلم يضق سليمان به ذرعاً ، واستفاد من علمه . فطاب الأستاذ نفساً ، وسُرَّ لكلام تلميذه .

وكما أن الانسان - ممثلاً فى سليمان - تعلَّم من هدهد ، فإننا نجد فى القرآن أيضاً أن الإنسان من قديم الزمان تعلَّم من غراب !

ففى قصة ابنى آدم التى قصَّها الله علينا بالحق فى سورة المائدة : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) . ولكن هذه الكلمات المضيئة المخلصة من ابن آدم الخيِّر الطيب لم تلامس قلب ابن آدم الخبيث الشرير ، ولـم تهز فيه وتراً : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٢) .

يبدو من السياق أن الحادث كان فى فجر تاريخ البَشرية ، حيث كان هذا أول قتيل ، بل أول ميت ، فما كان عندهم علم بأن الموتى يُدفنون . ولهذا جاء فى الصحيح : « لا تُقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها ؛ لأنه أول مَن سنَّ القتل » (٣) .

وهكذا تعلَّم الإنسان من الغراب مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وهى : كيف تُوارَى جثة الميت إذا مات ؟ وهو أمر حار فيه الإنسان العاقل ، حتى هداه الغراب إلى الحل الفِطرى ، وما كان أقربه وأروعه من حل !

* *

---

(١) المائدة : ٢٧ ، ٢٨ (٢) المائدة : ٣٠ ، ٣١

(٣) متفق عليه عن ابن مسعود - اللؤلؤ والمرجان (١٠٩٢) .

• أدب المتعلم مع المعلِّم

ومما ذكره القرآن الكريم فى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ، نعرف كيف يكون أدب المتعلم مع الأستاذ المعلِّم .

فمن المعلوم : أن موسى هو أفضل من الخضر ، وأعلى مقاماً ، وهو الذى قال الله له : ﴿ إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) . فقوله : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ يعنى به موسى عليه السلام . كما قال فى سورة أخرى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٣) . ولهذا يسمى موسى « كليم الله » .

ومع هذا نجد كليم الله موسى حين رحل ليطلب العلم عند الخضر ، ويتعلم منه ما لم يكن يعلم ، كان فى غاية الأدب معه ، وغاية التواضع وخفض الجناح .

فهو يبدأ الحديث معه بهذا العرض المهذب ، بصيغة السؤال والاستفهام : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ ؟ (٤) .

فانظر كيف لم يقل له : أريد أن أتبعك ، حتى لا يفرض نفسه عليه ، بل قال له بهذا التلطف : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ؟ كأنه يقول له : أتأذن لى أو أتسمح لى أن أتبعك ؟

وانظر إلى العبارة ودلالتها ، إذ لم يقل : هل أرافقك ؟ أو أصحبك ؟ ... أو نحو ذلك من العبارات . بل اختار عبارة موحية معبِّرة عما يريد ، وهى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ؟. المسألة إذن : اتباع واضح ، ليست ملازمة صاحب لصاحبه ،

---

(١) الأعراف : ١٤٤
(٢) البقرة : ٢٥٣
(٣) النساء : ١٦٤
(٤) الكهف : ٦٦

ولا صديق لصديقه ، أو ند لنده ، بل هى ملازمة تابع لمتبوعه : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ ؟ وهو اعتراف صريح بأن لدى المعلِّم من الرشد ما ليس لديه .

وبيَّن له الخضر صعوبة الأمر . حين قال له بصراحة : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ (١) . فالمرء لا طاقة له على الصبر على أمر لا يعرف سره ، ولهذا قيل : إذا عُرِف السبب بطل العجب ! فأما ما لا يعرف الإنسان سببه ، ولا يدرك علَّته ولا سره ، فمن الصعب أن يصبر عليه ، وهو ما ذكَّر به الخضر المعلِّم تلميذه موسى من أول الأمر ، حتى يكون على بيِّنة من أمره .

ولكن موسى كان حريصاً على أن يتعلم ، مُصِرّاً على أن يستفيد ، فلم يفتّ كلام الخضر فى عضده ، ولم يثن له عزماً ، بل قال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً ﴾ (٢) .

وهنا نجد أدباً آخر من أدب التعلم ، وهو الصبر ، الذى يُستعان فيه بالله تعالى ، والطاعة لأمر المعلم . فيما أحب وكره ، فلا يعصى له أمراً .

وهنا شارطه الخضر عليهما السلام مشارطة واضحة وحاسمة ، فقد قيل : إن ما أوله شرط آخره نور ووضوح . قال : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْئَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ (٣) .

وسكت موسى سكوت المقر بهذا الشرط ، المذعن له ، والمؤمنون عند شروطهم . ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْراً * فَانطَلَقَا

---

(١) الكهف : ٦٧ - ٦٨ (٢) الكهف : ٦٩ (٣) الكهف : ٧٠

حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً * فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ (١) .

يقول الفخر الرازى : « اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللُّطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر .

فأحدها : أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ .

وثانيها : أن أستأذن فى إثبات هذا التبعية ، فإنه قال : هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعاً لك ، وهذا مبالغة عظيمة فى التواضع .

وثالثها : أنه قال : ﴿ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم .

ورابعها : أنه قال : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ وصيغة « من » للتبعيض ، فطلب منه تعليم بعض ما علّمه الله ، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له :

---

(١) الكهف : ٧١ - ٨٢

لا أطلب منك أن تجعلنى مساوياً فى العلم لك ، بل أطلب منك أن تعطينى جزءاً من أجزاء علمك ، كما يطلب الفقير من الغنى أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله .

وخامسها : أن قوله : ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ اعتراف بأن الله علّمه ذلك العلم .

وسادسها : أن قوله ﴿ رُشْداً ﴾ طلب منه للإرشاد والهداية ، والإرشاد هو الأمر الذى لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال .

وسابعها : أن قوله : ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به ، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علىّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك فى هذا التعليم . ولهذا المعنى قيل : أنا عبد مَن تعلّمتُ منه حرفاً .

وثامنها : أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير . . . .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على أنه يأتى بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها . وهذا يدل على أن المتعلّم يجب عليه فى أول الأمر التسليم ، وترك المنازعة والاعتراض .

وتاسعها : أن قوله : ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً فى جميع الأمور غير مقيَّد بشىء دون شىء .

وعاشرها : أنه ثبت بالأخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبى بنى إسرائيل ، وأنه هو موسى صاحب التوراة ، وهو الرجل الذى كلّمه الله عزّ وجلّ من غير واسطة ، وخصَّه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ثم إنه - عليه السلام - مع هذه المناصب الرفيعة ، والدرجات العالية الشريفة ، أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع ، وذلك يدل على كونه - عليه السلام - آتياً فى طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة ، وهذا هو اللائق به ؛ لأن كل مَن كانت إحاطته بالعلوم أكثر ، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر ، فكان طلبه لها أشد ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد .

والحادى عشر : أنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن تُعَلِّمَنِ ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً ، ثم طلب ثانياً أن يُعلِّمه ، وهذا منه ابتداء بالخدمة ، ثم فى المرتبة الثانية طلب منه التعليم .

والثانى عشر : أنه قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن تُعَلِّمَنِ ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً ، كأن قال : لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ، ولا غرض لى إلا طلب العلم »[1] .

* * *

---

(١) تفسير الفخر الرازى : ١٥١/٢١

وسائل تحصيل العلم

وإذا كان طلب العلم فريضة - عَيْنية أو كفائية - وكان الازدياد مطلوباً طلب إيجاب ، أو طلب استحباب ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (١) ، فإن لتحصيل العلم وسائل أساسية ثلاثاً ، ذكرت فى أكثر من آية . وهى :

١ - السمع : وهو أساس العلم المنقول عن الوحى ، أو عن السابقين .

٢ - والبصر : وهو أساس العلم المادى القائم على الملاحظة والتجربة .

٣ - والفؤاد ، وهو أساس العلوم العقلية .

يقول تعالى فى سورة النحل ، وهى سورة النعم : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

فالإنسان يولد غفلاً من العلوم ، وإنما العلم بالتعلم ، والتعلم بأدواته التى منحها الله له ، وجعلها منافذه على العالَم من حوله : السمع والأبصار والأفئدة ، وقد اعتبر القرآن هذه الأدوات أو المنافذ فى أكثر من سورة من نعم الله على الإنسان ، التى يجب أن تُقابَل بالشكر ، وإن قلّ الشاكرون لها .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وفى سورة أُخرى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) طه : ١١٤
(٢) النحل : ٧٨
(٣) المؤمنون : ٧٨
(٤) الملك : ٢٣

وفى وصايا الحكمة فى سورة الإسراء بيَّن سبحانه مسؤولية الإنسان عن هذه الأدوات المهمة فيقول : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (١) .

ولقد ذمَّ القرآن أبلغ الذم الذين يعطلون أدوات العلم بكفرهم وجحودهم بآيات الله عزَّ وجَلَّ .

يقول تعالى فيمن أهلكهم من أهل الأحقاف : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ (٢) .

ويقول فى مقام آخر فى ذمٍّ قوم اعتبرهم أضل من الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

هؤلاء الذين جعلهم القرآن حطب جهنم ، قد خربوا الأجهزة التى أعطاهم الله إياها ، وعطلوا منفعتها ، فلم يستفيدوا بها ، ولم يوظفوها فيما خُلقت له ، فقد خُلِق القلب ليعقل ويفقه ، وخُلقت العين لترى وتبصر . وخُلقت الأُذن لتسمع وتعى ، ولكن هؤلاء لم يفقهوا بقلوبهم ، ولم يبصروا بأعينهم ، ولم يسمعوا بآذانهم : آيات الله فى خلقه ، وسُنَنه فى كونه ، وأحكامه فى شرعه ، فهم كالذين وصفهم فى آيات أُخَر بقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) ، وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ

---

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) الأحقاف : ٢٦ (٣) الأعراف : ١٧٩

(٤) البقرة : ١٨ (٥) البقرة : ١٧١

الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

ولا عجب أن اعتبرهم القرآن كالأنعام التى لا تعى ولا تعقل ، بل هم أضل منها سبيلاً . وإنما كانوا أضل من الأنعام لأمرين :

الأول : أن الأنعام لم تُؤْتَ ما أُوتوا من المواهب والقدرات ، والمَلَكات العقلية والروحية ، التى رشحتهم للخلافة فى الأرض ، وأهَّلتهم لإنزال الكتب عليهم ، وإرسال الرُّسُل إليهم .

والثانى : أن الأنعام قامت بمهمتها التى خُلِقت لها ، فهى تؤدى مهمة الركوب والحمل ، أو الدر والنسل ، ولم تقصر فى أدائها ، ولا تمردت عليها ، هل رأيتَ بقرة تمردت على أن تُحلب ؟ أو حماراً تمرد على أن يُركب ؟ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

ويلاحظ مَن يقرأ القرآن : أن القرآن حين يذكر هذه الأدوات الإدراكية فى الإنسان ، يُقدِّم السمع دائماً على البصر . فما السر فى هذا ؟

يبدو أن السمع أسبق من البصر استعمالاً فى حياة الإنسان ، فالمولود منذ ولادته يسمع الأصوات ويفزع من الصوت القوى ، ولكنه لا يرى إلا بعد أيام من ولادته ، ولأن السمع أهم فى التعلم والتعليم ، وأقوى رسوخاً فى ذاكرة الطفل ، ومن هنا عرفنا على مدار التاريخ نوابغ من المكفوفين ، ولم نر مثل ذلك فى الصم . بل لم يعرف العالَم تعليم الصم إلا فى عصرنا . وعندما ينام الإنسان يفقد الحس البصرى ، قبل أن يفقد الحس السمعى ، وهذا دليل على قوة الحس السمعى وتفوقه . ولأن بالسمع تُنَال سعادة الدنيا والآخرة ،

---

(١) الأنفال : ٢٢ ، ٢٣ (٢) يس : ٧١ - ٧٣

فإنها إنما تتحقق بمتابعة الرُّسُل ، وقبول رسالاتهم ، وبالسمع عرف ذلك ، فإن مَن لا سمع له لا يعلم ما جاؤوا به ، ولذا تسمى علوم الشرع « العلوم السمعية » .

قال العلامة ابن القيم : « وأيضاً فإن السمع يُدرَك به أجل شيء وأفضله ، وهو كلام الله تعالى الذى فضله على الكلام كفضل الله على خلقه .

وأيضاً فإن العلوم إنما تُنَال بالتفاهم والتخاطب ، ولا يحصل ذلك إلا بالسمع .

وأيضاً فإن مدركه أعم من مدرك البصر ، فإنه يدرك الكليات والجزئيات ، والشاهد والغائب ، والموجود والمعدوم . والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهَدات ، والسمع يسمع كل علم ، فأين أحدهما من الآخر ؟ ولو فرضنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرَّسُول ولا يرى شخصه ، والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه ، هل كانا سواء ؟

وأيضاً ففاقد البصر إنما يفقد إدراك بعض الأُمور الجزئية المشاهَدة ، ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً ، وأما فاقد السمع ، فالذى فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو تقريباً .

وأيضاً فإن ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع فى القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر ، بل إنما يذمهم بعدم البصر ، تبعاً لعدم العقل والسمع .

وأيضاً فإن الذى يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولاسآمة ولا تعب ، مع كثرته وعظمه ، والذى يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص ، وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قِلَّته ونزارته بالنسبة إلى السمع » (١) .

ويقدم لنا علماء الأجِنَّة الآن تفسيراً آخر ، حيث يذكرون أن الأُذن الداخلية

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/ ١٠٥

للجنين تنضج وتصبح قادرة على السمع فى الشهر الخامس من حياة الجنين ، على حين لا تُفتح العين ، ولا تتطور طبقتها الحساسة إلا فى الشهر السابع [1] .

وذكر بعضهم تعليلاً آخر ، وهو : أن مركز السمع يقع فى الفص الصدغى للمخ ، فى حين يقع مركز الإبصار فى الفص المؤخر فى آخر المخ ، أى أن مراكز السمع تتقدم على مراكز الإبصار [2] .

وهذا بخلاف الأعضاء : العين والأذن ، فحيث ذُكرا فى القرآن تُقدَّم العين ، مثل : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [3] ، ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [4] ، وما ذلك إلا لأن العين تتقدم على الأذن فى صنعة الله الظاهرة .

وفى بحث العلامة ابن القيم هنا فى المقارنة بين السمع والبصر ، واختلاف العلماء : أيهما أفضل ؟ وبعد وأن ذكر أدلة كل من الفريقين ، قال رحمه الله : « والصواب : أن كُلاًّ منهما له خاصية فُضِّلَ بها على الآخر ، فالمدرَك بالسمع أعم وأشمل ، والمدرَك بالبصر أتم وأكمل ، فالسمع له العموم والشمول ، والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك » [5] .

* * *

(١) انظر : الإعجاز العلمى فى آيات السمع والبصر فى القرآن - للدكتورين : صادق الهلالى وحسين اللبيدى ص ٢١

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٩

(٣) الأعراف : ١٧٩

(٤) الأعراف : ١٩٥

(٥) مفتاح دار السعادة : ١٠٦/١

التعليم بعد التعلم

وينبغى للإنسان بعد أن يتعلم أن يُعلِّم غيره ، فزكاة العلم تعليم الغير مما علَّمه الله ، حتى يكون ربَّانياً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (١) .

وقد جاء عن غير واحد من علماء السَّلَف : أن الربَّانى هو الذى يعلم ويعمل ويُعلِّم .

وعن المسيح عليه السلام : « مَن علم وعمل وعلَّم ، فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السماء » .

وأصل التعليم والإعلام واحدٍ ، ولكن اختص الإعلام بما كان بإخبار سريع ، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير ، حتى يحصل منه أثر فى نفس المتعلم ، كما قال الإمام الراغب (٢) . قال بعضهم : التعليم تنبيه النفس لتصور المعانى ، والتعلم : تنبه النفس لتصور ذلك ، وربما استُعمل التعليم فى معنى الإعلام إذا كان فيه تكرير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ﴾ (٣) .

● الله خير معلِّم :

ومما يدل على فضل التعليم ، وعظيم منزلته ، أنه وصف من أوصاف الله تعالى ، فهو الذى يُعلِّم عباده ويسددهم ويرشدهم ، التعليم العام الذى يحتاج إليه الجميع ، والتعليم الخاص الذى يمنحه مَن يشاء من خلقه .

فهذا التعليم العام من دلائل ربوبيته وكرمه ، بل أكرميته سبحانه ، كما قال تعالى فى الآيات الأُولى من الوحى القرآنى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ٧٩
(٢) انظر : مفردات القرآن ص ٥٨٠
(٣) الحجرات : ١٦
(٤) العلق : ٣ - ٥

وهو كذلك من دلائل رحمانيته : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، فالمراد هنا : تعليم الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ومن التعليم الخاص : تعليمه لآدم عليه السلام الأسماء كلها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٤) .

وقد يُعتبر هذا من التعليم العام ، إذا اعتبرنا أن المقصود ليس تعليم آدم لشخصه ، وإنما هو تعليم لجنس البَشر ، الذين استخلفهم الله فى الأرض ، ورشحهم بالعلم لهذا المنصب . قال الراغب : « تعليمه الأسماء : هو أن جعل له قوة بها نطق ، ووضع أسماء الأشياء ، وذلك بإلقائه فى رُوعه ، وكتعليمه الحيوانات كل واحد منها فعلاً يتعاطاه » (٥) .

ومن التعليم الخاص : ما علَّمه الله تعالى لنبيه يعقوب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) .

ومنه : ما علَّمه لنبيه يوسف الصِّدِّيق ، وهو ما أنبأه به أبوه منذ الصبا : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (٧) .

والمراد به : تعبير الرؤى وتفسير الأحلام ، كما فعل ذلك فى السجن ، وقال للسجينين : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ﴾ (٨) ، وقد ناجى ربه

---

(١) الرحمن : ١ - ٤ (٢) البقرة : ٢٨٢ (٣) البقرة : ٢٣٩

(٤) البقرة : ٣١ (٥) مفردات القرآن - المصدر السابق .

(٦) يوسف : ٦٨ (٧) يوسف : ٦ (٨) يوسف : ٣٧

فى أواخر حياته بقوله : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (١) .

ومنه : تعليمه تعالى للخضر صاحب موسى ، كما قال سبحانه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ (٢) .

ومنه : تعليمه تعالى لداود ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣) ، ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٤) .

ومنه : تعليمه تعالى للمسيح عيسى ، كما بشَّر به أُمه : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٥) . وكما امتنَّ عليه بقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (٦) .

ومنه : تعليمه لمحمد ﷺ ، الذى قال له : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (٧) .

ورحم الله أحمد شوقى حين قال فى قصيدة المعلِّم :

سبحانك اللَّهُمَّ خيرَ مُعلِّم ... علَّمتَ بالقلم القرونَ الأُولى
أرسلتَ بالتَّوراةِ موسى هادياً ... وابنَ البتولِ فعلَّم الإنجيلا
وفجَّرت يَنبوعَ البيان محمداً ... فسقى الحديثَ ، وناولَ التنزيلا

* *

(١) يوسف : ١٠١ — (٢) الكهف : ٦٥ — (٣) البقرة : ٢٥١
(٤) الأنبياء : ٨٠ — (٥) آل عمران : ٤٨ — (٦) المائدة : ١١٠
(٧) النساء : ١١٣

● رُسُل الله كلهم معلِّمون :

والرُّسُل الذين بعثهم الله كلهم معلِّمون ، بعثهم الله برسالاته ، ليهدوا الناس إلى الصراط المستقيم ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ويعلِّموهم ما لم يكونوا يعلمون ، ولهذا وصفهم القرآن بأنهم مبشِّرون ومنذرون ، والتبشير والإنذار نوع من التعليم ، مقرون بالترغيب فى جانب التبشير ، والترهيب فى جانب الإنذار . قال تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (٢) .

* *

● محمد إمام المعلِّمين :

وأما إمام المعلِّمين بحق فهو محمد ﷺ الذى جعل الله التعليم والتربية - المعبَّر عنها بالتزكية - من المعالم الأساسية لرسالته عليه الصلاة والسلام .

جاء ذلك فى أربع آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ . .

جاء ذلك فى دعوة إبراهيم حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل ، وهما يدعوان الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

وفى نفس السورة جاء قوله سبحانه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ

---

(١) النساء : ١٦٥ (٢) البقرة : ٢١٣ (٣) البقرة : ١٢٧ - ١٢٩

يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة آل عمران قال تعالى فى معرض الامتنان على المؤمنين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

وفى سورة الجمعة يمتن الله على العرب فيقول : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام معلِّماً ومزكياً : يغرس العلم والفكر فى الرؤوس ، ويغرس الإيمان والزكاة فى النفوس ، والزكاة تعنى أمرين : الطهارة والنماء . الطهارة بالتخلى من الشرك والرذائل ، والنماء بالتحلى بالتوحيد والفضائل . وقد خرَّج - بتعليمه وتزكيته - أفضل جيل عرفته البَشرية ، نقله من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، فزكَّاه بالإيمان ، وربَّاه بالإسلام ، ورقَّاه بالإحسان ، وحسبك أنهم الذين تلقوا عنه القرآن ، فتلوه حق تلاوته ، وأحسنوا حفظه وتعليمه لمن بعدهم ، وحفظوا عنه السنن علماً وعملاً ، ونقلوها إلى الأجيال ، وكانوا خير معلِّمين لأُمم الأرض ، لأنهم تتلمذوا على خير معلِّم ، وهو الذى قال عن نفسه : « إن الله بعثنى مُعلِّماً مُيَسِّراً » (٤) .

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن طريقته عليه الصلاة والسلام فى التعليم

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) آل عمران : ١٦٤

(٣) الجمعة : ٢ (٤) رواه مسلم .

والتزكية ، وقد أُلِّفت فيها كتب ، وعرضنا لمواقف منها فى كتابنا « الرسول والعلم » فليُرجع إليه .

* *

● العلماء ورثة الأنبياء فى التعليم والبيان :

والعلماء هم ورثة الأنبياء ، يرثون منهم علم النبوة ، كما يرثون مهمتهم فى تعليم الناس ، وهداية الحائرين ، وتبيين الحقائق للجاهلين بها ، وتذكير الغافلين عنها ، لا يكتمون شيئاً من البيِّنات والهدى .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١) .

ولقد تكرر فى القرآن الوعيد الشديد على كتمان ما أنزل الله من الهدى ودين الحق .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٨٧ (٢) البقرة : ١٥٩ - ١٦٠ (٣) البقرة : ١٧٤ - ١٧٥

والمراد بالثمن القليل - فى هذه الآية وفى الآية السابقة - من سورة آل عمران - الذى اشتروا به بيان ما أنزل الله هو : متاع الدنيا ، أياً كان نوعه ومقداره ، فهو ليس إلا ثمناً قليلاً .

وأكد هذا المعنى القرآنى الأصيل : ما جاء فى الحديث النبوى من قوله صلى الله عليه وسلم : « مَن سُئِل عن علم فكتمه » ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » (١) .

وفى الحديث الآخر : « مَن كتم علماً عن أهله ، أُلْجِمَ يوم القيامة لجاماً من النار » (٢) .

* *

● ألا يستحى من قول « لا أعلم » :

ومن أدب التعلم كما يُصوِّره القرآن : ألَّا يستحى المتعلم من قول : لا أعلم أو لا أدرى ، إذا كان لا يعلم ولا يدرى » فليس فى العلم كبير ، وليس فى الوجود مخلوق أحاط بكل شيء علماً ، إنما هذه صفة الله تبارك وتعالى ، وأما المخلوقون فيعلمون ويجهلون ، يعرفون شيئاً ، وتغيب عنهم أشياء . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

ومن هنا قصَّ علينا القرآن قصة آدم أبى البَشر عليه السلام ، وفيها : أن الملائكة - برغم منزلتهم وفضلهم وقربهم من الله تعالى - لم يستحوا أن يقولوا : لا نعلم ، فيما لا يعلمون .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم » كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٢٨٤) .

(٢) رواه ابن حبان والحاكم عن ابن عمرو ، وابن عدى عن ابن مسعود . المصدر نفسه (٦٥١٧) .

(٣) الإسراء : ٨٥

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

وقد علَّم الله خاتم رُسُله أن يكل إلى الله تعالى علم ما لا يعلمه ، مثل « علم قيام الساعة » الذى استأثر الله تعالى به ، فلم يُطلع عليه ملكاً مُقرَّباً ، ولا نبياً مرسلاً ، وقال لرسوله فى ذلك : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وتكرر ذلك عدة مرات فى القرآن ، تكرر السؤال وتكررت الإجابة : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (٣) .

ولهذا حينما سأل جبريل فى حديثه المشهور النبى ﷺ عن الساعة ، أجابه بقوله : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » !

وكذلك حين سألوه - عليه الصلاة والسلام - عن « الروح » ما هى ؟ وما حقيقتها ؟ كان الجواب ما ذكرته الآية الكريمة : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٣١ - ٣٣ (٢) الأعراف : ١٨٧

(٣) الأحزاب : ٦٣ (٤) الإسراء : ٨٥

ولا غرو أن شاع هذا الأدب فى الأُمة الإسلامية ، وفى الحضارة الإسلامية . وقد كان رسول الله ﷺ الأُسوة الحسنة ، والمثل الأعلى فيه . فحين يُسئل عن شىء ليس عنده فيه علم من الله تعالى يتوقف حتى ينزل عليه الوحى ، ولا يتهجم على القول بغير علم .

واشتهر عن علماء الأُمة قولهم : « لا أدرى » : نصف العلم .

وقال الإمام علىّ كرَّم الله وجهه : مَن أخطأ قول « لا أدرى » أصيبت مقاتله !

وكثيراً ما سُئِل الأئمة الكبار عن مسائل من العلم فقالوا فيها : لا ندرى ، حتى رووا أن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه سُئِل عن أربعين مسألة ، فقال فى ست وثلاثين منها : لا أدرى !

وجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله ؛ جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حملنى أهل بلدى مسألة أسألك عنها . . قال : فسل . . فسأله الرجل عن المسألة . فقال : لا أحسنها . . فبهت الرجل ، كأنه قد جاء إلى مَن يعلم كل شىء ! فقال : أى شىء أقول لأهل بلدى إذا رجعتُ إليهم ؟! قال : تقول لهم : قال مالك : لا أحسن !

وقال مالك : ينبغى للعالِم أن يألف فيما أشكل عليه قول : « لا أدرى » فإنه عسى أن يُهيأ له خير .

وقال ابن وهب : لو كتبنا عن مالك : « لا أدرى » ، لملأنا الألواح .

وقال مالك : كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين ، وسيد العالَمين ، يُسئل عن الشىء ، فلا يجيب حتى يأتيه الوحى .

وقال : هذه الملائكة قد قالت : « لا علم لنا » !

وقبل مالك سُئِل الإمام الشعبى عن مسألة فاستصعبها ، وقال : لا أحسنها ، ولو أُلقيت على بعض أصحاب رسول الله ﷺ لأعضلت بهم ! فقال له بعض

أصحابه : قد استحيينا لك مما رأينا منك ! قال : ولكن الملائكة المقرَّبين لم تستحي حين قالت : « لا علم لنا إلا ما علَّمتنا » !

وسُئل القاسم بن محمد - أحد الفقهاء السبعة بالمدينة فى عصر التابعين - عن شيء ، فقال : لا أحسنه . فقال الرجل : إنى رُفِعت إليك لا أعرف غيرك ! فقال القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتى ، وكثرة الناس حولى ، والله ما أحسنه . فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخى الزمها ، فوالله ما رأيتك فى مجلس أنبل منك اليوم ! فقال القاسم : والله لأن يُقطع لسانى أحب إلىَّ من أن أتكلم بما لا علم لى به !

وقبل القاسم والشعبى قال ابن مسعود رضى الله عنه : « يا أيها الناس ؛ مَن سُئِل عن علم يعلمه فليقل به ، ومَن لم يكن عنده علم ، فليقل : الله أعلم . فإن من العلم أن تقول لما تعلم : الله أعلم ، إن الله قال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (١) .

وعن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : « أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله بغير علم » ؟

وعن علىّ رضى الله عنه أنه خرج عليهم ، وهو يقول : ما أبردها على الكبد ، ما أبردها على الكبد ! فقيل له : وما ذاك ؟ قال : أن تقول للشيء لا تعلمه : الله أعلم .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً . فكثيراً ما كان يُسئل فيقول : لا أدرى ، ثم يلتفت إلىَّ فيقول : تدرى ما يريد هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً لهم إلى جهنم ! (٢) .

* * *

(١) سورة ص : ٨٦

(٢) هذه الآثار ذكرها ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم » بأسانيد صحيحه أوحسنه أو لا بأس بها ، وبعضها أصله فى الصحيحين ، كحديث ابن مسعود ، انظر : « جامع بيان العلم » : ٢/٨٢٦ - ٨٤٣ ، باب : ما يلزم العالم إذا سُئل عما لا يدريه من وجوه العلم - طبع دار ابن الجوزى - الأولى - بالدمام - السعودية . تحقيق الزهيرى .

الفصل الخامس

تكوين العقلية العلمية فى القرآن

- رفض الظن فى موضع اليقين .
- عدم اتباع الأهواء والعواطف .
- رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف .
- إنكار التبعية للسادة والكبراء .
- التعبد بالتفكر والنظر العقلى .
- لا تُقبل دعوى بغير برهان .
- رعاية سنن الله فى الكون والمجتمع .

تكوين العقلية العلميـة
فى القرآن

ومن أعظم ما عنى به القرآن فى مجالنا : هو تكوين العقلية العلمية . .

فهناك ما يمكن أن نطلق عليه « العقلية العامية » أو « العقلية الخرافية » ، وهى التى تصدِّق كل ما يُقال لها أو يُعرض عليها ، ولا تضعه موضع امتحان ، بل تأخذه قضية مسلَّمة ، ولا سيما إذا جاء من قِبَل مَن تعظِّمه ، مثل الأجداد والآباء ، أو السادة والكبراء . فتقول : إنَّا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، أو وجدنا سادتنا على ذلك يسيرون .

وفى مقابل هذه العقلية المتَّبِعة ، توجد عقلية أُخرى مخالفة ، لها مواصفاتها وخصائصها ، وهى التى عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشائها ، وصياغتها ، وإبرازها لتقوم بدورها فى الحياة .

ومن المقرر المعلوم : أنه لا يمكن أن يزدهر العلم ، وتتأصل جذوره ، وتمتد فروعه ، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا فى مناخ نفسى وفكرى يهيئ للعقول أن تفكر ، وللأفكار أن تتفتح ، وللآراء أن تناقش ، ولصاحب الحُجَّة أن يدلى بحُجَّته ، وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده فى الحياة الإسلامية ، وبعبارة أُخرى : يعمل القرآن بدعوته القوية ، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين « العقلية العلمية » المتحررة ، التى لا ينهض علم إلا على عاتقها ، فهو يرفض « العقلية الخرافية » ، ويرفض « العقلية المقلِّدة » ويرفض « العقلية المتخرصة » ويرفض « العقلية المتبعة للهوى » .

أما كيف يكوِّن القرآن بتعاليمه هذه العقلية العلمية ، فهذا ما نوضحه فى هذه الصحائف . ومَن قرأ القرآن وتدبره بحق وجد مقوِّمات هذه العقلية مجسَّمة فيه .

* *

١ – رفض الظن فى موضع اليقين :

وأول ما توصف به هذه العقلية كما بيَّن القرآن : أنها ترفض الظن فى كل موضع يُطلب فيه اليقين ، كما فى مقام تأسيس العقائد التى تقوم عليها نظرة الإنسان إلى الوجود ، أعنى : إلى الله والكون والإنسان والحياة . فهذه القضايا الكبرى لا يكفى فيها الظن ، بل لا بد فيها من العلم ، أى العلم اليقينى . قد يكفى الظن فى قضايا الفروع والجزئيات ، التى تقوم عليها تعاملات الناس بعضهم ببعض ، ولهذا تُقبل شهادة الشهود مع احتمال الخطأ والكذب ، ويُقبل حديث الواحد ، مع احتمال ذلك .

أما فى القضايا الكلية الكبرى ، فلا يُستغنى فيها عن اليقين .

ومن هنا أنكر القرآن على المشركين اتباعهم الظن فى هذه القضايا ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة أُخرى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) يونس : ٣٦ (٢) النجم : ٢٨ (٣) الأنعام : ١٤٨

وقال فى شأن المشركين عموماً ، ودعوتهم للأصنام من دون الله : ﴿ أَلا إِنَّ للهِ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (١) .

بل جعل القرآن اتباع الظن والخرص وراء ضلال أكثرية أهل الأرض وإضلالهم عن سبيل الله . يقول تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

وحقيقة الخرص - كما قال الراغب فى « مفردات القرآن » - : « أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال : خرص ، سواء أكان مطابقاً للشىء أو مخالفاً له ، من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين ، كفعل الخارص فى خرصه ، وكل مَن قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً ، وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه » (٣) .

ويقول القرآن عن أهل الكتاب : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ (٤) .

ويقول عن المشركين وعلاقتهم بالآخرة وقيام الساعة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ

---

(١) يونس : ٦٦ (٢) الأنعام : ١١٦

(٣) مفردات القرآن ص ٢٩٧ - طبعة دار القلم بدمشق ، والدار الشامية ببيروت .

(٤) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (١) .

* *

٢ - عدم اتباع الأهواء والعواطف فى مجال العلم :

ولا ترفض العقلية العلمية الظن فقط ، بل ترفض الهوى والعاطفة أيضاً ، فالهوى يعمى ويصم ، واتباع العواطف قد يضلل الإنسان عن الحق ، وخصوصاً العواطف الهوج ، مثل الحب الشديد ، والكره الشديد ، والغضب الشديد .

ولا غرو أن جاء فى الحديث الصحيح : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » ، لأن انفعال الغضب يسد عليه منافذ الإدراك الصحيح لجوانب القضية المختلفة ، فيظهر حكمه غير سليم .

ولهذا عاب القرآن على المشركين هذين الأمرين : اتباع الظن وهوى الأنفس معاً . فقال فى شأن أصنامهم التى اتخذوها آلهة - اللَّات ، والعُزَّى ، ومناة الثالثة الأخرى - : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى لداود : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٣) .

وقال فى خطاب رسوله محمد ﷺ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ

---

(١) الجاثية : ٣٢ (٢) النجم : ٢٣ (٣) سورة ص : ٢٦

أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى ذم اتباع الهوى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى يقول : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

ولأجل ذلك قال ابن عباس : « شر إله عُبِدَ فى الأرض : الهوى » !

فالعقلية العلمية هى التى تنحّى الأهواء والانفعالات والعواطف جانباً ، وتنظر إلى الأمر نظرة موضوعية محايدة .

* *

٣ - رفض التقليد الأعمى للآباء والأسلاف :

والعقلية العلمية فى نظر القرآن : هى التى ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد ، أو التسليم المطلق لما عليه السَّلَف المعظَّمون ، ولا تقبل أن تُقلِّد هؤلاء أو أُولئك فيما اعتقدوه أو فعلوه ، بل لا بد من وضعه موضع الاختبار ، والنظر إليه فى ضوء العقل ، وبميزانه المستقل ، فليس من المعقول أن يفكر لنا الأموات ونحن أحياء ، وأن يلزمنا الأقدمون بنتائج عصور مضت ، إنما نحن ملزمون بما تهدى إليه عقولنا ، وما ينتهى إليه تفكيرنا . فإن من الخطل والخطر أن نفكر برؤوس غيرنا ، وقد خلف الله لنا رؤوساً خاصة بنا !

ولهذا شنَّ القرآن حملة عنيفة على الجمود والتقليد فى كل صوره ، ففى

---

(١) القصص : ٥٠ (٢) الجاثية : ٢٣ (٣) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤

سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة المائدة يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

ففى سورة البقرة بيَّن أنهم ينقصهم العقل ، وهنا بيَّن أنهم ينقصهم العلم ، وفى كلتا الحالتين بيَّن أنهم ينقصهم الاهتداء إلى الصواب .

وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ (٣) .

وفى سورة الزخرف يقول تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (٤) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٥) .

فبيَّن الله تعالى أن هذا هو موقف المترفين من أهل الشرك من قديم : الاتكاء على ما كان عليه الآباء .

---

(١) البقرة : ١٧٠ ، ١٧١ (٢) المائدة : ١٠٤ (٣) هود : ١٠٩

(٤) أى على عقيدة . (٥) الزخرف : ٢٢ - ٢٤

وكذلك ذكر القرآن الكريم فى جملة سور هذا الجمود المقلِّد ، أو التقليد الجامد ، من الأبناء للآباء .

ففى قصة هود بعد دعوته البليغة وحواره القوى ، نقرأ : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (١) .

وفى قصة صالح : ﴿ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجواً قَبْلَ هَذَا ، أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (٢) .

وفى قصة إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

وفى قصة شعيب : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ (٤) .

وفى قصص الرُّسُل عامة مع أقوامهم يقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥) .

يعنون بالسلطان المبين : الآيات الكونية الخارقة ، وكلها تعلات فارغة ، فقد جاءت الرُّسُل من قبل بهذه الآيات فكذَّبوا بها ، كما فعلوا مع صالح وغيره .

يقول العلَّامة ابن الجوزى : فى التقليد إبطال منفعة العقل ، فقد خُلق للتدبر والتأمل ، وقبيح بمن أُعطى شمعة أن يطفئها ويمشى فى الظلمة !

* *

---

(١) الأعراف : ٧٠ (٢) هود : ٦٢ (٣) الأنبياء : ٥٢ - ٥٤

(٤) هود : ٨٧ (٥) إبراهيم : ١٠

٤ - رفض التبعية للسادة والكبراء :

ولم تقف حملة القرآن على الجمود العقلى الذى يتمثل فى تقليد الأبناء للآباء ، والأحفاد للأجداد ، بل شمل الجمود الذى يتمثل فى تبعية الشعوب والجماهير للسادة والكبراء والجبابرة وأصحاب السلطان والثراء .

لقد ذمَّ القرآن هذه التبعية العمياء ، وحمَّل الشعوب وزرها ، مع المتبوعين من أئمة أهل النار .

يقول القرآن على لسان نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (١) .

وقال فى قصة هود وقومه عاد : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٢) .

وقال فى قصة موسى وفرعون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (٣) .

وقال فى سورة أخرى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (٤) .

وقد عرض القرآن لنا من مشاهد الآخرة ما يجسد لنا تلاوم المتبوعين والاتباع يوم القيامة ، وتبرؤ بعضهم من بعض ، ومحاولة كل فريق إلقاء التبعة على الآخر :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا

---

(١) نوح : ٢١
(٢) هود : ٥٩
(٣) هود : ٩٦ ، ٩٧
(٤) الزخرف : ٥٤

الرَّسُولَا * وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ (١) .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ، وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

وهنا حمّل القرآن الأتباع تبعة ضلالهم ، فقد منحهم الله من المواهب

(١) الأحزاب : ٦٦ - ٦٨
(٢) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧
(٣) سبأ : ٣١ - ٣٣
(٤) الأعراف : ٣٨ ، ٣٩

والقدرات والآلات ما يمكنهم من اتباع الهدى ، فعطلوا ذلك ، وساروا فى ركاب المضلّين ، فما أغنوا عنهم من الله شيئاً .

صحيح أن المتبوعين المضلّين يحملون من الأوزار أكثر من الأتباع ، لأنهم يحملون وزر الضلال ، ووزر الإضلال ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (٢) .

ولكن هذا لا ينقص من أوزار الأتباع الذين ألغوا عقولهم ، وداروا فى فلك المضلّين .

* *

٥ - التعبد بالنظر العقلى :

ومن مقوّمات هذه العقلية العلمية التى ينشئها القرآن : أنها عقلية تقوم على النظر والتفكر ، فالنظر عندها فريضة ، والتفكر لديها عبادة .

والقرآن حافل بالآيات التى تحض على النظر ، وتدعو إلى التفكر ، بأساليب شتّى ، وصور متنوعة .

والمراد بالنظر : النظر العقلى ، وهو الذى يستخدم الإنسان فيه فكره فى التأمل والاعتبار ، بخلاف النظر البصرى ، فهو الذى يستخدم الإنسان فيه عينه .

قال الإمام الراغب : « النظر : تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشىء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وهو الروية ، يقال : نظرت فلم تنظر : أى لم تتأمل ولم تتروّ » .

---

(١) النحل : ٢٥ (٢) العنكبوت : ١٣

فعلى الإنسان أن يبدأ بالنظر فى نفسه أولاً ، ثم فى أقرب الأشياء إليه ، يقول تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (١) .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٢) .

ثم ينتقل بنظره إلى ما حوله متأملاً متدبراً معتبراً ، لينتقل من المصنوع إلى الصانع ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الكون إلى المكوِّن .

يقول القرآن : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٣) .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٤) .

﴿ قُلِ انظُروا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (٦) .

---

(١) الطارق : ٥ – ٨ (٢) عبس : ٢٤ – ٣٢ (٣) الغاشية : ١٧ – ٢٠

(٤) سورة ق : ٦ – ٨ (٥) يونس : ١٠١ (٦) الأعراف : ١٨٥

فالنظر هنا عام شامل ، يشمل كل ما خلق الله ، من الذَرَّة إلى المجَرَّة .

ومن داخل النفس إلى آفاق الكون الفسيح ، الذى لا يعلم سعته إلَّا خالقه :

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وأحياناً يأمر القرآن بالسير فى الأرض للنظر فى آيات الله فى الكون وفى الحياة وفى التاريخ :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٦) .

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ (٢) العنكبوت : ٢٠ (٣) النمل : ٦٩
(٤) الأنعام : ١١ (٥) آل عمران : ١٣٧ (٦) النحل : ٣٦
(٧) الروم : ٩

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن عدة مرات : الحث على السير فى الأرض ، والنظر فى سيرة الأوّلين ومسيرتهم ، وكيف نفذت فيهم سُنَن الله التى لا تتخلف ، رغم ما كان لديهم من كثرة العدد ، وقوة العُدد .

المهم أن يمروا على آثار القوم وما خلفوه وراءهم بعقول تفكر ، لا بمجرد أعين تبصر .

كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وبهذا شمل هذا النظر العقلى كل ما يقبل النظر : الإنسان نفسه . . ما حوله : من نبات : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ (٢) ، وحيوان ، وخصوصاً الإبل ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٣) ، وجماد : ﴿ الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٤) ، والسماء : ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (٥) ، وكل ما فى العالم عُلويه وسفليه بهذا الشمول الذى نبَّهت عليه الآية : ﴿ فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٦) .

ولم يكن النظر مقصوراً على الأشياء ، بل تعداها إلى الأحداث والسنن التى تدل عليها ، مثل : سنن الله فى عقوبات المكذِّبين ، وفى تغيير ما بالناس من نعم إذا غيَّروا ما بأنفسهم من خير . وسُنَّته فى سقوط الأُمم رغم عمارتها للأرض وكثرة أعدادها .

ومثل النظر العقلى : الرؤية العقلية ، فقد حثَّ القرآن فى آيات كثيرة على هذه الرؤية التى يقصد بها رؤية العقل لا رؤية العين ، وهى رؤية تشمل كل

---

(١) الحج : ٤٦ — (٢) سورة ق : ١٠ — (٣) الغاشية : ١٧

(٤) الغاشية : ٢٠ — (٥) الغاشية : ١٨ — (٦) الأعراف : ١٨٥

المخلوقات فى الأرض أو فى السماء مما يبين عظمة خالقها ، وروعة تدبيره ، وبالغ حكمته ، وسابغ نعمه على عباده ، كما تشمل الوقائع والأحداث ، التى تُبرز قدرة الله تعالى وهيمنته على الكون وحده ، كما تُبرز عدالته وأنه يملى ويمهل ، ولكنه لا يغفل ولا يهمل .

تقرأ مثل هذه الآيات :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وينتقل من الطير والأنعام إلى الأرض ومياهها ونباتاتها وعلاقة السماء بها والظواهر المتعلقة بها من اللّيل والنهار ، يقول سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (٦) .

---

(١) النحل : ٧٩ (٢) الملك : ١٩ (٣) يس : ٧١ - ٧٣
(٤) الشعراء : ٧ (٥) السجدة : ٢٧ (٦) الحج : ٦٣

والخطاب فى مثل هذه الصيغة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للنبى ﷺ ولكل مكلَّف فى الأُمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ▪ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ▪ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٦)

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) الحج ٦٥ — (٢) الزمر : ٢١ — (٣) لقمان : ٢٩

(٤) النمل : ٨٦ — (٥) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ — (٦) سبأ : ٩

(٧) النحل : ٤٨

وهذه الرؤية التى دعا إليها القرآن شملت العالَم العُلوى كالعالَم السُفلى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢) .

وهذه الرؤية ينبغى أن تشمل النظر فيما خصَّهم الله به من نعم لا تتوافر لغيرهم . وهذا خطاب لأهل مكة خاصة : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

ومما تشمل هذه الرؤية آثار فعل الله فى الناس والمجتمعات ، من بسط وقبض ، ورفع وخفض ، وإعزاز وإذلال ، يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٦) .

ومعنى نقص أطراف الأرض : أن الله يديل من دولة لأخرى ، ويأخذ من الدولة الكبيرة لحساب دولة صغيرة ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ (٢) العنكبوت : ١٩ (٣) العنكبوت : ٦٧

(٤) الروم : ٣٧ (٥) الرعد : ٤١ (٦) الأنبياء : ٤٤

وتشمل هذه الرؤية تاريخ القرون الماضية ، وصنع الله فى أهلها ، من الطغاة والمتجبرين ، الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ (١) .

لم يغن هؤلاء ما أنشأوا من عمارة شاهقة ، وما أبدعوا من آثار مادية ، فقد شادوا البنيان وخربوا الإنسان ، وأصلحوا الأرض وأفسدوا البَشر ، وعنوا بالطين ونسوا الدين ، وعاشوا للدنيا وأغفلوا الآخرة ، فلم تغن عنهم دنياهم من الله شيئاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِى الْبِلادِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢) .

بهذا حكم القرآن على الحضارات المادية المحضة أنها غير قابلة للبقاء والاستمرار ، وأن عاقبتها إلى دمار وتبار .

* *

٦ - لا تقبل دعوى بغير برهان :

ومن معالم العقلية العلمية فى القرآن : أنها لا تقبل أى دعوى تدعى بغير برهان علمى ، يشهد لها ، ويدل على صحتها وصدقها ، وما لم يوجد دليل يثبت الدعوى أو القضية المطروحة ، فهى فى نظر العقل المسلم مرفوضة ساقطة .

---

(١) الأنعام : ٦ (٢) الفجر : ٦ - ١٤

لقد رفض القرآن ما شاع لدى كثير من أرباب الديانات السابقة من قبول الدعاوى العريضة ، والمعتقدات الموروثة ، دون برهان يدل على صحتها ، ولم يرض بمسلك الذين قالوا : « اعتقد وأنت أعمى » ! أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » !

إن كل مؤمن بعقيدة مطالَب بإقامة البرهان على صدقها ، أو التسليم لمن يدعوه إلى عقيدة غيرها يؤيدها الدليل والحُجَّة .

وبهذا قرر القرآن هذه القاعدة الجليلة الكبيرة : أن لا دعوى بغير برهان !

نقرأ فى ذلك حديث القرآن عن دعاوى أهل الكتاب ، وتعقيبه عليها :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

ونقرأ كذلك حديثه مع المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أُخرى ، وحواره معهم فى قضية الوحدانية :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى يقول : ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١١١ — (٢) النمل : ٦٤

(٣) الأنبياء : ٢٤ — (٤) الأحقاف : ٤

وفى قضية التحريم والتحليل ، التى تجاوزوا فيها حدودهم ، فحرَّموا وحلَّلوا بالهوى أو بالوهم والظن أو بمجرد التقليد الأعمى ، يناقشهم القرآن :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [2] .

فأبطل بذلك دعوى الجبرية ، الذين يزعمون أنَّ ما هم فيه من ضلال الشرك وتحريم الحلال ، إنما هو بمشيئة الله تعالى ، يقصدون : المشيئة الملجئة لهم ، التى لا يملكون معها اختياراً ولا إرادة ، وكذبوا . ما لهم على هذا من دليل ، فإن كان لديهم علم فليخرجوه .

وفى قضية ادعاء البنوّة لله ، وأنه سبحانه اتخذ ولداً من الملائكة - الذين زعموا أنهم بنات الله ! - أو من البَشر مثل المسيح الذين قال النصارى فيه : ابن الله ، ومثل عزير ، الذى قال اليهود فيه : ابن الله ، نقرأ :

﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِىُّ ، لَهُ مَا فِى السَّمَوات وَمَا فِى الأَرْضِ ، إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

يعنى : ما عندكم من حُجَّة تؤيدكم فيما قلتم ، إن هو إلَّا قولٌ على الله بلا علم .

* *

---

(١) الأنعام : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٤٨ (٣) يونس : ٦٨

● القرآن يسمى الحُجَّة سلطاناً :

قال الحَبْرُ ابن عباس : « كل سلطان فى القرآن فهو الحُجَّة » .

وهذا ثابت بالاستقراء والتتبع لموارد الكلمة فى الكتاب العزيز .

يقول تعالى فى شأن المشركين : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) . أى يعبدون من الآلهة والأوثان ما لم تقم أى حُجَّة عليه ، لا من عقل ولا من نقل .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

يعنى : ما لم يؤيده بحُجَّة ، إنما هو من وحى أوهامكم وأهوائكم .

وفى مجادلة هود لقومه : ﴿ أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ (٣) .

وفى خطاب القرآن لمشركى العرب الذين عبدوا اللات والعُزَّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، نقرأ : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ (٤) . أى ما أنزل الله بها من حُجَّة ولا برهان ، بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم .

ونقرأ كذلك : ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) .

يعنى : أم لكم حُجَّة بيِّنة مقنعة ، فائتوا بها إن كنتم صادقين فى دعواكم .

---

(١) الحج : ٧١ (٢) الأعراف : ٣٣ (٣) الأعراف : ٧١

(٤) النجم : ٢٣ (٥) الصافات : ١٥٦ ، ١٥٧

وفى موضع واحد فى القرآن اختلف فيه ، وهو قوله تعالى فى مشهد من مشاهد القيامة على لسان مَن أُوتىَ كتابه بشماله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۞ هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ (١) . فقيل : المراد به : المُلْك والقدرة . أى ذهب عنى مالى ومُلْكى معاً ، فلا مال لى ولا جاه ، وقيل : هو على بابه ، والمراد : انقطعت حُجَّتى ، وبطلت ، فلا حُجَّة لى .

يقول العلامة ابن القيم : « والمقصود : أن الله سبحانه سمَّى علم الحُجَّة سلطاناً ؛ لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد . ولهذا ينقاد الناس للحُجَّة ما لا ينقادون لليد ، فإن الحُجَّة تنقاد لها القلوب ، وأما اليد فينقاد لها البدن . فالحُجَّة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة ، فقلبه خاضع لها ، ذليل مقهور تحت سلطانها . بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يُساس به ، فهو بمنزلة سلطان السباع والأُسود ونحوها : قدرة بلا علم ولا رحمة ، بخلاف الحُجَّة ، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ، ومَن لم يكن له اقتدار فى علمه ، فهو إما لضعف حُجَّته وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له ، وإلا فالحُجَّة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل ، قاهرة له » (٢) .

* *

● الشرك جهل لأنه دعوى بلا برهان :

ومن هنا اعتبر القرآن الشرك من باب الجهل المطلق ؛ لأنه محض دعوى ، لا تسندها بيِّنة ، ولا يشد عضدها برهان ، ولا يقوى ظهرها علم .

---

(١) الحاقة : ٢٨ ، ٢٩

(٢) مفتاح دار السعادة : ١/٥٩

قرأنا فى ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) .

وفى آية تحديد المحرَّمات الأصلية والدائمة قرأنا قوله تعالى : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ونقرأ فى مقام آخر على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٣) .

وفى الوصية ببر الوالدين : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ (٤) .

والشرك كله ليس للمرء به علم ، فهى صفة ثابتة دائمة لا تنفك عن الشرك .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥) .

وهذا الوصف : ﴿ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ ، إنما هو قيد لبيان الواقع ، الذى لا ينفك عن دعاء إلٰه مع الله ، فلا يُفهم منه أنه قد يكون مع المشرك يوماً برهان له به ، وإنما جىء به على هذه الصيغة لتعظيم قيمة البرهان .

* *

---

(١) الحج : ٧١ (٢) الأعراف : ٣٣ (٣) غافر : ٤٢

(٤) لقمان : ١٥ (٥) المؤمنون : ١١٧

● براهين يرشد إليها القرآن :

وإذا كان القرآن يرفض كل دعوى لا يقوم عليها برهان يثبتها ، فإننا نجده - فى مواطن شتَّى - يرشد إلى أنواع من البراهين أو الأدلة ، ينبغى اعتمادها والاستناد إليها .

من هذه البراهين التى هدى إليها القرآن العزيز :

(١) البرهان الحسِّى :

ونعنى به ما يدل عليه الحس كالمشاهدة ونحوها . نقرأ فى ذلك :

﴿ وَجَعَلُواْ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ، أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ (٣) .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ .... الآيات (٦) .

صحيح أن المراد هنا النظر العقلى ، ولكنه يبدأ بالنظر البصرى .

*

(١) الزخرف : ١٩ — (٢) الكهف : ٥١ — (٣) الأحقاف : ٤

(٤) لقمان : ١١ — (٥) الملك : ٣ ، ٤ — (٦) سورة ق : ٦

(٢) البرهان السمعى :

ونعنى به : البرهان المسموع من الوحى ، الذى ثبت بقواطع العقل ، والناطق بأوامر الرب ونواهيه ، فإذا ثبتت نبوة نبى بالآيات القاطعة الدالة على أنه لا يمثل نفسه ، وإنما يمثل إرادة الله الجليل ، وجب الأخذ منه ، والتلقى عنه ، فى كل ما يتعلق بأُمور التشريع والأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ونحوها ، ولا يُقبل من أحد دعوى شىء من هذا إلا ببرهان وعلم من عند الله .

وفى هذا يقول القرآن للذين حرَّموا وحلَّلوا الأنعام من عند أنفسهم : ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وحين قالوا : إن الله شاء لنا هذا ، على معنى أنه رضيه منا ، قال : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (٢) .

وحين زعموا أن الله أمرهم بالتعرِّى فى طوافهم بالبيت قال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٤) .

وفى موضع آخر يقول : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ (٥) .

ويقول أيضاً : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٤٨ (٣) الأعراف : ٢٨

(٤) الأعراف : ٣٢ (٥) الأنبياء : ٢٤ (٦) الزخرف : ٢١

﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

*

(٣) البرهان التاريخى :

وهو البرهان الذى يقوم على أساس الرواية الموثقة عن أحداث سبقت ، أو عن مشاهدة للآثار التى خلفها أهلها فى الأرض ، المعبِّرة بلسان الحال عما كانوا عليه من قوة وسطوة وعمارة للأرض .

نقرأ فى ذلك : ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ (٣) ، فهذه الأثارة من العلم تشير إلى التاريخ .

﴿ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ (٥) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ . . . . ﴾ (٦) .

*

---

(١) الأحقاف : ٤ — (٢) آل عمران : ٩٣ — (٣) الأحقاف : ٤

(٤) النحل : ٣٦ — (٥) غافر : ٢١ — (٦) الفجر : ٦ - ١٠

(٤) البرهان النظرى أو العقلى :

وهو البرهان الذى طالب القرآن به المشركين أن يقيموه على صحة شركهم : ﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

* القرآن يقيم الأدلة على القضايا العقدية الكبرى :

(أ) وجود الله :

وهو الذى أقامه القرآن للدلالة على وجود الله سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (٣) .

ولا يمكن أن يكونوا قد خُلِقوا من غير شىء ؛ لأن هذا ينافى قانون العلِّية أو السببية ، وهو أن كل مسبب لا بد له من سبب ، وكل أثر لا بد له من مؤثر ، وكل صنعة لا بد لها من صانع ، وهذا مبدأ فطرى لا ينازع فيه إلا مكابر . وإذا لم يُخْلَقوا من غير شىء ، فلا يمكن أن يكونوا هم خالقى أنفسهم ؛ لأن الشىء لا يخلق نفسه ، لأن المخلوق قبل خلقه عدم ، والعدم لا ينشىء الوجود .

ولا يمكن أن يكونوا هم خالقى السموات والأرض ؛ لأنها مخلوقة قبل وجودهم ، ولا يستطيع مخلوق أن يدَّعى أنه خلقهما .

*

(ب) وحدانية الله تعالى :

وهو البرهان الذى أقامه القرآن للدلالة على وحدانية الله تعالى ، وأنه واحد لا شريك له ، كما فى قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٤) .

---

(١) الأنبياء : ٢٤

(٢) النمل : ٦٤

(٣) الطور : ٣٥ ، ٣٦

(٤) الأنبياء : ٢٢

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ من وَلَد وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلَٰهٍ ، إذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لَّابْتَغَوْا إلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

*

(جـ) التنزيه عن الولد :

وهو نفس البرهان الذى أقامه القرآن على تنزيه الله تعالى عن الأولاد والأبناء ، التى زعمها المشركون والنصارى لله ، يقول تعالى : ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِىُّ ، لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) .

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إن كُلُّ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلَّا آتِى الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ (٤) . والعبد لا يكون ولداً .

وفى هذا يقول عمن قالوا : الملائكة بنات الله : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

فإذا كانوا عباده الخاضعين له ، المطيعين لأمره ، كيف يكونون أولاده ؟!

وفى مقام آخر يرد عليهم بمنطق آخر فيقول : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٦) .

*

(١) المؤمنون : ٩١ (٢) الإسراء : ٤٢ (٣) يونس : ٦٨

(٤) مريم : ٩٢ ، ٩٣ (٥) الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧ (٦) الأنعام : ١٠١

(د) إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل :

وهذا البرهان العقلى هو الذى أقامه القرآن على صحة إنزال الكتب وإرسال الرُّسُل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ، وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ﴾ (١) .

بيَّن لهم أنهم لم يعطوا الله تعالى حقه ، ولم يصفوه بما ينبغى له من صفات الكمال ، ولم يُقدِّروه حق قدره ، إذ نفوا نفياً مطلقاً إنزاله على بَشر كتاباً . والحكيم لا يدع عباده هملاً ، ولا يتركهم سدىً ، دون أن ينزل عليهم من كتبه ، ويبعث فيهم من رسله مَن يعلمهم ما يحبه منهم وما يكرهه ، ويقيم بينهم الموازين القسط ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه . كما قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ . . . ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ (٣) .

*

(هـ) البعث والجزاء :

وهذا البرهان العقلى هو الذى أقامه القرآن كذلك للدلالة على حقية البعث بعد الموت ، والجزاء العادل فى الآخرة ، ثواباً وعقاباً ، وجنَّة وناراً . نقرأ فى ذلك :

* دليل الخلق الأول :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (٤) .

---

(١) الأنعام : ٩١ — (٢) البقرة : ٢١٣

(٣) المائدة : ١٩ — (٤) الروم : ٢٧

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١) .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

*

* خلق السموات والأرض :

ثم يلفتهم إلى دليل آخر ، وهو خلق الأجرام العظيمة فى هذا الكون الواسع ، ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥) .

*

* إحياء الأرض الميتة :

ومن البراهين التى نبَّه عليها القرآن فى قضية البعث ، ورد شبهات المنكرين والمستبعدين : إحياء الأرض الميتة الهامدة ، حين ينزل عليها الماء ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، وما أشبه الإنسان بالأرض التى خُلق منها ، وعاش فيها ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة ق : ١٥ (٢) يس : ٧٨ ، ٧٩ (٣) غافر : ٥٧

(٤) يس : ٨١ (٥) الأحقاف : ٣٣ (٦) فصلت : ٣٩

وقد تكرر هذا المعنى فى سور عدة ، وبأساليب شتَّى ، لوضوحه ، وقوة تأثيره فى الخاصة والعامة على سواء .

*

* بطلان التسوية بين الأخيار والأشرار :

ومن البراهين التى ساقها القرآن للدلالة على صحة قضية البعث والجزاء : ما ينكره العقل الرشيد ، والفطرة السليمة من التسوية بين الأخيار والأشرار ، بين المتقين والفُجَّار ، بين مَن عاش عمره لفعل الخيرات وعمل الصالحات ، ولم يلق إلا التنكر والاضطهاد ، وربما قتله الجبابرة والظالمون ، ومَن عاش عمره فى ارتكاب الموبقات ، وإشاعة المنكرات ، وسفك الدماء ، ونهب الأموال ، وهتك الأعراض ، ومع هذا لم يلق جزاءه العادل فى الدنيا ، لأنه احتال على القانون ، أو كان أقوى من القانون ، أو كان هو حارس القانون ، ولكن كان كما قال المثل : « حاميها حراميها » !

إن هذه التسوية بين المختلفين فى الإيمان والكفر ، والخير والشر ، هى الباطل الذى يتنزَّه الخالق الحكيم عنه ، والحق - فى نظر القرآن - هو جزاء الذين أساؤوا بما عملوا ، والذين أحسنوا بالحُسْنى ، يقول القرآن :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨ (٢) الجاثية : ٢١ ، ٢٢

٧ - رعاية سنن الله فى الكون والمجتمع :

ومن معالم « العقلية العلمية » التى ينشئها القرآن : احترام السنن والقوانين التى أقام الله عليها نظام الكون ، ونظام المجتمع ، وهى سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول ، فهى تحكم على الناس جميعاً ، أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم ، حاضرهم وباديهم ، قويهم وضعيفهم .. لا تحابى أحداً ، ولا تتحامى أحداً ، الكل فى ميزانها سواء .

كما أن لها صفة الثبات والدوام ، فهى لا تتغير ولا تتبدل ، وهى تجرى على الآخرين كما جرت على الأوَّلين ، وتعمل فى عصر سفن الفضاء ، عملها فى عصر الجمل سفينة الصحراء .

يقول الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١) .

وقد ذكر القرآن كلمة « سنن » مجموعة منكَّرة ، كما فى هذه الآية ، كما وردت مفردة ومعرَّفة بالإضافة كما فى الآيات الأخرى .

اقرأ فى ذلك هذه الآيات من القرآن المكى :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً * سُنَّة مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (٢) .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ

(١) آل عمران : ١٣٧ (٢) الإسراء : ٧٦ ، ٧٧

إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (١) .

واقرأ فى القرآن المدنى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ (٢) .

كان هذا تعقيباً على قصة زينب بنت جحش وطلاقها من زيد بن حارثة متبنّى الرسول ﷺ ، وتحرجه من ذلك ، حتى لا يقال : تزوج محمد امرأة ابنه !
وفى نفس السورة : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ ، أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) .
وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (٤) .

والملاحظ : أن هذه الآيات كلها - مكية ومدنية - : أكّدت ثبات السُّنَّة واطّرادها ودوامها ، كما أنها جميعاً تتحدث عن السنن الاجتماعية .

أعنى : سنن الله فى الاجتماع البشرى : فى النصر والهزيمة ، والنجاة والهلاك ، والبقاء والزوال .

ومن أجل ذلك أنكر القرآن « السحر » واعتبره من عمل الشياطين ، ومن أساليب الكَفَرة ، واعتبره كفراً أو قريباً من الكفر ، وعدَّ تعلمه مما يضر ولا ينفع . قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى

---

(١) فاطر : ٤٢ ، ٤٣
(٢) الأحزاب : ٣٨
(٣) الأحزاب : ٦٠ - ٦٢
(٤) الفتح : ٢٢ - ٢٣

الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والرسول ﷺ أكَّدَ وجوب رعاية سنن الله تعالى ، بقوله وعمله وتقريره ، كما هو واضح فى سُنَّته وسيرته .

حينما كُسفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم ، قال الناس : كُسفت الشمس لموت إبراهيم ، وقد كان شائعاً فى اعتقادهم أن الشمس لا تُكسف ، والقمر لا يُخسف ، إلا لموت عظيم فى الناس ، ولو كان عليه الصلاة والسلام ممن يسكت على باطل لسكت على هذا القول الذى يُضفى على أُسرته هالة من العظمة والقدسية الزائفة ، ولكنه أنكر ذلك ورفضه جهرة ، وخطب فى الناس قائلاً : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبِّروا وصلُّوا وتصدَّقوا » (٢) .

وقد أنكر - صلى الله عليه وسلم - كل ما لا يقوم على السنن الطبيعية والاجتماعية فى أُمور الحياة والرزق والطب والتداوى والعلاقات المختلفة .

ومن هنا أكَّد تحريم السحر ، وجعله من الكبائر أو « الموبقات » ، أى المهلكات التى يجب تحذير الأُمة منها ، فقال : « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس . . . » الحديث (٣) .

وأنكر كذلك « التنجيم » الذى يقوم على التنبؤ بالغيبيات والمستقبليات ، وربط ذلك

---

(١) البقرة : ١٠٢

(٢) متفق عليه من حديث عائشة ، كما فى « اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان » الأحاديث (٥٢٠) ، (٥٢١) ، (٥٢٢) ، ومن حديث ابن عباس (٥٢٥) ، وأبى مسعود (٥٢٧) ، وأبى موسى (٥٢٨) ، وابن عمر (٥٢٩) ، والمغيرة (٥٣٠) .

(٣) متفق عليه عن أبى هريرة - اللؤلؤ والمرجان (٥٦) .

بالنجوم ، وحركاتها فيما زعموا ، وهو الذى قيل فيه : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وهو غير علم الفلك الذى يقوم على أساس من المشاهدة والحسابات الرياضية .

يقول الرسول الكريم : « مَن اقتبس علماً من النجوم ، فقد اقتبس شُعْبة من السحر ، زاد ما زاد » (١) .

وشدَّد النكير على اتخاذ التمائم الرقَى الجاهلية ، وأمر بمراعاة الأسباب الطبيعية فى التداوى والعلاج .

روى عنه ابن مسعود قوله : « إن الرقَى والتمائم والتِّوَلة شرك » (٢) .

والتِّوَلة (بكسر التاء وفتح الواو) : شيء يصنعه النساء (من ضروب السحر) للتحبب إلى أزواجهن .

وقال : « مَن علق تميمة فقد أشرك » (٣) .

إن المسلمين فى العصور الأُولى رعوا هذه السنن ، واحترموا شبكة الأسباب والمسببات ، فأقاموا حضارة مُثْلَى ، نشأت فى رحابها علوم كونية ورياضية ، امتدت جذوعها ، وبسقت فروعها ، وآتت أُكلها بإذن ربها .

* * *

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٠٧٤) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود – صحيح الجامع الصغير (١٦٣٢) .

(٣) رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر – صحيح الجامع الصغير (٦٣٩٤) .

الفصل السادس

الإعجاز العلمى فى القرآن

- طلب المشـركين الآيات الخارقة ورد القرآن عليهم .
- القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى .
- الإعجاز العلمى فى القرآن .
- ضـوابط ومحاذير .
- المطلوب من علماء الكون المؤمنين .

الإعجاز العلمي في القرآن

من خصائص القرآن الكريم : أنه كتاب « معجز » . فقد جعله الله تعالى الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى لخاتم رسله محمد ﷺ ، بل جعله الآية الوحيدة المتحدَّى بها ، فلم يتحدّ المشركين بأى آية من الآيات التى منحه الله إياها على كثرتها وتنوعها - إلا بالقرآن . حتى آية الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وآية المعراج من المسجد الأقصىٰ إلى السموات العُلَا ، إلى سدرة المنتهى ، لم يعتبرهما القرآن آية يتحدى بها ، إنما تحدَّاهم بالقرآن ، وبالقرآن وحده .

فقد تحدَّاهم أن يأتوا بحديث مثله ، ثم تنزَّل ، فتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله « مفتريات » !

ثم تنزَّل ، فتحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ووقفوا أمام هذا التحدى - الذى تكرر فى مكة ، ثم فى المدينة - عاجزين ، بل فى سورة البقرة المدنية تحدَّاهم تحدياً آخر ، إذ أعلن أنهم - برغم استعانتهم بمن شاؤوا ومَن استطاعوا - لن يفعلوا شيئاً ، ولن يقدروا على إجابة التحدى ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَاتَّقُوا۟ النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [1] .

وهكذا حقَّت عليهم الغَلَبة ، وخرست ألسنتهم الفصيحة برغم قوة الدوافع

---

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

التى تدفعهم إلى المغالبة والمقاومة للتحدى ، وصدق قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

* *

● إلحاح المشركين فى طلب الآيات الخارقة ورد القرآن عليهم :

كثيراً ما طلب المشركون - وألحوا فى طلبهم - آية كونية خارقة ، كالآيات التى عُرِفت عن الرُّسُل السابقين ، مثل ناقة صالح ، ومثل عصا موسى ، ومثل ما آتى الله المسيح عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأَكْمَه والأبرص بإذن الله ، والنفخ فى الطين المصوَّر كهيئة الطير ، فيكون طيراً بإذن الله ، ولكن القرآن لم يجبهم إلى طلبهم ، الذى حكاه عنهم فى أكثر من سورة ، ورد عليهم بأكثر من جواب .

نقرأ فى سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الرعد : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (٤) .

وقد بيَّن فى أكثر من سورة : لماذا لم ينزل عليهم ما اقترحوا من الآيات الكونية ؟

---

(١) الإسراء : ٨٨ (٢) الأنعام : ٣٧

(٣) الرعد : ٧ (٤) الرعد : ٢٧

ففى سورة الإسراء يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ (١) .

ومعناها : أن الآيات لم تحقق الهدف من إرسالها ، وهو الإيمان بالرُّسُل ، بل كذَّبوا بالآيات ولم يعبأوا بها !

وفى سورة الشعراء يذكر سبباً آخر ، إذ يقول : ﴿ إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٢) .

ومعناها : أنه لا يريد أن يلجئهم إلى الإيمان إلجاءً بآية خارقة ، تسوقهم إلى الإيمان وكأنهم مُكرَهون عليه .

بل المراد أن يدخلوا فى رحاب الإيمان باختيارهم الحر ، واقتناعهم العقلى الخالص ، دون أدنى شائبة لإكراه مادى أو معنوى - أو ما يشبهه أو يقترب منه - تخضع له أعناقهم ، وتذل له رقابهم .

وفى سورة أُخرى يرد عليهم رداً جديداً ، وهو أنَّ لديهم آية بيِّنة ، تكفيهم عن كل الآيات ، وهى القرآن العظيم ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

كان يكفيهم هذا الكتاب آية كبرى ، لو كانوا يعقلون ، ولكنه العناد والمكابرة والتعنت والإصرار على الباطل ، هى التى جعلتهم يبالغون فى اقتراح الآيات . ولو أنهم أُجيبوا إلى ما طلبوا ما آمنوا ، فهم يعرفون الحق ، ولكنهم يجحدونه ظلماً وعلواً ، أو بغياً وحسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق .

---

(١) الإسراء : ٥٩ (٢) الشعراء : ٤ (٣) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١

وهذا ما ذكره القرآن بصراحة مدهشة ، فى أكثر من موضع ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١) .

ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) .

* *

● القرآن هو المعجزة الكبرى :

أجل . . كان يكفيهم القرآن ، لو كانوا يبحثون - بحق وصدق - عن الحقيقة ، فهو آية الله التى أعجزت البَشر أن يأتوا بمثلها ، أو ببعضها .

وإعجاز القرآن للبَشر : موضوع رحب بحث فيه الأقدمون ، وزاد فيه المحدَثون ، ووجوه الإعجاز القرآنى كثيرة ، أظهرها : الإعجاز البيانى والأدبى ، وقد كتب فيه الكثيرون قديماً ، منهم : الإمام أبو بكر الباقلانى .

وكتب فيه الكثيرون حديثاً ، مثل الأديب المعروف : مصطفى صادق الرافعى ، وشيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه الفريد « النبأ العظيم » ، والأستاذ سيد قطب فى « التصوير الفنى فى القرآن » ، والدكتور بدوى طبانة فى كتابه « بلاغة القرآن » ، والدكتورة بنت الشاطئ فى تفسيرها البيانى للقرآن .

وهناك لون من الإعجاز أشار إليه القدماء ، وتوسَّع فيه المعاصرون ، وهو ما تضمنه القرآن من تشريعات وتوجيهات وتعاليم ، جمعت بين المثالية والواقعية ، ومزجت بين الروحانية والمادية ، ووازنت بين الدنيا والآخرة ،

---

(١) الأنعام : ١١١ (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥

ووفقت بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع ، وقد كتب فى ذلك السيد رشيد رضا كتابه الشهير « الوحى المحمدى » مجدداً فيه التحدى بالقرآن من جديد بما تضمنه من مقاصد ، وما دعا إليه من إصلاح . كما كتب فى ذلك الشيخ محمد أبو زهرة جملة مقالات تحت عنوان « شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله » نشرتها مجلة « المسلمون » الشهرية التى كان يصدرها الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله .

*　　*

● الإعجاز العلمى للقرآن :

أما اللّون الآخر من الإعجاز الذى كثر الحديث عنه فى عصرنا وانتشر انتشاراً بالغاً ، وأُلّفت فيه الكتب ، وعُقدت له المؤتمرات ، وأُنشئت له هيئات ، واختلف الناس بين مؤيد له ومعارض ، فهو ما يُعرف بـ « الإعجاز العلمى للقرآن » .

ولا يشك متخصص متعمق فى علمه ، دارس للقرآن ، معايش له : أنه قد تضمن إشارات علمية ، بل حقائق علمية ، تُعتبر من « باب الإعجاز » . لأنها فوق مستوى العصر الذى أنزل فيه القرآن ، والأُمة التى أُنزل لها القرآن ، والرجل الذى أُنزل عليه القرآن . فهو - باتفاق الجميع موافقين ومخالفين - أُمّى من أُمة أُمّية ، لا تكتب ولا تحسب . وهذا ما سجّله القرآن بجلاء : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١) .

من هذه الحقائق التى سجّلها القرآن ، وسبق بها العلم الحديث : أن الماء أصل الحياة ، وأن الكائنات الحية كلها مخلوقة من الماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (٢) ، ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ (٣) .

---

(١) العنكبوت : ٤٨　　(٢) الأنبياء : ٣٠　　(٣) النور : ٤٥

ومن هذه الحقائق : ظاهرة الازدواج أو « الزوجية » فى الكون كله ، لا يقتصر ذلك على الذكورة والأُنوثة فى الإنسان والحيوان ، وبعض النبات كالنخيل ، كما كان يعرف الناس فى عصر نزول القرآن ، بل هى ظاهرة كونية ، وقانون كُلِّى عام ، يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وهو ما ذكره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وما أروع قوله تعالى فى ختام هذه الآية : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ليدل على أن هذه الحقيقة أكبر من علم الناس ومعارفهم فى ذلك الزمان .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وقد كان بعض المفسِّرين القدامى يتأوَّل هذه الصيغة : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بأن المراد بها « الأغلبية » وليست على ظاهرها ، والأصل هو بقاء الألفاظ والعبارات على ظاهرها ، دون اللجوء إلى التأويل ، إلَّا إذا وُجِد ما يمنع من ذلك ، وقد أكَّد العلم الحديث هذه « الكلية » القرآنية ، وصدق ظاهر القرآن .

ومن هذه الحقائق : ما ذكره القرآن فى أطوار تكوين الجنين منذ كان نطفة فعلقة فمُضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، إلى أن خُلقت المُضغة عظاماً ، فكسيت العظام لحماً ، ثم أنشأه الله خلقاً آخر ، وهو تصوير دقيق لم يعرفه العلم والطب إلا منذ زمن قريب . كما شهد بذلك كبار الأطباء والعلماء المتخصصون فى « علم الأجنَّة » .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

---

(١) يس : ٣٦ (٢) الذاريات : ٤٩

الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ (٢) .

ومن الحقائق العلمية قوله تعالى فى بيان الطبيعة الجماعية للحيوانات والطيور : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ، مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ (٣) .

ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى فى وسائل المواصلات ، بعد أن ذكر الدواب التى كان يستخدمها الناس فى تلك العصور فى الانتقال : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فكأنما يشير إلى ما عرفناه فى عصرنا من القطارات والسيَّارات والبواخر والطائرات والصواريخ وغيرها مما نعلمه ، وما لا نعلمه ، مما قد يأتينا به الغد المجهول . وهو نوع من الإنباء بالغيب .

ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى فى بيان عِظَم أجرام النجوم التى يراها الإنسان فى السماء صغيرة كأنها نقطة ضوء ، وقد تكون أكبر من الأرض - كل الأرض - بملايين المرات : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ (٦) .

ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى فى تأييد النظرية التى تفترض وجود

---

(١) المؤمنون : ١٢ - ١٤ (٢) الحج : ٥ (٣) الأنعام : ٣٨

(٤) النحل : ٨ (٥) الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ (٦) النجم : ٤٩

كائنات حية فى عالَم الأفلاك : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّة ، وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ﴾ يعود على السموات والأرض ، وقوله : ﴿ مِن دَابَّة ﴾ يدل على الأحياء التى تدب على الأرض ، وليس المراد بها الملائكة قطعاً ، لأن الملائكة مما « يطير » بجناحيه ، وليس مما « يدب » . وفى آية أخرى ما يقطع بذلك ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَلله يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِن دَابَّة وَالْمَلاَئكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢) .

ومن هذه الإشارات ما ذكرناه من قبل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَة ، أَن تَقُومُواْ لله مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (٣) . فقوله : ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ يشير إلى ما أكَّده علم النفس الحديث من تأثير الغوغائية أو ما يسمى « العقل الجَمعى » على سلامة الإدراك ، وسداد الحكم على الأشياء ، لذا طلب من الإنسان أن يفكر وحده ، أو مع صديق مخلص له ، فى هدوء وإخلاص ، حتى يصل إلى الحقيقة .

والأمثلة كثيرة ، والعلماء المتمكنون فى علومهم الكونية والرياضية ، بل والإنسانية ، الذين يعايشون القرآن - ولهم ثقافة عربية وإسلامية مناسبة - يجدون روائع فى هذا المجال ، تعجب وتروق وتبهر .

وقد اجتهد أخونا الداعية الإسلامى الشهير الشيخ عبد المجيد الزندانى بحماسه المعروف للإعجاز العلمى حتى أقام لهذا الإعجاز هيئة علمية فى رابطة العالم الإسلامى ، قدَّمت دراسات ، وأقامت مؤتمرات .

* *

● ضوابط ومحاذير :

وكل ما أحذر منه هنا ، ما يقوم به بعض الكاتبين المتعجلين من افتعال وتمحل ، لاستخراج معنى من آية يدخل فى « الإعجاز العلمى » ، وهو معنى مقحم على الآية متكلف لا ينبغى حمل كلام الله عليه .

---

(١) الشورى : ٢٩ (٢) النحل : ٤٩ (٣) سبأ : ٤٦

وذلك مثل قول بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (١) . ففسَّر النفس الواحدة بـ « الألكترون » فى « الذَرَّة » وزوجها الذى خُلق منها بـ « البروتون » !

وهو اعتساف لا تدل عليه الألفاظ ولا السياق ، بل السياق يرفضه تماماً ، بدليل قوله فى تتمة الآية : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ !!

ومثل ذلك ما زعمه بعضهم : أن القرآن أشار إلى فكرة « تحطيم الذَرَّة » حين ذكر أن هناك ما هو أصغر من الذَرَّة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) . فإن كلمة « ذَرَّة » عند العرب فى عصر نزول القرآن ، وبالتالى فى القرآن : لا تدل على المعنى الاصطلاحى الذى نعرفه اليوم فى علم « الفيزياء » . ولا يجوز أن نحمل ألفاظ القرآن على المصطلحات الحادثة بعد عصر نزوله ، لأن ذلك يُعَد شروداً عن المنهج القويم فى الفهم والاستنباط .

كما لا يجوز أن ندخل فى هذا المجال « الفروض العلمية » التى لم تزل موضع أخذ ورد ، وجذب وشد ، بين أهل الاختصاص من العلماء ، فلا يليق بمن يتبنى هذه الفروض أن يحاول جر القرآن الكريم لتأييد فرضه ، وقد يثبت بطلانه بعد أمد ، فنعرِّض معه كلام الله تعالى للقيل والقال .

ومن ناحية ثالثة : لا يجوز أن يكون هذا الفهم الجديد للآية مبطلاً للأفهام السابقة ، بحيث لا ينبغى أن نتهم الأُمة كلها منذ عهد الصحابة رضى الله عنهم ، بل ربما الرَّسُول نفسه ، بأنهم لم يكونوا يفهمون الآية ، وأن كل

---

(١) النساء : ١ (٢) يونس : ٦١

ما ورد عنهم فى تفسيرها باطل ، وأن المعنى الوحيد الصحيح هو ما فهمه الكاتب أو المفسِّر الجديد .

وإنما اللائق هنا أن يكون هذا المعنى إضافة جديدة ، تُضَم إلى ما سبق ، ولا تبطله ، فمن خصائص هذا القرآن : أنه « لا تنقضى عجائبه » .

وأعرف من إخواننا العلماء الطبيعيين المشغولين بدراسة القرآن ، وبالثقافة الإسلامية عامة : مَن يحرصون كل الحرص على رعاية هذه الضوابط ، واتقاء تلك المحاذير .

من هؤلاء أخونا الأستاذ الدكتور زغلول النجار أستاذ العلوم الچيولوچية ، وله كتابات متعددة فى هذا الجانب ، اتسمت بالتوازن ، والبُعْد عن الغلو .

ومن هؤلاء صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى أستاذ العلوم البيولوچية ، وله أكثر من دراسة ومشاركة فى هذا المجال .

ومن ذلك بحث قدَّمه فى أحد المؤتمرات عن موقف علماء الطبيعة من الثقافة الإسلامية .

* *

● ما هو مطلوب من علماء الكون المؤمنين :

وقد بيَّن فى هذا البحث ماذا ينبغى على العالِم الطبيعى المؤمن بالله تعالى ، وبرسوله الكريم ، وبكتابه العظيم ، فقال :

« ولكن ماذا هو مطلوب من علماء الطبيعة المؤمنين ؟! قلنا : إن المؤمنين أُمِروا بالنظر فى آيات الكون . وقلنا : إن هذا النظر درجات . فالتعمق فيها فرض كفاية على القادرين عليه ، ويرى الإمام الغزالى - فى « إحياء علوم الدين » - أن الطب والحساب . اللَّذين لا يُستغنى عنهما فى قوام أُمور الدنيا ، من فروض الكفايات . أما التعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب فهو بعد فضيلة لا فريضة . ولكننى لست فى حاجة إلى أن أزيد على ما قاله حُجَّة

الإسلام - رضى الله عنه - إن المسألة هنا تقديرية ، وتختلف حدودها من عصر إلى عصر ، فلا شك أن ما كان بالأمس فضيلة ، قد يصبح اليوم فريضة .

« وعلماء الطبيعة المؤمنون مكلَّفون أيضاً بتبصرة غيرهم بعلومهم وبما انتهى إليه بحثهم . وعلى القادرين منهم أن يتصدوا لخدمة كتاب الله العزيز . فمن قبل أُسست علوم النحو والصرف والبلاغة وفقه اللُّغة وما إليها من فنون العربية وآدابها ، لأسباب أهمها تقديم العون لدراسة القرآن الكريم وتدوين تفاسير له . ومن ثَمَّ سميت بالعلوم الخادمة لعلم التفسير الشريف . وأعتقد أن العلوم الطبيعية الحديثة ينبغى أن تتقدم لتنال شرف هذه الخدمة فى هذا الزمان . وهذا بالتحديد هو وظيفتها العظيمة المتواضعة . ولكن على كل مَن يتصدون للقيام بهذا الواجب أن يتخذوا الأهبة الكاملة للقيام به . ففضلاً عن تمكنهم فى علومهم ، عليهم أن يلموا إلماماً طيباً بأسرار بلاغة القرآن ، وأن يطلعوا على أُمهات كتب التفسير اطلاع المتعلم المتأنى ، لا اطلاع المتهجم العجول ، وعليهم أن يسألوا أهل الذكر فيما لا يعلمون . . وينبغى ألا يُترك هذا الأمر الجليل لكل مَن هَبّ ودَبّ !

« وآيات القرآن الكريم مُيَسَّرة للنظر الفطرى البسيط ، والنظر المتأمل المتعمق ، لأنها أُرسلت للناس كافة وفى كل زمان . فالسموات - مثلاً - آيات رائعة معجزة عند الأُمِّى وعند عالِم الفلك المتخصص على السواء ، كل منهما بقدر إدراكه . والإبل فى خلقها آيات تبدو للبدوى وتخاطب فِطرته السليمة ، وما زالت - فى الوقت نفسه ، وهى بالذات - تتحدى بحوث العلماء فى القرن العشرين . . وهكذا فى عشرات من الأمثلة ، وهذا سر من أسرار بلاغة القرآن : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

---

(١) فصلت : ٥٣

« وعلى هذا فليس من الجائز - فى رأيى - قبول تفسير عصرى لآية من القرآن الكريم يجزم صاحبه بأنه هو وحده المراد من الآية ، وأن هذا المعنى لم يتكشف إلا في هذا الزمان . . وإنما هو العلم ؛ بطبيعته النامية المرنة ، يفتح من مغاليق الأسرار كل يوم باباً ؛ ولا يبطل حديثه قديمه .

« إن تقديم هذه الخدمة لفهم القرآن الكريم ليس فى حاجة إلى تمحل أو افتعال ، فما أغنى كتاب الله عن هذا كله الذى يقال بمناسبة وبغير مناسبة فى هذه الآيام ؛ والقول بما يسمى « الإعجاز العلمى للقرآن الكريم » مسألة دقيقة للغاية ، ويجب أن يوزن بموازين علمية وتاريخية دقيقة . والحرص على ألا يوضع القرآن الكريم والعلم الحديث فى سباق ، حرص له محاذيره ، وليس له فى كثير من الأحيان ما يبرره . ولِمَ كل هذا التكلف يا سادة ؟ إنكم لا تهدون مَن أحببتهم ، فمجرد العلم وحده لا يكفى للإيمان ، إنما ينبغى أن تسبقه هذه الفِطرة السليمة ، والرغبة الأكيدة لمعرفة الحق . . ولا بد له من هذه الجذوة التى يلقيها الله فى قلوب عباده الذين ينشدون معرفته .

« وقد تأكد عندى هذا المعنى - على الأخص - عندما صعد أحد رُوَّاد الفضاء الروس خارج مدار الأرض ورأى ما لم تره عينا بَشَر من مُلْك الله . فماذا قال ؟ قال ساخراً : إننى لم أر الله فى السماء ! وعندما صعد أمريكى مؤمن ، ومرَّ بالتجربة نفسها ، قال : لم أكن قريباً من الله قربى منه فى تلك اللَّحظة !

« وما من شك فى أن بعض مَن حاولوا التعليق العلمى على تفسير آى الذكر الحكيم ، قد خانهم التوفيق ، كمن تهجم على الغيبيات ؛ بغير علم وبلا ضرورة ، يُصوِّرها كما زيَّنها له خياله أو هواه ؛ أو مَن تحدَّثوا عن الذَرَّة وانشطارها ، أو عن النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان العلم ، أو أن

إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها : المقصود منه هو قصر محورها العمودى بمقادير محسوبة على مدى الآلاف أو الملايين من السنين ، أو يتمحل المعانى ويشد الألفاظ من تلابيبها مدللاً على كروية الأرض ، وما إلى ذلك . فغنى عن القول أن هذا كله مخالف للعلم وللتفسير والمنطق وسياق القرآن الكريم جميعاً . ومع أن هذا يحتاج إلى رد وتصويب ، إلا أنه ليس مبرراً لأن ننكص على أعقابنا ، ولو من باب سد الذرائع ، وأذكر للمتمحلين والمفتعلين أن هذه الأمور كلها ليست عقائد ، ثم إنها ليست فى حاجة إلى كتاب عزيز أو رسول من السماء ، والحال أنَّ الله قد وهب الإنسان خليفته فى الأرض من المَلَكات ما يستطيع بها تحصيلها وإدراكها . ثم إنها لم تكن صالحة فى معظم الأزمنة الماضية للدعوة إلى الإيمان بجوهر الدين ، لأنها سلسلة من المقدمات والنتائج لكل منها أوان مناسب له ، ووسائل متطورة لإظهاره . ومع ذلك فالقرآن الكريم - كما ذكرنا - أطلق الفكر وحثّ الإنسان على أن يعلم ، ولكن بوسائل العلم ومداخله الطبيعية ، من التفكير والتدبر ، وإزالة الغشاوات عن الأبصار والبصائر ، وتحطيم الأقفال عن الأفئدة والعقول .. وكان هذا خيراً وأبقى من أى كتاب فى العلم ، لأنه مهما كبر حجماً أو عظم شأناً فهو كتاب محدود ، أما إيقاد جذوة الفكر وطلب العلم فهى هبة لا تخبو ونعمة لا تنتهى .

« إن موريس بوكاى ، الطبيب والباحث الفرنسى ، يقول فى كتابه الذى نشرت ترجمته العربية منذ شهور بعنوان : « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » : « لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية ، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات عديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كُتِب من أكثر من ثلاثة عشر

قرناً »[1] (مع تحفظى على لفظة « كُتِب » . وهى فى الترجمة الإنجليزية ، التى اشترك المؤلف نفسه فى إعدادها ، اللّفظ المقابل هو « جمع » Compiled) .

« وهو ينتهى إلى أن ما جاء فى القرآن الكريم مطبوع « بإيجاز فى القول والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم » . وأنه لم يجد فى القرآن الكريم ما ينافى العلم الحديث . . . وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾[2] .

« إن توضيح تفسير القرآن الكريم بما يناسبه من حقائق العلم ، بالتحفظات التى ذكرتها والشروط التى ذكرت أهمها ، مفيد للمؤمنين يثبت إيمانهم ، ويزيل أوهامهم وشكوكهم ، ويزيدهم هدىً : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] . كما أنه قد يكون كذلك مقنعا لغيرهم ممن يشرح الله قلبه للإيمان . هذا فضلاً عن تزويده طُلاب العلوم الدينية وقارئيها بمقدار من الثقافة العلمية اللازمة لحسن فهمهم لما يقرأون ، ولإلمامهم بشىء من صميم طبيعة العصر الذى يحيون فيه ، وهذا يعينهم ويزيد كفاءتهم لإرشاد الناس وهدايتهم . . فضلاً عن تقريبه للفجوة بين أهل الثقافتين ، وأخشى إن لم نفعل هذا ونحرص عليه تحول كتاب الله من رسالة خالدة متجددة الإعجاز والإقناع إلى تراث عتيق . . وهذا هو غاية ما يبتغيه أعداء الدين ، ولكنه بإذن الله لن يكون .

« وأخيراً . . ثمة أمر آخر ينبغى على علماء الطبيعة أن يفعلوه ، وعلى

---

(١) موريس بوكاى « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » ، ترجمة عربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤

(٢) النساء : ٨٢ (٣) الحج : ٥٤

الأخص إن كانوا معلِّمين . وهو أنه ينبغى عليهم أن يقدموا علمهم نابعاً من إيمانهم ، ومنتمياً إليهم وإلى وطنهم وبيئتهم . . . فهناك عشرات من المواضع التى يستطيعون فيها أن يُكسبوا دروسهم ومحاضراتهم ألواناً إنسانية جذَّابة للقلب والعقل معاً . بدلاً من كونها صفحات أو فصولاً مستوردة من علم الغرب ، غريبة على سامعيها ، دخيلة عليهم ، ولا يسارعنّ أحد بالرد علىَّ بأن العلم عالمى لا وطن له ، وأن حقائقه صادقة فى الغرب صدقها فى الشرق ، فهذا صحيح ، ولكننى أعتقد أن حقائق العلم يمكن أن تُقدَّم فى أساليب جديدة قريبة إلى أفهام المستمعين ونافذة إلى صميم كيانهم الذهنى . وأؤكد لكم أن هذا مستطاع دون أن ينتقص من دقة العلوم شيئاً . طبعاً مع التحفظ الواجب بتجنب التمحل والافتعال » .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث : العلم والفقه والحكمة ..
فى لسان القرآن
(١٤٧ - ٢٠٤)

الفصل الرابع : التعلم والتعليم فى القرآن
(٢٠٥ - ٢٤٦)

الفصل الخامس : تكوين العقلية العلمية فى القرآن

(٢٤٧ - ٢٨٢)

الصفحة

الفصل السادس : الإعجاز العلمى فى القرآن
(٢٨٣ - ٢٩٩)

* * *

رقم الإيداع ١٠٣٧٦/ ١٩٩٥

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-225-025-3



كتب للمؤلف

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام .
(١) شمول الإسلام .
(٢) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة .
(٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ، ومن التمائم والكهانة والرقى .

* سلسلة حتمية الحل الإسلامي:
(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا
(٢) الحل الإسلامي فريضة وضرورة
(٣) بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين
(٤) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة .

* سلسلة فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة « في الطريق إلى الله »
(١) الحياة الربانية والعلم
(٢) النية والإخلاص .
(٣) التوكل .

* سلسلة عقائد الإسلام :
(١) وجود الله .
(٢) حقيقة التوحيد .

* سلسلة في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم :
(١) الصبر .. في القرآن
(٢) العقل والعلم .. في القرآن الكريم

* سلسلة رسائل ترشيد الصحوة :
(١) الدين في عصر العلم .
(٢) الإسلام .. والفن .
(٣) مركز المرأة في الحياة السياسية الإسلامية
(٤) النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه .
(٥) فتاوى للمرأة المسلمة .

* إسلاميات عامة .
- الحلال والحرام في الإسلام .
- الإيمان والحياة .
- الخصائص العامة للإسلام .
- العبادة في الإسلام
- ثقافة الداعية .
- فقه الزكاة « جزآن » .
- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
- بيع المرابحة للآمر بالشراء ، كما تجريه المصارف الإسلامية
- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .
- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
- رسالة الأزهر بين .. الأمس واليوم والغد .
- جيل النصر المنشود .
- نساء مؤمنات .
- ظاهرة الغلو في التكفير .
- الناس والحق .
- درس النكبة الثانية . لماذا انهزمنا وكيف ننتصر ؟ .
- عالم وطاغية « مسرحية »
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
- عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية .
- الوقت في حياة المسلم .
- أين الخلل ؟
- الرسول والعلم .
- نفحات ولفحات « ديوان شعر »
- الإسلام والعلمانية وجها لوجه .
- فتاوى معاصرة « جزآن »
- شريعة الإسلام
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
- قضايا معاصرة على بساط البحث .
- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية
- المنتقى من الترغيب والترهيب «جزآن» .
- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي .
- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- من أجل صحوة راشدة .
- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .
- الدين في عصر العلم .
- فوائد البنوك هي الربا الحرام .
- كيف نتعامل مع السنة .
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
- تيسير الفقه .. « فقه الصيام» .
- لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر
- المدخل لدراسة السنة النبوية.
- يوسف الصديق «مسرحية شعرية».
- قطوف دانية من الكتاب والسنة .
- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
- المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
- محاضرات الدكتور القرضاوي .
- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .
- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي
- السنة مصدر للمعرفة والحضارة .
- خطب الشيخ القرضاوي (جـ١) .
- دروس في التفسير « تفسير سورة الرعد» .
- في فقه الأولويات : دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة .
- الإسلام حضارة الغد .
- الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم.